مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

محاضرات المجمع

في عامي

٢٠٠٩ - ٢٠١٠

١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

محاضرات المجمع

في عامَيْ ٢٠٠٩ و ٢٠١٠

مجمع اللغة العربية بدمشق

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

محاضرات المجمع

في عامَيْ ٢٠٠٩ و ٢٠١٠

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أ.محمد خالد الفجر

أمين لجنة النشاط الثقافي

لقد سنّ المجمع سنةً حسنةً في الجمع بين خيرين: إلقاءِ المحاضرات الثقافية في قاعته، ثم جمعها في مطبوعاتٍ مستقلة كي يتسنى لأكبر عددٍ من الجمهور الاطلاعُ على النَّشاطات الثقافية للمجمع.وما هذه المحاضرات إلا تأكيدٌ لدوره الاجتماعي وتواصله بالمجتمع، وما من أحدٍ ينكر دور الثَّقافة في رفع مستوى الفكر والوعي عند الجمهور.

وفي هذا الكتاب ينشر المجمع المحاضراتِ الثَّقافيةَ التي أُلقيت على منبره عامي ٢٠٠٩-٢٠١٠ وقد شملت جوانبَ قانونية ولغوية وفكرية وفلسفية.

والمجمعُ إذ يواصل نشرَ ما أُلقي في قاعته الكبرى، يأمُل أن ينتفع بهذه المحاضرات أكبرُ عددٍ من القرّاء الذين يريدون نهضةً لأمتنا في جميع المجالات ولا تتمُّ نهضةٌ بغير ثقافة.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

الإدارة بالشفافية

أ.د. مهند نوح(*)
كلية الحقوق – جامعة دمشق

أولاً- القاعدة التقليدية: السِّرِّيَّة الإدارية:

لقد عاشت الإدارة العامة منذ القدم في حالة من السرية، حيث كانت الفكرة السائدة أنَّ الأفضل للمصلحة العامة أن تبقى الشؤون العامة بعيدة عن عيون الجمهور. وتقتضي السرية ألاّ يعلم بالسر إلا الأشخاص الذين تحتم الظروف اطلاعهم عليه، ومن ثَم فإن السرية تقتضي أن يجري العمل المراد كتمانه بعيدًا عن كل شخص ليس طرفًا فيه. **ومن ثم فقد غرست البيروقراطية منذ زمن طويل في ضمير الإدارة أن تدعيم سلطتها واستقلالها، لن يتجسد إلا بالعمل ضمن حلقة مغلقة بدلاً من سماء مكشوفة.**

وإذا كانت ضرورات **مراعاة المصلحة العامة تفرض- دون شك- وجوب أن تظل بعض المجالات والأنشطة والأعمال بعيدةً عن النشر والإفصاح؛ لأهميتها ومساسها بالمصالح الحيوية المختلفة للدولة، ولما يترتب على ذلك من تأثير ضار عليها، فإن ذلك لا يُعَدُّ قاعدة عامة بالنسبة لأنشطة الدولة الأخرى.**

وكذلك فإن احترام الحياة الخاصة للأفراد يوجب عدم إفشاء المعلومات المتعلقة بها، وخصوصًا الأسرار التي يقوم الأفراد بإيداعها أو بالإفضاء بها لطوائف معينة من الموظفين العموميين، التي تصب في خانة الأسرار المهنية.

(*) محاضرة ألقيت في قاعة المحاضرات في مجمع اللغة العربية بتاريخ ٢٨ ربيع الأول / ١٤٣٠هـ الموافق ٢٥ آذار / ٢٠٠٩م.

ولكن بعيدًا عن هاتين الحالتين، **نجد أن الإدارة العامة التقليدية قد درجت على اتباع نهج السرية المطلقة في كافة وجوه نشاطها، لتصبح أصلاً عامًا يحكم عمل الإدارة العامة.**

وقد قامت فلسفة السرية على ركيزة هامة **تتمثل في وجوب أن يكون للشخص المعنوي العام حياته الخاصة كالشخص الطبيعي تماما، ومن ثمَّ فإن العلانية والوضوح يُعَدّان اعتداء على حياة الإدارة الداخلية. وارتكزت هذه الفلسفة أيضًا على ضرورة استقلال العاملين ضمن الإدارة، حيث إن الموظفين سيعملون بقدر أقل من الحرية والاستقلال**، إذا خطر في أذهانهم أن آراءهم سوف يطلع عليها الآخرون.

وكان موقف القضاء الإداري من العوامل المساهمة في تدعيم أركان السرية الإدارية، وذلك على أساس أن الإدارة غير ملزمة مع غياب النص القانوني الصريح بإطلاع الأفراد على المعلومات المتوفرة لديها، أو في تسبيب قراراتها بوجه عام.

ومما دعم ذلك أن المشرعين في الدول المختلفة، قد اتجهوا نحو إقرار السرية مبدًا قانونيًا عامًا، يطول حياة الإدارة العامة الداخلية، ويفرض واجبًا وظيفيًا على العاملين لديها.

وتنقسم الأسرار في الإدارة العامة إلى أنواع:

١- **الأسرار بطبيعتها**: وهي التي تقتضي بحكم ماهيتها ألا يطلع عليها إلا بعض الأشخاص بحكم عملهم ضمن الإدارة، ومن ثم فلا يُشترط لتكتسب معلومة ما هذه الصفة أن تصدُر تعليماتٌ خاصةٌ بذلك. وذلك مثل الأسرار المتعلقة بالمناقصات والعقود الحكومية.

٢- **الأسرار الحكمية**: وهذا النوع من المعلومات ليس سرًا في حد ذاته، ولكنَّ إذاعته سوف تؤدي من حيث النتيجة إلى إذاعة سرٍّ بطبيعته.

٣- **الأسرار اعتمادًا على نص**: وهي تلك المعلومات الإدارية التي يقرر القانون صراحةً طبعها بالطابع السري.

٤- **الأسرار بحكم التعليمات**: وهي المعلومات الإدارية التي لا تُعد سرية بطبيعتها، ولكنَّ التعليمات التي تصدر عن الرؤساء الإداريين تطبعها بهذه الصفة.

٥- ومن الملاحظ أن النزوع إلى السرية قد تبلور من خلال أربع نقاط هي:

أ- الصفة غير الحضورية لإعداد القرارات الإدارية. استنادً إلى عدم الاطلاع والمشاركة في صنع القرارات الإدارية التي تهم الأفراد.

ب- عدم علانية المداولات المتعلقة بإصدار القرارات الإدارية.

ج- سرية كافة الوثائق الإدارية، ومن ثم فإن القاعدة الأساسية هي عدم إِطلاع المواطنين على هذه الوثائق إلا بصفة استثنائية.

د- قاعدة عدم تسبيب القرارات الإدارية، فالإدارة غير ملزمة بتحديد مبررات قراراتها، إلا إذا فرض القانون عليها ذلك بنص خاص.

ومن الملاحظ أن قانون العاملين السوري ذا الرقم ٥٠/ ٢٠٠٤ قد حظر على العامل في الدولة أن يفشي الأمور التي يطلع عليها بحكم وظيفته، إذا كانت سرية بطبيعتها أو بموجب تعليمات تقضي بذلك. ويظل هذا الالتزام قائمًا بعد ترك العامل الخدمة (الفقرة /أ/ من المادة ٦٤ من قانون العاملين)، كما حظر على العاملين الجمع بين وظائفهم وبين العمل في القطاع الخاص خصوصًا، وذلك خشية إفشاء الأسرار الإدارية، التي يُطَلع عليها لمصلحة الغير (الفقرة /و/ من المادة ٦٤ من قانون العاملين)، **واستكمالاً للالتزام بالسرية، فقد حظر قانون العاملين أيضًا على العامل أن يحتفظ لنفسه بأصول الأوراق الرسمية، كما حظر عليه أن يقوم بنزعها من ملفاتها (الفقرة /ج/ من المادة ٦٤ منه).**

وعلى كل حال، فقد ثبت أن السرية الإدارية هي إحدى أسباب الفساد الإداري؛ إذ إن الفساد الإداري يظل عملاً مستترًا ويتم عادة في إطارٍ من السرية والخوف، فمن النادر أن تتم أعمال الفساد بشكلٍ ظاهر.

ثانيًا- الانتقال من السرية إلى الشفافية:

الشفافية بوجهٍ عام هي القدرة على إبصار الأشياء الموضوعة خلف جدران، ومن ثمَّ القدرة على رؤية هذه الأشياء وإدراك حقيقتها.

أما من الناحيتين القانونية والإدارية، فإن الشفافية هي حق كل مواطن في الوصول إلى المعلومات ومعرفة آليات اتخاذ القرار ضمن الإدارة، بحيث تصبح الإدارة العامة إدارة من زجاج، فيكفي النظر من خارجها لمعرفة ما يدور بداخلها، وبذلك تعد الشفافية متطلبًا ضروريًا لوضع معايير أخلاقية للعمل الإداري، كما تُعد المنطلق نحو عقلنة العملية الإدارية وترشيدها. والشفافية بهذا المعنى تغدو حقًّا من حقوق المواطنين لدى الإدارة، وواجب على هذه الأخيرة يجب مراعاته.

وإذا أردنا تحليل التعريف السابق، نجد أنه يتكون من العناصر الآتية:

١- إن وجود مبدأ الشفافية في عمل الإدارة، يفترض أولا **وجود التزام قانونيٍّ واقعٍ على عاتق الإدارة بهذا الشأن، ومن ثم فيجب أن يُفرض فرضًا بمقتضى نصوصٍ تشريعيةٍ** ملزمة.

٢- إن المضمون الأهم الذي يحمله التعريف السابق **إنما يتمثل بوجوب سعي الإدارة إلى المواطنين وتزويدهم بالبيانات والمعلومات الصادقة عن كافة مظاهر النشاط الإداري لديها.** مع كل ما يحمله ذلك من إقرار بحق المواطنين في الوصول، والاطلاع على كافة بيانات ووثائق الإدارة بمختلف أنواعها.

٣- وإذا تبلور مفهوم الشفافية وفقًا لما تقدم آنفًا **فإن هذا المفهوم ذاته يفرض وصولاً غير مكلف للمواطن إلى المعلومة، أو الوثيقة الإدارية المطلوبة.**

٤- ويفترض التعريف السابق وجود التزام **على عاتق الإدارة العامة بالإفصاح عن الأسباب الواقعية والقانونية، التي كانت وراء قيام الإدارة بالتصرف الإداري.**

وفي الحقيقة إن الأساس الفلسفي الذي تقوم عليه فكرة الشفافية الإدارية إنما يتمثل في نظرية العقد الاجتماعي التي تفترض ما يلي:

١- وجود حقوقٍ وحرياتٍ طبيعية للأفراد سابقةٍ على قيام المجتمع السياسي، وقد تم التنازل عن هذه الحقوق لمصلحة الجماعة، كما عبر الفيلسوف جان جاك روسو. إلا أن

ذلك يعني في النهاية أن تبقى هذه الحقوق قيدًا على الحكام لا يستطيعون الحد منها، أو الاعتداء عليها.

٢- إن الانتقال من حالة الفطرة لتكوين المجتمع السياسي كان وليد الإرادة الحرة للأفراد.

٣- إن القانون هو تعبير عن الإرادة العامة، وإن الحرية تقتضي مساواة الأفراد في ممارستها.

ودون أدنى شك فإن كافة النتائج السابقة لا يمكن تحقيقها، إلا في ظل إدارةٍ عامةٍ واضحة، وهذا يفترض تبني مبدأ الشفافية الإدارية. وهذا يعني بالنتيجة أنَّ عملية الشفافية الإدارية هي تأكيدٌ على حالة التوافقية التاريخية التي بُني على أساسها العقد الاجتماعي.

ثالثًا- التطبيقات التشريعية المقارنة للشفافية فيما يتعلق بالاطلاع على الوثائق الإدارية:

لقد كانت فرنسا من أوائل الدول الأوربية التي تبنت حق اطلاع المواطنين على الوثائق الإدارية، حيث صدر قانون ١٧/ ٧/ ١٩٧٨ المعدَّل بقانون ١٢/ ٤/ ٢٠٠٠، الذي سُمِّي بقانون تحسين علاقة الإدارة بالمواطنين. **وبمقتضى هذا القانون أصبح للأفراد المتعاملين مع الإدارة حق الاتصال بكافة الوثائق الإدارية والاطلاع عليها، وأناط الرقابة على تنفيذ ذلك بسلطة إدارية مستقلة، هي لجنة الدخول على الوثائق الإدارية:**

(La commission de l'accès aux documents administratifs)

وبذلك فإن الاتصال بالوثائق الإدارية قد تطور من مجرد كونه مكنة خاضعةً لتقدير الإدارة، إلى حق يمكن أن يطلبه المتعامل معها في كل وقت، ودون أن تستطيع الإدارة رفضه، عن طريق تذرعها بالتكتم المهني. ومن الملاحظ أن مصطلح الوثيقة الإدارية **يُفسر بمعناه الواسع في مجال تطبيق القانون المذكور،** ومن ثم تشمل حتى الوثائق الصادرة عن أشخاص القطاع الخاص طالما أنيط بها مهام إدارة مرفق عام. ويكون الأمر ذلك إذا كانت المهمة يمارسها شخص معنوي عام، ولا تتعلق بمرفق عام كما هو الحال مثلاً بالنسبة لعقود القانون الخاص التي تبرمها الإدارة.

ولكن لا ينصرف مفهوم الوثيقة الإدارية **التي يجب الاطلاع عليها إلا إلى الوثيقة الموجودة والمحددة والمنجزة**، ومن ثمَّ لا تُلزم الإدارة بإعداد وثيقة لم توجد بعد، كما لا تلزم بإعداد وثيقة لحاجات الاطلاع، ولكن لا يُشترط أن تكون الوثيقة المطلوبة للاطلاع في حيازة الإدارة التي أصدرتها؛ إذ قد تكون في حيازة إدارة أخرى.

ويشمل حق الاطلاع السابق **جميع الوثائق المكتوبة والمسموعة والمنظورة**. ويتاح حق الاتصال بالوثائق الإدارية لكل شخص طبيعي أو اعتباري، **ولا يشترط إثبات مصلحة معينة لدى طالب الاطلاع**، حيث استقر القضاء الإداري الفرنسي، على أنه يحق للمواطن أن يطلب الاطلاع على الوثيقة **الإدارية لمجرد الفضول**، ويمكن أن يكون طلب الاطلاع على الوثيقة شفهيًا، ولكن يفضل أن يكون مكتوبًا، كما يحق لطالب الاطلاع أن يطلع على الوثيقة المطلوبة على **الطبيعة أو في مكان وجودها** Sur place ، **ويحق له أن يحصل على صورة أو نسخة منها، ويحق للإدارة أن تمتنع عن إطلاع صاحب العلاقة إذا سبق أن نُشرت الوثيقة في الجريدة الرسمية نشرًا كافيًا**.

أما إذا رفضت الإدارة إطلاع صاحب العلاقة على الوثيقة الإدارية المطلوبة، فإنه يحق لطالب الاطلاع اللجوء إلى لجنة الاتصال بالوثائق الإدارية في مدة شهرين على الأكثر.

أما في المملكة المتحدة فيلاحظ أن حقَّ الحصول على المعلومات من قبل الإدارة تأخر فلم يقر حتى عام ٢٠٠٠، حيث كان المبدأ السائد هناك هو سرية أنشطة وأعمال الإدارة، **فقد صدر قانون حرية المعلومات** Freedom Information Act ، **وقرر الحق العام للأفراد في الحصول على المعلومات التي بحوزة الإدارة، ويجب على الإدارة أن تستجيب لطلب الاطلاع خلال عشرين يومًا من تاريخ تقديم الطلب، ويختص عرض المعلومات بالرقابة على تطبيق القانون المذكور آنفًا**.

رابعًا- تطبيقات الشفافية على مستوى القرارات الإدارية:

إن القرار الإداري يُعد الامتياز الأكبر والأهم في يد الإدارة، فهي تستطيع عن طريقه

المساس بالمراكز القانونية للمواطنين بغض النظر عن إرادتهم، وذلك على خلاف القاعدة المقررة في القانون المدني التي تنص على عدم جواز انعقاد الروابط القانونية إلا **برضا جميع أطرافها، ونظرًا لخطورة هذا التصرف القانوني الذي تبرمه الإدارة، فقد تطور الفكر القانوني نصًّا واجتهادًا وفقهًا نحو إيجاد نمط من الشفافية الإدارية يشكل بدوره ضمانًا أكبر للأفراد عند اتخاذ الإدارة لهذه القرارات، وتتمثل عناصر منظومة الشفافية في إطار القرارات الإدارية فيما يلي:**

- **النـزوع نحو جعل القرار قائمًا على الاتفاق لا الفرض بالإرادة المنفردة للإدارة.**
- **ابتكار فكرة القرار الإداري الضمني والسلبي.**
- **تسبيب القرارات الإدارية.**

وسوف نستعرض هذه الأفكار فيما يلي:

١- **القرار الاتفاقي**: هو ذلك القرار الصادر بناء على رضا وموافقة المخاطب به، بمعنى أن هذا النوع من القرارات لا يصدر إلا بموافقة من يمسه هذا القرار، ففي هذه الحالة لا تقوم إدارة ما بإصدار القرار بإرادتها المنفردة، إنما يشترك معها من يمسه القرار بآثاره في اتخاذه، وذلك يعني أن القرار لا يكون موجودًا ومنتجًا لآثاره القانونية، إلا إذا شارك في تكوينه المخاطب به بعد التفاوض مع الإدارة، **ولعل الإدارة تكون في هذه الحالة في أعلى درجات الشفافية؛ لأن المخاطب بالقرار يكون على علم مفصل بكافة الخلفيات والحيثيات والظروف التي بني على أساسها القرار، بعدما شارك في إبرامه، وبذلك تتحول العلاقات بين السلطة الإدارية والأفراد من علاقات قائمة على فرض الإرادة المنفردة لهذه السلطة على الأفراد، إلى علاقاتٍ تقوم أساسًا على التفاوض والحوار والاتفاق.** ودون أدنى شك فإن هذا المظهر الاقتناعي للعلاقات بين الإدارة والأفراد يجعل الإدارة في مركز أكثر تساويًا معهم من جهة، ويجسد في الوقت نفسه تطورًا حاسمًا لمبدأ المشروعية من جهة أخرى.

٢- مبدأ القرار السلبي ومبدأ القرار الضمني:

إن أكثر صور الغموض الإداري، على المستوى العملي خصوصًا، يتجلى في امتناع الإدارة، وهذا الامتناع يظهر في صورتين: الصورة الأولى أن تمتنع الإدارة عن إصدار قرار يجب إصداره وفقًا للقانون، وعندئذ نكون أمام **ما يسمى بالقرار السلبي**، أما الصورة الثانية فتبدو في صمت الإدارة لمدةً من الزمن بعد أن يقدم لها المواطن طلبًا بشأن ما، حيث يتولد قرارٌ بعد مرور هذه المدة، ناجم أساسًا عن صمت الإدارة الملابس، وعندئذ نكون أمام ما يُسمى بالقرار الضمني، وقد أجاز الاجتهاد القضائي ومن قبله القانون، **معالجة هذه الأوضاع الغامضة إذن بعدم ترك الإدارة وشأنها، إنما بإلزامها بالإفصاح عن الموقف بقوة القانون، وقد زادت بعض القوانين المقارنة على ذلك، حيث رأت أن صمت الإدارة يقود إلى القبول من حيث الأصل إذا لم ينص القانون على الرفض صراحة** كما هو الحال مثلاً بالنسبة للقانون الفرنسي، أي إن حالة الإفصاح المترتبة في هذه الحالة بقوة القانون، **إنما هي حالة إفصاح إيجابية ومن صنع المشرع، وذلك على خلاف ما هو مستقر عليه في المنظومات القانونية الأخرى، حيث إن المشرع والقضاء يَعُدّان صمت الإدارة من حيث الأصل إفصاحًا بقوة القانون، ولكن الإفصاح في هذه الحالة ذو طابع سلبي**، حيث يعد صمت الإدارة رفضًا ما لم ينص القانون صراحة على أنه قبول. وذلك كما هو الحال في سورية ومصر.

٣- تسبيب القرارات الإدارية: سبب القرار الإداري هو الظروف القانونية أو الواقعية التي يقوم عليها القرار، بمعنى أن الإدارة إذا أرادت أن تصدر قرارًا فلا بد أن يكون هناك ظرفٌ حدث في الواقع ودفع الإدارة إلى إصدار القرار، أما إذا لم يوجد هذا الظرف فإن القرار يكون عندئذ باطلاً.

والمشكلة الكبرى كانت دائمًا هي إفصاح الإدارة عن أسباب قراراتها، وفي الحقيقة إن هذه العملية التي تفصح عن طريقها الإدارة عن أسباب قرارتها هي التي تُسمى تسبيب القرارات الإدارية، ويجري ذلك بصورة مادية عن طريق إيراد أسباب القرار في متنه وعند تحريره.

والتسبيب في الحقيقة ذو أهمية كبرى للأفراد وللقاضي الناظر في منازعات الإدارة ولرجل الإدارة على حد سواء:

بالنسبة للأفراد: يلاحظ أن التسبيب يشكل ضمانة مهمة لا يمكن التنازل عنها؛ لأنه يقدم **لذي الشأن توضيحًا كافيًا لكل ظروف وملابسات القرار**، وهو بذلك يتيح الفرصة لذي **الشأن بأن يحدد موقفه من القرار**، فإما أن يقتنع به، وإلا فَلَهُ أن يتظلم منه إداريًا، أو أن يطعن به قضائيًا. ومن هنا يغدو التسبيب أساسًا لديموقراطية إدارية بين الإدارة وجمهور المواطنين.

أما بالنسبة للقاضي الإداري: فإن التسبيب هو الوسيلة التي تسهل له **القيام بوظيفته في الرقابة على صحة الأسباب (الظروف) التي بني عليها القرار.**

وأما بالنسبة لرجل الإدارة: فإن التسبيب يُعد بمنزلة المرجع أو الأرشيف الذي يستطيع الرجوع إليه لمعرفة الأسلوب الذي تم استنادًا إليه مواجهة الظروف والملابسات المحيطة بالعمل الإداري. وإضافة إلى ذلك فإن التسبيب **يقلل من احتمالات القرارات الخاطئة،** حيث إن القرار الذي تفصح فيه الإدارة عن أسبابه يدفع رجل الإدارة إلى التروي **والتمحيص والتفكير العميق والمنطقي** في الظروف والملابسات المحيطة بالقرار عند إصداره.

وإن تصاعد دور السلطة التنفيذية في مواجهة الدور الذي تنهض به السلطتان التشريعية والقضائية، حتَّم أيضًا زيادة القرارات الإدارية، وتدخل هذه القرارات في صلب حياة المواطنين، مما أدى إلى وجود آثار قانونية عظيمة ناجمة عن هذه القرارات، وهو ما حتَّم أن يكون هناك تزايدٌ في الإفصاح عن أسباب هذه القرارات في مواجهة المخاطبين بها.

وكانت القاعدة التقليدية أن الإدارة غير **ملزمة بالإفصاح عن أسباب قراراتها، إلا إذا نص القانون على ذلك صراحة،** وفي حالات خاصة، ولكن إذا نص القانون على ذلك، فلابد أن تتقيد به الإدارة وإلاّ بَطَلَ قرارها لمخالفته لشكلٍ جوهري في القرار. وقد أدى هذا الوضع إلى جعل القاعدة هي عدم تسبيب القرارات الإدارية، ومن ثم فإن القاعدة

هي عدم الإفصاح عن الأسباب التي دفعت الإدارة إلى اتخاذ قرارها، مما أحاط قرارات الإدارة بالغموض في غالب الأحوال.

وقد ارتكزت الحجج القائلة بعدم التسبيب الوجوبي للقرارات الإدارية من حيث الأصل على ما يلي:

١- إن عدم التسبيب الوجوبي للقرارات الإدارية، إنما هو تعبيرٌ عن فكرة القرار الإداري ذاتها، باعتباره أحد امتيازات السلطة العامة التي تملكها الإدارة العامة في مواجهة الأفراد.

٢- إن عدم التسبيب الوجوبي يضمن فاعلية النشاط الإداري، حيث إن تقرير التسبيب مبدًا عامًا إنما يقود في النهاية إلى الإثقال على عاتق الإدارة **بأعباء شكلية** قد تعيقها في أداء وظائفها بفعالية.

٣- إن قرينة سلامة القرارات الإدارية تستبعد الالتزام العام بالتسبيب، حيث إنه من المسلمات أن القرارات الإدارية تتمتع بقرينة الصحة، أي إنها تظهر إلى حيز الوجود القانوني، وهي تتمتع بما يسمى بقرينة المشروعية، وهو ما يفترض أنها ترتكز على **أسباب صحيحة مما يستبعد بدوره التسبيب الوجوبي للقرارات الإدارية**.

٤- فاعلية الرقابة القضائية تستبعد الالتزام بالتسبيب: إذ إن القاضي الإداري يبسط رقابة واسعة على أسباب القرارات الإدارية، وهو ما يشكل في حد ذاته ضمانة تحول دون وجوب تسبيب القرارات الإدارية أصلاً عامًا.

وقد تطور الوضع السابق حيث استمر اعتبار المشرع المحدد للقرارات الخاضعة للتسبيب، ولكن هذا النهج اختلف مع سابقه من حيث التوسع في القرارات التي يجب تسبيبها؛ **إذ يحدد القانون في هذه الحالة أنواعًا من القرارات الواجبة التسبيب**، وعندئذ لا يقتصر التسبيب على قرارات خاصة بعينها كما هو الوضع في إطار الاتجاه التقليدي، وهذا الحل قد اعتمده كل من المشرعين الفرنسي والإسباني، إلا أن التطور الحاسم في هذا المجال

تمثل في صدور تشريعات حديثة في كثير من الدول، تجنح نحو الأخذ بمبدأ عام مؤداه التزام **الإدارة بتسبيب كافة قرارتها الإدارية، وذلك عدا حالاتٍ استثنائيةً يقررها القانون على سبيل الحصر تتعلق ببعض القرارات ذات الصفة الخاصة.** وقد ذهبت في هذا المنحى التشريعات في هولندة والسويد وسويسرا وتركيا وقبرص، بل إن مبدأ التسبيب الوجوبي للقرارات الإدارية أصبح حقًا أساسيًا Droit fondamentalt في بعض الدول وذلك بعد أن أُدرج في دساتيرها، **وذلك كما هو الحال مثلاً في دستور دولة جنوب إفريقيا، الذي أقر حقًا أساسيًا للمواطنين أطلق عليه تسمية «الحق بالعدالة الإدارية»** Right to Administrative Justice**، إذ نصت الفقرتان ١و٢ من هذا الدستور على ما يلي:**

((كل فرد:

١- له الحق في قرار قانوني Lawful **ومنطقي** Reasonable **وصحيح إجرائيًا** Procedurally fair.

٢- له الحق في الحصول على أسباب مكتوبة للقرار الإداري الذي يفرض عبئًا عليه أو الذي يكون ذا أثر سلبي على مركزه القانوني...)).

وعلى كل حال، فإن التسبيب لا يكون صحيحًا إلا إذا توفرت فيه الشروط الآتية:

١- أن يكون مباشرًا، أي أن يرد في صلب محرر القرار ذاته، وهذا يعني أنه إذا اشترط القانون تسبيب قرار من القرارات فلا يجوز أن يكون شفويًا؛ لأن فكرة التسبيب تتلاءم مع الكتابة وتستبعد التصرفات المسكوبة خارج النطاق الكتابي. وكذلك الحال لا يجوز أن يكون التسبيب بالإحالة، أي لا يجوز لـمُصدِّر القرار أن يحيل على وثيقة أخرى صادرة عن غير محرر القرار، على أساس أنها تتضمن أسباب قراره.

٢- أن يكون التسبيب معاصرًا للقرار La motivation simultanée : وهذا يعني وجوب **توفر التلازم الزمني بين إصدار القرار والإفصاح عن أسبابه؛** وذلك لأن تخلف التسبيب المعاصر للقرار يقدم فرصة للإدارة لاصطناع أسباب أخرى له تبتدعها تمهيدًا لقرار محتمل أو تبريرًا لقرار مفتعل.

٣- أن يحتوي التسبيب على جميع الاعتبارات القانونية والواقعية التي دعت إلى إصداره.

٤- يجب أن يكون التسبيب محددًا لا مبهمًا، بحيث يسمح لصاحب الشأن الإحاطة بأسباب القرار الذي صدر في مواجهته. ويكون القرار كذلك بمجرد ذكر الأسباب الجوهرية للقرار، ولو أُغفلت الأسباب الثانوية، مادامت الأسباب الجوهرية قادرةً بحد ذاتها على حمل القرار.

٥- يجب أن يكون التسبيب منطقيًا بحيث يُبرز تناسب أسباب القرار مع مضمونه، وبما يبين التناسب بين مقدمات القرار ونتائجه.

ومن الملاحظ أنَّ الإخلال بالتسبيب الوجوبي يترتب عليه جزاء قانوني هام يعصف بالقرار في رمته، وهذا الجزاء هو البطلان لعيبٍ في شكل القرار.

خامسًا- الشفافية في إطار العقود الحكومية:

تؤدي العقود الحكومية دورًا اقتصاديًا هامًا في كل الدول، ولاسيما من حيث قدرتها على حث الدورات الاقتصادية، ولكونها الأداة الأساسية لصرف النفقات العامة، لذلك فإنه **من المسلمات في إطار التشريعات الناظمة لإبرام العقود الحكومية، أن تُوزَّع المعلومات المتعلقة بالصفقة العامة على كل من يعنيهم أمرها توزيعًا عامًا، وبما يتيح لمقدمي العروض المحتملين وقتًا كافيًا لإعداد عروضهم وتقديمها، ولا يتحقق ذلك إلا باللجوء إلى الإعلان العام لتصل المعلومات المتعلقة بالصفقات الحكومية إلى جميع من يعنيهم أمرها.**

وبناء على ما تقدم، فإن قوانين المشتريات الحكومية التي تفتقر إلى العلانية عند إبرام هذا النمط من العقود تعد فاقدة للشفافية، وهو الأمر الذي يقود بدوره إلى الفساد الإداري.

لذلك فقد اعتمدت جميع التشريعات الناظمة للعقود الحكومية في العالم مبدأ علانية إبرام هذه العقود (ومن هذه التشريعات القانون ٥١/ ٢٠٠٤ الناظم لعقود المشتريات

والمبايعات الحكومية في الجمهورية العربية السورية في الفقرة أ من المادة ٩ منه)، بل إن بعض التشريعات قد أشار صراحة إلى مبدأ الشفافية إضافة إلى العلانية في إطار إبرام وتنفيذ هذه العقود ذاتها (كما فعل المشرع الفرنسي في قانون عقود الشراء العام الصادر في ١/ ٨/ ٢٠٠٦، وقانون المناقصات والمزايدات رقم ٨٩/ لسنة ١٩٩٨ في مصر).

سادسًا- الضمانات العامة للشفافية الإدارية:

وأخيرًا يمكن لنا أن نتبين ملامح الضمانات العامة لتطبيق الشفافية الإدارية ضمن نطاق الإدارة العامة:

١- **الاستجابة الفورية لطلبات الحصول على المعلومات، وضمن مواعيد قصيرة ومحددة قانونًا**، وهذا يتضمن التزامًا على عاتق الإدارة بأن تقابل طلبات الحصول على المعلومات دون توانٍ أو مماطلة، فلا يكفي إتاحة المعلومات للأفراد إذا كانت هذه الإتاحة ستأخذ وقتا طويلاً، يبذله طالب المعلومات في سبيل الوصول إليها، لذلك فإن أي قانون للشفافية يجب أن يراعي الاستجابة السريعة كلما كان ذلك ممكنًا ومتاحًا (على سبيل المثال هذه المدة شهر واحد في القانون الكندي، وشهران في قانون ١٧/ ٧/ ١٩٧٨ النافذ في فرنسا).

٢- **التظلم من القرار الصادر بشأن رفض طلب الاطلاع على المعلومات**، وهذه الضمانة هامة جدًا حيث تشترطها غالبية التشريعات المعاصرة التي نظمت حق الاطلاع على الوثائق الإدارية، وذلك شرطٌ أوليٌّ لقبول الطعن **بإلغاء قرار رفض الاطلاع على الوثائق الإدارية**.

٣- **ضرورة وجود رقابة قضائية فعالة ومستقلة وجزاءات رادعة لعدم الإذعان للأحكام القانونية المتعلقة بالشفافية**.

مصادر البحث

أولاً- باللغة العربية:

١- د.سامي الطوخي، الإدارة بالشفافية، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠٠٦.

٢- د. محمد عبد الواحد الجميلي، من السرية إلى الشفافية الإدارية، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠٠٠..

٣- د. أشرف عبد الفتاح أبو المجد، تسبيب القرارات الإدارية، بلا دار نشر، القاهرة، ٢٠٠٦.

٤- د. محمد عبد اللطيف، تسبيب القرارات الإدارية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦.

٥- د. مهند نوح، الإيجاب والقبول في العقد الإداري، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، ٢٠٠٥.

٦- د. مهند نوح، الفساد الإداري، دار الفكر العربي، بحث مقدم بمناسبة تكريم أ.د. محمد عزيز شكري، ٢٠٠٨.

ثانيًا- باللغة الفرنسية:

- Lemasurier.J, Du refus au droit d'être informé, R.D.P, 1980, p1240.
- Laveissiere.J, Le droit à l'information à l'épreuve du contentieux, A propos de l'accès aux documents administratifs, D, Chro, 1987, p275.
- Chabanol.D, L'accès aux informations administratives, Gaz.Pal, N°4, 1985, p429.
- Forge.J.M, Droit administratif, P.U.F, Paris, 2002.
- Lebreton.G, Libertés publiques et droit de l'homme, A.Colin, Paris, 2003.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

العلاقة بين اللغتين العربية والأكادية

أ.د. نائل حنون(*)

جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم الآثار

في دراستنا للعلاقة بين اللغتين العربية والأكادية لابد أن يكون موقع هاتين اللغتين الشقيقتين في خريطة الأُسرة اللغوية، التي ضمتهما، مدخلاً يساعد على فهم ما تمثله إحداهما للأخرى. كذلك يكون هذا المدخل مجالا لبناء الصلة بينهما من جهة، وصلة كل منهما باللغات الشقيقة الأخرى في الأسرة اللغوية التي تنتميان إليها. فمن غير الممكن تكوين فهمٍ صحيحٍ للعلاقة بين اللغتين العربية والأكادية بمعزلٍ عن الصورة اللغوية-التأريخية الكاملة التي تظهرهما مع اللغات الشقيقة الرئيسة وتفرعاتها، من لهجات تطورت على مر الزمن ووصلت إلينا مدوناتها. وقبل أن نأتي على تشكيل الخريطة اللغوية يجب علينا أن نشير إلى أن لأسرة اللغات، التي نحن بصددها، أهميةً خاصةً في تأريخ اللغات الإنسانية بوجهٍ عام. وفي الوقت نفسه لا نجد أسرة لغوية أخرى اكتنفها الغموض ونُسب إليها ما ليس فيها، وسميت بغير ما ينطبق عليها مثل هذه الأسرة من بين الأُسَر اللغوية الكبرى في تأريخ البشرية. ومرد هذا أنه أريد منها ما لا يحق لمن يريد، واجتهد فيها من لا يحق له أن يجيز إلا ما يجيزه منهج البحث العلمي الرصين.

(*) محاضرة ألقيت في قاعة المحاضرات في مجمع اللغة العربية بتاريخ ٢٦ جمادى الأولى / ١٤٣٠هـ - الموافق ٢٠ أيار / ٢٠٠٩م.

لقد اقتُبس من التوراة اسم لهذه الأسرة اللغوية، وهو«اللغات السامية". وهذا ما كان يجب ألاَّ يكون، فما التوراة بالمرجع التأريخي ولا «السامية» بمصطلحٍ علميٍّ تُصنف بموجبه اللغات. فقد أُدخل على التوراة ما أدخل، فتناولت حوادث التأريخ بطريقة تخدم أغراضًا ليس من بينها التوثيق الأمين. ولسنا هنا بصدد مناقشة ذلك، لكن من المناسب أن نشير إلى رسالة ماجستير أنجزت بإشرافي قبل عشر سنوات (حقيقة الوقائع التأريخية بين عرض التوراة ومعالجة النصوص العراقية القديمة، إعداد رافد كاظم الصالحي، جامعة القادسية، ١٩٩٩م). يناقش البحث الوقائع التأريخية المذكورة في التوراة، ويدقق في صحة الروايات التوراتية عنها في ضوء المعلومات المتوفرة من خلال النصوص المسمارية والمكتشفات الأثرية. وقدم البحث أدلة علمية واضحة على انتفاء صفة المرجعية التأريخية عن روايات التوراة. ولم نعد بحاجة إلى الاستدلال على ذلك مرة بعد مرة، وإنما أصبح أمامنا واقعٌ يقضي بتوفير الجهد العلمي في استقراء المراجع الصحيحة وتقصّي المعلومات من مصادرها المناسبة.

أما مصطلح «اللغات السامية» فلا يسع المرء إلا أن يستغرب كيف أبقى عليه الغرب بعد عقود من السنين ثريةٍ بما كشف عنه من معلومات هزت الأسس التي بني عليها هذا المصطلح. ذلك أن التطور الذي شهدته دراسة لغات المشرق العربي القديمة، وما قرئ من نصوصها، يجعل مصطلح «اللغات السامية» من هفوات الماضي. وهي هفوةٌ حتى بمعايير القرنين الماضيين، وتنقصها أبسط معطيات علم اللغات القديمة والآثار؛ إذ لا يمكن لأحد أن يقبل البتة فكرة كَون السامية من لغات العبرانيين والعيلاميين والآشوريين والآراميين، في حين أن الحامية تشمل لغات الكنعانيين والبابليين. وهذا ما تنص عليه الإصحاحات ٩-١١ من سفر التكوين التي استُلَّت من مضامينها تسمية «لغات سامية». فحتى أشد المتعصبين لهذا المصطلح يعرفون اليوم أن البابلية والآشورية لهجتان من لغة واحدة، هي الأكادية، وأن الآرامية والكنعانية والأكادية لغاتٌ شقيقةٌ من الأسرة اللغوية نفسها على حين العيلامية لا تمت إلى هذه الأسرة اللغوية بصلة.

إننا نقترح مصطلحًا جديدًا بدلا من مصطلح «اللغات السامية» وليس هذا المقترح هو الأول في هذا المجال، وإنما سبقته مقترحات نأتي على مناقشتها بعد أن نعرض الخريطة اللغوية- التأريخية للغتين العربية والأكادية وشقيقاتهما في الشكل (١).

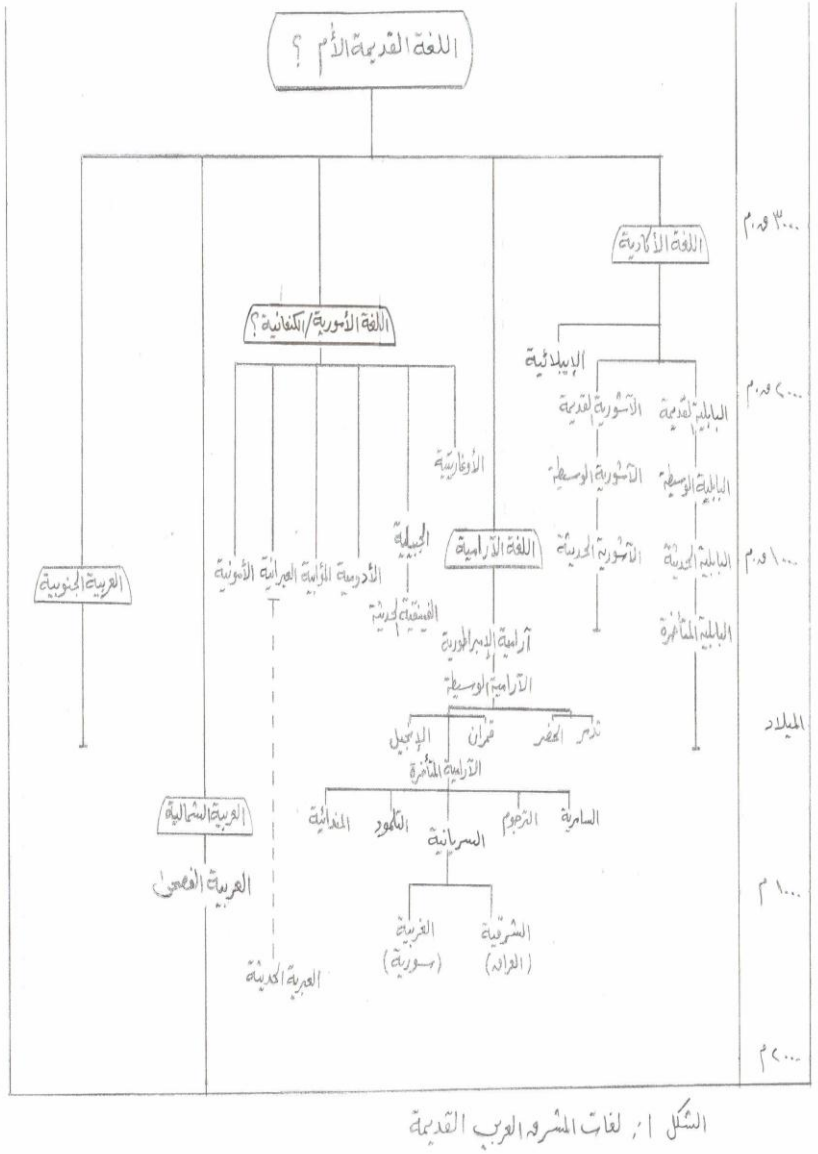

الشكل ١: لغات المشرق العرب القديمة

الشكل (١)

يعتمد المخطط في الشكل (١) على تأريخ تدوين كلٍّ من اللغات القديمة وظهور كل لهجة متفرعة من إحداها. اللغة القديمة الأم، التي تفرعت منها اللغات الرئيسة الشقيقة، لم تصلنا لأنها لم تُدون. اللغات الرئيسة المتفرعة منها خمس، وهي: الأكادية، الآرامية، الأمورية/ الكنعانية، العربية الشمالية والعربية الجنوبية. ومن بين هذه اللغات الرئيسة لم تصلنا الأمورية مدونة، وإنما عرفناها من لهجاتها المدونة، وأولها الأوغاريتية. وسبب عدم التدوين باللغة الأمورية الأم هو اعتماد الأموريين التدوينَ باللغة الأكادية، التي كانت لغة التدوين الرئيسة في أوغاريت. ولعل عدم تدوين اللغة الأمورية الأم هو الذي أدى إلى هذا الغموض في تحديد لهجاتها، إضافةً إلى تعدد التسميات التي أُطلقت عليها. وكان للتوراة دورٌ في هذا الإرباك بسبب الرغبة في إبراز العبرانيين وجعلهم فرعًا رئيسا من الساميين، وفي الوقت نفسه قللت التوراة من مكانة اللهجات الأمورية الأخرى، ونسبتها إلى «كنعان». وتطلق المعاجم الغربية على هذه اللغة تسمية مُبهَمة، وهي «السامية الغربية».

لقد وضحنا عدم صحة تسمية «اللغات السامية»من الناحيتين اللغوية والتأريخية. وليس هذا بالشيء الجديد أو بالموضوع الذي يحتاج إلى المزيد من المناقشة أو التأكيد. لكن ما لم يزل بحاجة إلى الحسم هو التسمية البديلة. وقد قُدِمت مقترحاتٌ بتسميات بديلة لهذه الأسرة اللغوية. ومن هذه التسميات «اللغات الجَزَرِيَّة»، أو بالأحرى «الجزيرية»، التي اقتُرحت في العراق قبل عقودٍ مضت. والمشكلة في هذه التسمية أنها تقرن هذه اللغات بالجزيرة العربية، وما كانت جزيرة العرب نفسها بالمكان الذي شهد أول تدوين لأيٍّ من هذه اللغات. وإنما امتد تدوين بعضها إلى الطرف الشمالي الغربي للجزيرة من بلاد الشام في وقت متأخر نسبيا من تأريخ الأسرة اللغوية. واعتمد مجمع اللغة العربية في طرابلس بليبيا تسمية «اللغات العروبية» في إشارة إلى صلتها باللغة العربية وبلاد العرب. ونحن نطلق عليها هنا اسم «لغات المشرق العربي»؛ لأنها جميعا ظهرت ودونت وتطورت في منطقة المشرق العربي. ومن هذه المنطقة انتشرت، كلها أو بعضها، إلى المغرب العربي وإلى المناطق المحيطة بالوطن العربي.

ومن الخريطة اللغوية في الشكل (١) يمكن إيراد الملاحظات الآتية:

١ – لا وجود للغة السومرية في هذه الخريطة اللغوية؛ لأنها ليست ضمن هذه الأسرة اللغوية، أو أي أسرة لغوية أخرى، إضافة إلى كونها لا تحمل خصائص اللغات المحكية أو اللغات المقترنة بوجود قومي أو نطاق جغرافي. ولا يمكن نسبة أيٍّ من هذه اللغات إليها.

٢ – يشير موضع اللغات الرئيسة إلى تاريخ بدء تدوينها، ويمثِّل المدى، ما بين بدء التدوين وبدء التفرع من اللغة الأم القديمة، المرحلةَ المحكية من تأريخ أيٍّ من هذه اللغات.

٣ – إن قدم تدوين أي من اللغات الرئيسة، أو اللهجات المتفرعة منها، لا يعني بالضرورة أنها أَقْربُها إلى اللغة الأم.

٤ – تبرز من الخريطة اللغوية أهمية دراسة العلاقة بين اللغتين الأكادية والعربية، موضوع هذه المحاضرة. فاللغة الأكادية تشغل ذلك المدى الذي سبق تدوين اللغة العربية، وذلك بتدوينها المبكر وباطراد تطورها واتساق تفرع لهجاتها وبثرائها اللغوي والكتابي. واللغة العربية بتواصلها، منذ بدء تدوينها، إلى زمننا الحديث وإلى ما بعده. فجذورها ضاربة في عمق التأريخ من خلال اللغة الأكادية واللغات الشقيقة الأخرى، وخلودها مضمون بالقرآن الكريم.

اللغة الأكادية: تأريخها وخصائصها

يتطلب بناء الفهم الصحيح للعلاقة بين اللغتين الأكادية والعربية توضيح تأريخ اللغة الأكادية وخصائصها. لقد ابتدأ تدوين اللغة الأكادية قُرابة سنة ٢٦٠٠ ق.م بعد أن تُمكِّن من الاستفادة من المقاطع التي استُعملت في تدوين الكلمات السومرية بالطريقة الرمزية، أي بعلامة واحدة للكلمة. ومع بداية الألف الثاني قبل الميلاد تفرعت الأكادية إلى

لهجتين رئيسيتين هما البابلية والآشورية. وكانت كلٌّ من هاتين اللهجتين تمر بمراحل تتطور فيها عبر العصور التأريخية، حتى توقف استعمال الأكادية في القرن الأول الميلادي بحسب تأريخ آخِرِ نصٍّ مكتشف حتى الآن.

من الملامح التي اختصت بها اللغة الأكادية التمييم الذي يقابل التنوين باللغة العربية. لكن الميم اختفت من حركة التمييم في اللهجات المتأخرة، وبقيت حركة الإعراب المطابقة للإعراب في العربية. وكانت الكلمات الأكادية تدون بالطريقة المقطعية، أما اللغة نفسها فقد اعتمدت سبعة عشر حرفًا صحيحًا (صامتًا)، وهي: السِّنِّية (ت، د، ط، ن)، الشفاهية (ب، ب، م)، الحنكية (جـ، ق، ك)، الصفيرية (ز، س، ش)، الانسيابية (ر، ل) والحَنْجَرية (خ، الهمزة). وثمة تشابه كبير في الضمائر الشخصية، المنفصلة والمتصلة، بين اللغتين الأكادية والعربية.

الأسماء في الأكادية تُحرك إعرابيًا، وتُؤنث وتثنى وتجمع. الصفات تتبع الموصوف من ناحية العدد والحركة الإعرابية والجنس والموقع في الجملة. حالات الإضافة تكون باستعمالٍ أقصر للصيغ، أي مثل اللغة العربية، وذلك بحذف حركة الإعراب من المضاف وجعل المضاف إليه مجرورًا. ولحروف الجر حكمُ حُروف الجر في العربية.

الفعل يُصرَّف من الجذر الثلاثي لأغلب الأفعال، وهناك أفعالٌ قليلةٌ رباعية الجذر، ولكن الأفعال المعتلة (معتل الأول، أجوف، ناقص، لفيف مفروق ولفيف مقرون) موجودة بكثرة في الأكادية. وفي هذه اللغة أربع صيغ أساسية للفعل مشابهة لصيغ الفعل في العربية، وهي: البسيطة (G)، المضعَّفة (D)، السببية (S) والمطاوعة (N). وهناك صيغة أو صيغتان تُشتق من كل واحدة من هذه الصيغ الأربع. وبهذا يكون للفعل الأكادي الواحد ٨٩ تصريفًا تشمل: المصدر، الماضي، الماضي التام، المضارع، الأمر، الرجاء والحث، اسم الفاعل، صفة الحال والصفة المشبهة، وذلك في كل واحدة من الصيغ الاثنتي عشرة.

لهجات اللغة الأكادية

أولاً: اللهجات البابلية:

١- البابلية القديمة (٢٠٠٠-١٥٠٠ ق.م)، تعتبر لهجة قياسية من ناحية اتباعها للقواعد الصحيحة. من نصوصها المشهورة «شريعة حمورابي» وشريعة أشنونا، فضلا على آلاف الرسائل، الملكية والشخصية، وآلاف الوثائق الاقتصادية والمؤلفات الأدبية ونصوص أخرى متنوعة. وظهرت، إلى جانب اللهجات الأساسية، لهجات محلية متعددة، مثل اللهجة الجنوبية التي استُعملت في نصوص لارسا، اللهجة الغربية في ماري، لهجة منطقة ديالى ولهجة بلاد عيلام في الشرق.

٢- البابلية الوسيطة (١٥٠٠- ١٠٠٠ ق.م)، تمثل هذه اللهجة تطورًا واضحًا في اللغة الأكادية، وانتشرت انتشارًا واسعًا في منطقة المشرق العربي وما يجاورها. وبهذه اللهجة دُونت مجموعاتٌ كبيرة من نصوص ألالاخ وأوغاريت وحاتوشاش.

٣- البابلية الحديثة (١٠٠٠-٦٢٦ ق.م) بدأ ظهور الآرامية واضحا في هذه اللهجة.

٤- البابلية المتأخرة (٦٢٦ ق.م- القرن الأول الميلادي)، ازداد فيها تأثير الآرامية. وظهر هذا التأثير واضحًا في القواعد اللغوية والتعابير.

٥- البابلية القياسية (١٤٠٠-٦٠٠ ق.م) استُعملت في المقام الأول في النصوص الأدبية والدينية، وتتميز بالتزامها بالقواعد اللغوية. ولم يكن استعمال هذه اللهجة مقتصرًا على النصوص البابلية، وإنما شمل أيضا النصوص الآشورية، وخصوصا النصوص الملكية.

٦- اللهجة الترتيلية- الملحمية، ورد الدليل على وجود هذه اللهجة في النصوص البابلية الوسيطة، وهذا ما يدل على أنها سبقت البابلية الوسيطة.

ثانيًا: اللهجات الآشورية:

١ – الآشورية القديمة، ظهرت هذه اللهجة في الربع الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، وكانت معاصرة للهجة البابلية القديمة في الجنوب. وتعود إلى هذه اللهجة بعض النصوص الملكية والرسائل ووثائق أخرى جاءت من كبدوكيا.

٢ – الآشورية الوسيطة، استُعملت في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد. وقد دُوِّنت بها القوانين الآشورية الوسيطة، فضلا على نصوصٍ قضائيةٍ عديدة وبعض النصوص الملكية والرسائل.

٣ – الآشورية الحديثة، وهي اللهجة الآشورية الأخيرة، استُعملت خلال القرون الأربعة الأولى من الألف الأول قبل الميلاد. وقد ازدادت فيها التأثيرات اللغوية الآرامية منذ مطلع القرن السابع قبل الميلاد.

إضافةً إلى هذه اللهجات وُجدت لهجاتٌ محليةٌ تظهر فيها تأثيرات لغات أخرى. ومن هذه اللهجات ما وجد في نصوص العمارنة ونوزي وبوغازكوي.

الأسماء في اللغة الأكادية

الأسماء في اللغة الأكادية مذكرةٌ أساسًا وتُشتق منها الأسماء المؤنثة بإضافة تاء التأنيث.وتثنى الأسماء بإضافة ألف ونون في حالة الرفع (باب – بابان)، وياء ونون في حالتي النصب والجر (باب ـ بابين).

جمع الأسماء المذكرة يكون بأكثر من طريقة، أشيعُها إضافةُ واو في حالة الرفع (باب – بابو) وياء في حالتي النصب والجر (باب – بابي). وهناك طريقة أخرى للجمع بإضافة اللاحقة – انُ (anu-)في حالة الرفع (باب – بابانُ)، واللاحقة – انِ (ani-) في حالتي النصب والجر (باب–بابانِ). وجمع الأسماء المؤنثة يكون بإضافة اللاحقة – ات (at-)مع حركة الإعراب المناسبة في الرفع والنصب والجر، وهكذا فإن الاسم المؤنث (أختُ) يجمع: أختاتُ/ أختاتَ/ أختاتِ.

الضمائر المنفصلة

توجد في الأكادية ضمائر شخصية منفصلة للأشخاص المفرد والجمع في حالات الرفع والنصب والجر (المفعول به والإضافة) والمفعول لأجله. وأكثر هذه الضمائر استعمالاً هي: أناكُ (anaku) للمتكلم المفرد في حالة الرفع (فاعل)، أتِّ (atti)، شو (su)، شي (si) وشُآةِ (su'ati)، وهذه الضمائر بحسب ترتيبها: للمخاطب المذكر الفاعل، المخاطبة المؤنثة الفاعل، الغائب المفرد المذكر، الغائبة المفردة المؤنثة والغائب المفرد المفعول به.

الضمائر المتصلة

الضمائر الشخصية المتصلة في اللغة الأكادية، تُستعمل مع الأسماء والأفعال لجميع الأشخاص وفي جميع الحالات، وأكثرها استعمالاً للمفرد: -ي (-i) للمتكلم في حالة الإضافة، -ني (-ni)للمتكلم في حالة المفعولية، -كَ (-ka) للمخاطب المذكر في حالتي الإضافة والمفعول به، -كِ (-ki) للمخاطبة المؤنثة في حالة الإضافة والمفعولية، -شُ (-su) للغائب المذكر في الحالتين أيضا، -شَ (-sa) للغائبة المؤنثة في حالة الإضافة و-شِ (-si)للغائبة المؤنثة في حالة المفعولية. أما أكثر الضمائر الشخصية المتصلة استعمالاً للجمع فهي: -ني (-ni) للمتكلمين في حالة الإضافة، -شُنُ (-sunu) للغائبين الذكور في حالة الإضافة، -شُنوتِ (-sunuti) لهم في حالة المفعولية و-شِنَ (-sina) للغائبات الإناث في حالة الإضافة.

الصفة والموصوف

الصفة في اللغة الأكادية تتبع الموصوف مكانًا وحركةً وجنسًا وعددًا، كما في المثال الآتي: ملكٌ قويٌ = شَرُّ دَنُّ (sarrum dannum)، ملكةٌ قويةٌ = شَرَّةُ دَنَّةُ (sarratum dannatum)، ملوكٌ أقوياء = شَرّو دَنّوتُ (sarrum dannutum) وملكاتٌ قويات = شَرّاتُ دَنّاتُ (sarratum dannatum).

الأفعـال

إن الأساس في الفعل الأكادي هو الجذر الثلاثي. وقد اعتاد المختصون تطبيق أمثلة الصرف والاشتقاق على الفعل بَرَسَ (ب ر س) مثلما يستعمل «فَعَلَ» في العربية. والفعل بَرَسَ في الأكادية يعني «قسم أو قرر». وهناك أفعال قليلة رباعية الجذور، وأفعال معتلة غير صحيحة وأفعال مزدوجة الاعتلال (لفيف مفروق ولفيف مقرون).

وصيغ الفعل الأساسية أربع، وهي

١- الصيغة البسيطة (G) للإخبار عن وقوع الفعل، وتقابلها صيغة فَعَلَ في العربية. وتُشتقُ منها صيغتان هما البسيطة الثانية (Gt) والبسيطة الثالثة (Gtn).

٢- الصيغة المضعَّفة (D) للدلالة على تكرار حدوث الفعل أو ضخامة المفعول به، وتقابلها في العربية الصيغة فَعَّلَ. وتُشتق منها صيغتان هما المضعفة الثانية (Dt) والمضعفة الثالثة (Dtn).

٣- الصيغة السببية (S) للدلالة على التسبب في حدوث الفعل، وتقابلها الصيغة التي تستعمل السين السببية في العربية. وتُشتق منها صيغتان هما السببية الثانية (St)، مثل استفعل العربية، والسببية الثالثة (Stn).

٤- صيغة المطاوعة (N)للدلالة على حدوث الفعل طوعًا مثل صيغة انفعل العربية. وتُشتق منها صيغة المطاوعة (Ntn).

٥- صيغة المبالغة (SD) وتجمع خصائص الصيغتين السببية والمضعَّفة. وتجدر الإشارة إلى أن الصيغتين الثانية والثالثة المتفرعة من الصيغ الأساسية توسع دلالات الفعل. فالصيغ الثانية، بإدخال حشوة التاء، تكوِّن معنى المبني للمجهول من كل صيغة أساسية. أما الصيغ الثالثة، بإدخال حشوة التاء والنون، فتكوِّن معنى التكرار والإعادة.

وفي الشكل (٢) جدول تصريف الفعل بَرَسَ في الصيغ الأربع الأساسية:

التصريف	الصيغة البسيطة G	الصيغة المضعفة D	الصيغة السببية Š	صيغة المطاوعة N
المصدر	پَـراسُ parāsu	پُـرُّسُ purrusu	شُـپُـرُسُ šuprusu	نُـپُـرُسُ naprusu
المضارع	اِپَـرَّسُ iparras	أُپَـرَّسُ uparras	أُشَـپَـرَس ušapras	اِپَّـرَّسُ ipparras
الماضي	اِپـرُسُ iprus	أُپَـرِّسُ uparris	أُشَـپَـرِس ušapris	اِپَّـرِسُ ipparis
الماضي التام	اِپتَرَسُ iptaras	أُپتَرِّسُ uptarris	أُشتَـپَـرِس uštapris	إتَـپَـرَس ittapras
الأمر	پـرُسُ purus	پـرِّسُ purris	شُـپُـرِسْ šupris	نَـپَـرِس napris
الرجاء والحث	لِـپـرُس liprus	لِيـپَـرِّس līparris	لِيشَـپَـرِس līšapris	لِـپَّـرِس lipparis
اسم الفاعل	پارِسٌ pārisum	مُـپَـرِّسٌ muparrisum	مشَـپَـرِسٌ mušaprisum	مُـپَّـرسُ mupparsu
صفة الحال	پَـرسُ parsu	پُـرُّسُ purrusu	شُـپُـرُسُ šuprusu	نَـپَـرُسٌ naprusu
الصفة المشبهة	پَـرِس paris	پُـرُّس purrus	شُـپُـرُس šuprus	نَـپَـرُس naprus

الشكل (٢): تصريف الفعل الأكادي بالصيغ الأساسية

تكون اشتقاقات الفعل بحسب شخص الفاعل بإدخال سوابق ولواحق عليه. وهذه السوابق واللواحق قريبة، إلى حد ما، من شبيهاتها في اللغة العربية.

وفيما يأتي أمثلة على ذلك باستعمال الفعل الأكادي الماضي إبرُس (iprus):

شخص الفاعل	المفرد	الجمع
المتكلم	أبرُس (aprus) قررتُ	نِبرُس (niprus) قررنا
المخاطب المذكر	تَبرُس (taprus) قررتَ	تَبرُسو (taprusu) قررتم
المخاطبة المؤنثة	تَبرُسي (taprusi) قررتِ	تَبرُسا (taprusa) قررتن
الغائب المذكر	إبرُس (iprus) قرر	إبرُسو (iprusu) قرروا
الغائبة المؤنثة	تَبرُس (taprus) قررت	إبرُسا (iprusa) قررن

ولبيان تصريف الفعل في اللغة الأكادية، نورد هذا التصريف بجميع الصيغ باستعمال ف ع ل بطريقة الفعل العربي الشكل (٣)

ويوضح لنا الجدول الذي يتضمنه الشكل (٣) إمكان التوسع نظريًا في تصريف الفعل العربي ليصل إلى تسعةٍ وثمانين تصريفًا كما في الفعل الأكادي.

الصيغ الفعلية	المصدر	المضارع	الماضي التام	الماضي	الأمر	إسم الفاعل	الصفة المشبهة	صفة الكمال
البسيطة G	فَعالٌ *	إِفَعَّل	إفتَعَل *	إفعُل	فُعُل	فاعِلٌ *	فَعِل *	فَعلٌ *
البسيطة الثانية Gt	فِتعُلٌ	إفتَعَّل *	إفتَعَل *	إفتَعَل	فِتعَل	مُفتَعِلٌ *	فِتعُل	فِتعُلٌ
البسيطة الثالثة Gtn	غِتَّعُلٌ	إفتَنَعَّل	إفتَعَّل	إفتَتَعَّل	غِتَّعَل	مُفتَعِّلٌ *	غِتَّعُل	غِتَّعُلٌ
المضعفة D	فُعَّلٌ	أُفَعَّل *	أُفَعِّل *	أُفَتَّعَل *	أُفَعِّل	مُفَعِّلٌ *	فُعَّل	فُعَّلٌ
المضعفة الثانية Dt	فُتَّعُلٌ	أُفتَعَّل *	أُفتَعِّل	أُفتَتَعَّل	فُتَّعَل	مُفتَعِّلٌ		
المضعفة الثالثة Dtn	فُتَّعُلٌ	أُفتَنَعَّل	أُفتَعِّل	أُفتَتَعَّل	فُتَّعَل	مُفتَعِّلٌ	فُتَّعُل	فُتَّعُلٌ
السينية Š	شُفعُلٌ	أُشَفعَل	أُشَفعِل *	أُشتَفعِل	شُفعِل	مُشَفعِلٌ *	شُفعُل	شُفعُلٌ
السينية الثانية Št	شُتَفعُلٌ	أُشتَفعَل *	أُشتَفعِل *	أُشتَتَفعِل	شُتَفعِل	مُشتَفعِلٌ *		
السينية الثالثة Štn	شُتَفعُلٌ	أُشتنفعَل	أُشتَفعِل	أُشتَتَفعِل	شُتَفعِل	مُشتَفعِلٌ	شُتَفعُل	شُتَفعُلٌ
المطاوعة N	نَفعُلٌ	إنَّفعَل	إنَّفعِل *	إنَّفعَل	نَفعِل	مُنَّفعِلٌ	نَفعُل	نَفعُلٌ
المطاوعة الثالثة Ntn	إتَفعُلٌ	إتَّنَفعَل	إتَّفعَل	إتَّتَفعَل	إتَفعَل	مُتَّفعِلٌ	إتَفعُل	إتَفعُلٌ
صيغة المبالغة ŠD	شُفَعَّلٌ	أُشفَعَّل	أُشفَعِّل		شُفَعِّل	مُشفَعِّلٌ		

الشكل (٣) تصريف الفعل الأكادي على وزن فعل

*: وجود التصريف في اللغة العربية

وهناك قاعدة مشتركة بين العربية والأكادية، ومن المؤسف أنها تُهمل عند معظم المختصين العرب، على أهميتها. وهذه القاعدة تخص أبواب الفعل، وإن اختلفت تفاصيلها فيما يخص اللغتين. فأوزان الأفعال الثلاثية العربية محصورة في ستة أبواب: الأول بفتح العين في الماضي وضمها في المضارع (نَصَرَ، ينصُر)، الثاني بفتح العين في الماضي وكسرها في المضارع (ضرَب، يضرِب)، الثالث بفتح العين في الماضي والمضارع (قطَع، يقطَع)، الرابع بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع (طرِب، يطرَب)، الخامس بضم العين في الماضي والمضارع (سهُل، يسهُل) والسادس بكسر العين في الماضي والمضارع (وثِق، يثِق). أما في الأكادية فللفعل الثلاثي أربعة أبواب: الأول بضم العين في الماضي وفتحها في المضارع (إبرُس، إبَرَّس)، الثاني بضم العين في الماضي والمضارع (إمقُت، إمقُّت)، الثالث بفتح العين في الماضي والمضارع (إلمَد، إلمَّد) والرابع بكسر العين في الماضي والمضارع (إبقِد، إبقِّد).

ومن أوجه العلاقة بين العربية والأكادية ما يتعلق ببناء الجملة. وأترك هذا الموضوع هنا لأنه موضوع لرسالة ماجستير أعدت تحت إشراف الباحث بالمشاركة مع الدكتور علي جاسم سلمان (سلوان شاطر حلحول، بناء الجملة بين العربية والأكدية، جامعة القادسية، ٢٠٠٠م).

ننتقل إلى جانب مهم من جوانب العلاقة بين العربية والأكادية، وهو المفردات. إن المشترك بين اللغتين في هذا الجانب كثيرٌ جدًا، ولا يمكن الإلمام به إلا من خلال معجم كامل. ولكننا انتقينا لغرض هذه المحاضرة الأفعال المشتركة في كلتا اللغتين حين تتطابق لفظا ومعنى. مع أننا استثنينا الأفعال الأكادية المشتركة مع الأفعال العربية في اللهجات العامية، وما حدث فيها من تغييرٍ لفظيّ فإن عدد ما وجدناه مشتركًا يقرب من ثلاثمئة وخمسين فعلاً الشكل (٤).

المسلسل	الجذر الأكادي	المرادف العربي	المصدر الأكادي	المسلسل	الجذر الأكادي	المرادف العربي	المصدر الأكادي
١	ʾ ب ر	عبر	ebēru	٣٠	ʾ ل ل	هلل	elēlu
٢	ʾ ب ط	هبط	ebēṭu	٣١	ʾ م د	مدّ	emēdu
٣	ʾ ب ل	سُبك (هَبَلَ)	ebēlu	٣٢	ʾ م ر	احمرّ	emēru
٤	ʾ ج ج	عضب (أجج)	egāgu	٣٣	ʾ م ص	همض	emēṣu
٥	ʾ ج ر	أجر	agāru	٣٤	ʾ م ق	عمق (عقل)	emēqu
٦	ʾ ج م	هجم	agāmu	٣٥	ʾ م م	حمّ (سخن)	emēmu
٨	ʾ غ ر	أغر	aḫāru	٣٦	ʾ ن ب	عنب (أنبر)	enēbu
٩	ʾ غ ز	أخذ	aḫāzu	٣٧	ʾ ~ غ	ناغ (عقب)*	anāḫu
١٠	ʾ غ ʾ	آخى	aḫû	٣٨	~ ~ ʾ	حنّ	enēnu
١١	ʾ د ر	حذر	adāru	٣٩	ب ʾ ت	بات (الليل)	bâṭu
١٢	ʾ د ش	حدث	edēšu	٤٠	ب ʾ ل	بعل (ساد)	ba'ālu
١٣	ʾ د د	حدّ	edēdu	٤١	ب ʾ ل	ابتهل	bâlu
١٤	ʾ د م	حدم، احتدم	adāmu	٤٢	ب ت ق	بثق	batāqu
١٥	ʾ ر ي	عرى	erû	٤٣	ب ر ق	برق	barāqu
١٦	ʾ ر ش	حرث	erēšu	٤٤	ب ر م	برم	barāmu
١٧	ʾ ز ب	ذبّ، ذرّ	ezēbu	٤٥	ب س ر	بشر	basāru (D)
١٨	ʾ ز ر	أزر	azāru	٤٦	ب س م	بسم (ابتسم)	basāmu (D)
١٩	ʾ ز ز	أزّ	azāzu	٤٧	ب ص ص	بصّ (ساقطين)	baṣāṣu
٢٠	ʾ س ر	سور	esēru	٤٨	ب ط ل	بطل	baṭālu
٢١	ʾ ش ي	عشي	ešû	٤٩	ب ق ل	بقل (برعم)	baqālu
٢٢	ʾ ص ب	ضعف *	eṣ̌ēpu	٥٠	ب ك ʾ	بكن	bakû
٢٣	ʾ ص د	حصد	eṣ̌ēdu	٥١	ب ل ط	أحبا (بلط)*	balāṭu
٢٤	ʾ ص ر	صور *	eṣ̌ēru	٥٢	ب ن ʾ	بنن	banû
٢٥	ʾ ك ك	حكّ	ekēku	٥٣	ب ت ʾ	فتح	petû
٢٦	ʾ ك ل	أكل	akālu	٥٤	ب ت ل	فتل	patālu
٢٧	ʾ ل ʾ	علا	elû	٥٥	ب خ س	بخس	paḫāsu
٢٩	ʾ ل ل	هلل	alālu	٥٦	ب ر ʾ	فرع	parā'u

– ١ –

الشكل (٤): الأفعال المشتركة في اللغتين العربية والأكادية

الشكل (٤-١)

المسلسل	الجذر الأكادي	المرادف العربي	المصدر الأكادي	المسلسل	الجذر الأكادي	المرادف العربي	المصدر الأكادي
٥٧	پ ر د	فرد	parādu	٨٥	خ د پ	خاف	ḫâpu
٥٨	پ ر س	فرس	parāsu	٨٦	خ و ر	خار (اهتار)	ḫâru
٥٩	پ ر ص	فرض (اقترض)	parāṣu	٨٧	خ و ل	هال (ذاب)	ḫâlu
٦٠	پ ر ص	فرض (قضى/فرضاً)	parāṣu	٨٨	خ ب ء	خبأ	ḫabû
٦١	پ ر ط	فرط	parāṭu	٨٩	خ ب ش	خبش (حبش)	ḫabāšu
٦٢	پ ر ق	فرق	parāqu	٩٠	خ ب ص	خبص (صنع)	ḫabāṣu
٦٣	پ ر م	فرم	parāmu	٩١	خ ب ل	خبل (أخطأ)	ḫabālu
٦٤	پ س خ	فسخ	pasāḫu	٩٢	خ پ ر	خفر	ḫepēru
٦٥	پ ص د	فصد (قطع الوريد)	paṣādu	٩٣	خ ت پ	خطف (ذ ع)	ḫatāpu
٦٦	پ ص ص	فصّ (تفرقة)	paṣāṣu	٩٤	خ د د	خدّ (سوّى جزءاً)	ḫadādu
٦٧	پ ق د	فقد (تفقد)	paqādu	٩٥	خ ر ب	خرب	ḫarābu
٦٨	پ ل ق	فلق (ذ ع)	palāqu	٩٦	خ ر پ	خرف (نبل)	ḫarāpu
٦٩	ت ء ر	دار	târu	٩٧	خ ر پ	خرف (الفاكهة)	ḫarāpu
٧٠	ت ر ص	تراص (رصّ)	taraṣu	٩٨	خ ر ش	خرس	ḫarāšu
٧١	ت ق ن	تقنّ	taqānu	٩٩	خ ر ك	خرك	ḫarāku
٧٢	ت ك ل	اتكل	takālu	١٠٠	خ ر م	خزم	ḫarāmu
٧٣	ت م ر	ثمر	temēru	١٠١	خ ز م	خزم	ḫazāmu
٧٤	ج د د	قدّ	gadādu	١٠٢	خ س س	خسّ	ḫasāsu
٧٥	ج ر ء	جرأ	gerû	١٠٣	خ ش ء	خشع	ḫašû
٧٦	ج ر د	جرد	garādu	١٠٤	خ ش ب	خسب (عد)	ḫašābu
٧٧	ج ر م	جرم (تجاوز)	garāmu	١٠٥	خ ص ب	خصب (أخصب)	ḫaṣābu
٧٨	ج ز ز	جزّ	gazāzu	١٠٦	خ ص ص	خصّ (بنى خصاً)	ḫaṣāṣu
٧٩	ج ش ء	جسأ	gešû	١٠٧	خ ص ر	خصر	ḫaṣānu
٨٠	ج ش ر	جسر (تجرأ)	gašāru	١٠٨	خ ط ء	خطأ (أخطأ)	ḫaṭû
٨١	ج ل ء	جلى (ج)	galû	١٠٩	خ ك ء	حكى (فكر)	ḫakû
٨٢	ج م ر	تمّ (تمّ، انتهى)	gamāru	١١٠	خ ك م	حكم (فهم)	ḫakāmu
٨٣	ج م ل	جمل (على مقداراً)	gamālu	١١١	خ ل ء	خلع	ḫalû
٨٤	خ ب ء	أحب *	ḫâbu	١١٢	خ ل ب	حلب	ḫalābu

الشكل (٤-٢)

المصدر الأكادي	المرادف العربي	الجذر الأكادي	المشتق	المصدر الأكادي	المرادف العربي	الجذر الأكادي	المشتق
ragāmu	رغم (ادّعى)	ر غ م	١٤١	ḫalāṣu	خلص	خ ل ص	١١٣
raḥāṣu	رحض (غسل)	ر ح ض	١٤٢	ḫalāqu	خلق (بلى)	خ ل ق	١١٤
raḏāpu	ردف (لاصق)	ر د ب	١٤٣	ḫalālu	خلل (جرح)	خ ل ل	١١٥
rasû (D)	رسّخ	ر س ء	١٤٤	ḫamādu	خمد	خ م د	١١٦
raṣāpu	رصف	ر ص ب	١٤٥	ḫamāšu	خمس (عدد)	خ م ش	١١٧
raṣādu	رصد	ر ص د	١٤٦	ḫamāšu	خمّش (خدش)	خ م ش	١١٨
raṣānu	رصن (حصّن)	ر ص ن	١٤٧	ḫanû	خنع	خ ن ء	١١٩
raṭābu	رطب	ر ط ب	١٤٨	ḫanāqu	خنق	خ ن ق	١٢٠
rakābu	ركب	ر ك ب	١٤٩	dâru	دار (لف)	د ء ر	١٢١
ramû	رمى	ر م ء	١٥٠	dâsu	داس	د ء س	١٢٢
zâbu	ذاب	ز ء ب	١٥١	dâṣu	دحض (ظلم)	د ء ص	١٢٣
zâqu	زهق (صبّ)	ز ء ق	١٥٢	dâmu	دمّ (ادّخر)	د ء م	١٢٤
zânu	زانه	ز ء ن	١٥٣	dânu	دان	د ء ن	١٢٥
zabālu	زبل (نقل)	ز ب ل	١٥٤	dabāqu (D)	دبق	د ب ق	١٢٦
zapāru	زفر (عفر)	ز ب ر	١٥٥	darāsu	درس (حبّ)	د ر س	١٢٧
zarû	ذرى	ز ر ء	١٥٦	darāku	درك (دبّ)	د ر ك	١٢٨
zarāqu	زرق (رشّ)	ز ر ق	١٥٧	daššāpu	دبش (حلب)	د ش ب	١٢٩
zaqāru	صقر (ارتفع)	ز ق ر	١٥٨	daqāqu	دقّ (صغّر)	د ق ق	١٣٠
zaqānu	ذقن (المرء)	ز ق ن	١٥٩	dakāku	دكّ (حبّذا)	د ك ك	١٣١
zakâ	زكّى	ز ك ء	١٦٠	dalû	دلّى (غرف بالدلو)	د ل ء	١٣٢
zakāru	ذكر	ز ك ر	١٦١	damû (D)	دمع	د م ء	١٣٣
zamāru	زمر	ز م ر	١٦٢	damāṣu	دمث	د م ص	١٣٤
sâbu	سحب	س ء ب	١٦٣	re'û	رعى	ر ء ء	١٣٥
sâqu	ضاق	س ء ق	١٦٤	râmu	رام (أحب)	ر ء م	١٣٦
sa'ālu	سعل	س ء ل	١٦٥	rêmu	رحم	ر ء م	١٣٧
sabāku	سبك	س ب ك	١٦٦	rabû (D)	ربع (ضاعف، زاد)	ر ب ء	١٣٨
sadādu	سدّ (رتّ)	س د د	١٦٧	rabāṣu	ربض	ر ب ص	١٣٩
sadādu	سدّ (ذبح)	س د د	١٦٨	rapāsu	رفس	ر ب س	١٤٠

– ٣ –

الشكل (٤–٣)

المثل	الجذر بالأكادي	المرادف بالعربي	المصدر بالأكادي
١٦٩	س ف ر	سفر (كتاب)	sepēru
١٧٠	س ك ت	سكت	sakātu
١٧١	س ك ر	سكر (أغلق)	sekēru
١٧٢	س ك ك	صك (سد)	sakāku
١٧٣	س ك ن	سكن/اتخذ	sakānu (D)
١٧٤	س ل د	سلّ	salû
١٧٥	س ل ت	سلت	salātu
١٧٦	س ل ق	سلق (تسلق)	salāqu
١٧٧	س ل ق	سلق	salāqu
١٧٨	س ل ل	سلّ	salālu
١٧٩	س ل م	سلم	salāmu
١٨٠	س م ر	سمر (ابعد)	samāru
١٨١	ش ء د	شاء	še'û
١٨٢	ش ء ب	شاب	šâbu
١٨٣	ش ء خ	شاخ/نما	šâḫu
١٨٤	ش ء ر	شعر	šâru
١٨٥	ش ء ل	سأل	šâlu
١٨٦	ش ء م	سام (اشترى)	šâmu
١٨٧	ش ب ع	شبع	šebû
١٨٨	ش ب ب	شبّ (توقد)	šabābu
١٨٩	ش ب ر	سفر (أرسل)	šapāru
١٩٠	ش ب ص	شبك (عقد)	šapāṣu
١٩١	ش ب ط	شبط (ثبت)	šapāṭu
١٩٢	ش ب ك	شبك (كدس)	šapāku
١٩٣	ش ب ل	سفل (انخفض)	šapālu
١٩٤	ش ت ء	ستر (زين)	šaḫātu
١٩٥	ش ح ط	شحط (قفز)	šaḫāṭu
١٩٦	ش ح ق	شهق (عطس؟)	šeḫēqu
١٩٧	ش ح ل	شحل (نحل)	šaḫālu
١٩٨	ش ح ن	سخنه	šaḫānu
١٩٩	ش د د	شدّ (سحب)	šadādu
٢٠٠	ش ر ء	ثرى	šarû
٢٠١	ش ر ح	شرح (أفاد)	šarāḫu
٢٠٢	ش ر ح	شرح	šaraḫu
٢٠٣	ش ر ط	شرط (قطع)	šarāṭu
٢٠٤	ش ر ق	شرق (قدم)	šarāqu
٢٠٥	ش ر ق	سرق	šarāqu
٢٠٦	ش ر ك	شرك (وهب)	šarāku
٢٠٧	ش ر م	شرم (شذب)	šarāmu
٢٠٨	ش ط ر	سطر (كتب)	šaṭāru
٢٠٩	ش ق ء	سقى	šaqû
٢١٠	ش ق ل	ثقل (وزن)	šaqālu
٢١١	ش ك ر	سكر	šakāru
٢١٢	ش ك ص	سكس (ساكس)	šakāsu
٢١٣	ش ل ء	سلأ (قطع الحلق)	šalû
٢١٤	ش ل ج	ثلج	šalāgu
٢١٥	ش ل ش	ثلث (عدد ثالث)	šalāšu
٢١٦	ش ل ط	سلط (تحكم)	šalāṭu
٢١٧	ش ل م	سلم (سلّم)	šalāmu
٢١٨	ش م ء	سمح	šemû
٢١٩	ش م خ	شمخ	šamāḫu
٢٢٠	ش م ر	شمر (شمّر للعمل)	šamāru
٢٢١	ش ن ء	ثنى (عدد ثاني)	šanû
٢٢٢	ش ن ء	ثنى (غير)	šanû
٢٢٣	ش ن ن	ثنى (غنى)	šanānu
٢٢٤	ش و ء	ثوى	šawû

الشكل (٤-٤)

الرقم	الجذر الأكادي	المرادف العربي	المصدر الأكادي	الرقم	الجذر الأكادي	المرادف العربي	المصدر الأكادي
٢٢٥	ص ب ت	صبط	ṣabātu	٢٥٣	ق ر ب	قرب	qerēbu
٢٢٦	ص ف ط	صفط	ṣaḫāṭu	٢٥٤	ق ر ش	قرش (قضم)	qarāšu
٢٢٧	ص ف ر	صفر	ṣeḫēru	٢٥٥	ق ر ن	قرن (النصر)	qarānu
٢٢٨	ص ر ف	صرف (العملة)	ṣarāpu	٢٥٦	ق ل '	قلى	qalû
٢٢٩	ص ر ḫ	صرخ (أبعد)	ṣarāḫu	٢٥٧	ق ل ل	قلل/قلّ	qalālu
٢٣٠	ص ر ḫ	صرخ (توهج اللون)	ṣarāḫu	٢٥٨	ق ن '	قنى (اقتنى)	qanû
٢٣١	ص ر ḫ	صرخ	ṣarāḫu	٢٥٩	ق ن ن	قنّ (على قنّة)	qanānu
٢٣٢	ص ر ḫ	صرخ (بنى ملكيّة)	ṣarāḫu	٢٦٠	ك ' ن	كان	kânu
٢٣٣	ص ر ر	صرّ	ṣarāru	٢٦١	ك ب ت	كبد (اشتد)	kabātu
٢٣٤	ص ر م	صرم (أبعد علاقة)	ṣarāmu	٢٦٢	ك ب س	كبس (وطأ)	kabāsu
٢٣٥	ص ل '	صلى	ṣalû (D)	٢٦٣	ك ب ش	كبس (غطى الإناء)	kabāšu
٢٣٦	ص ل ل	ظلل	ṣalû (D)	٢٦٤	ك ب ل	كبل	kabālu
٢٣٧	ص ل م	ظلم (اسود)	ṣalāmu	٢٦٥	ك ت م	كتم (غطى)	katāmu
٢٣٨	ص م '	صمأ	ṣamû	٢٦٦	ك ر ص	قرص (قرض)	karāṣu
٢٣٩	ص م د	صمد	ṣamādu	٢٦٧	ك ز ب	كذب	kazābu
٢٤٠	ص م ر	صمر	ṣamāru	٢٦٨	ك س '	كسح	kasû
٢٤١	ط ' ب	طاب	ṭâbu	٢٦٩	ك س م	قسم	kasāmu
٢٤٢	ط ' ن	طمن	ṭênu	٢٧٠	ك ل ل	كلل	kalālu (D)
٢٤٣	ط ب ḫ	طبخ (ذبح)	ṭabāḫu	٢٧١	ك ل م	كلم (عرض)	kalāmu (D)
٢٤٤	ط ب ر	طفر	ṭapāru	٢٧٢	ك م '	قمح	kamû
٢٤٥	ط و '	طوى (لوى)	ṭawû	٢٧٣	ك ن ز	كنز	kanāzu
٢٤٦	ق ا د	قاد (انقاد)	qâdu	٢٧٤	ك و '	كوى	kawû
٢٤٧	ق ب ر	قبر	qebēru	٢٧٥	ل ' ث	لوث	lâšu
٢٤٨	ق ب ل	قبل (واجه)	qabālu (D)	٢٧٦	ل ' ش	لحس	lâšu
٢٤٩	ق ت ף	قطف	qatāpu	٢٧٧	ل ' ط	لحظ	lâṭu
٢٥٠	ق ت ر	قطر (دفع)	qatāru	٢٧٨	ل ' ك	لعق	lêku
٢٥١	ق ت ل	قتل	qatālu	٢٧٩	ل ب ش	لبس	labāšu
٢٥٢	ق د ش	قدس	qadāšu	٢٨٠	ل ب ب	لفّ	lapāpu

الشكل (٤-٥)

إسكل	إكبر برّاكاري	إرادف العربي	إصمر برّاكاري
٢٨١	ل غ م	لحم (اللحم)	leḫēmu/lêmu
٢٨٢	ل ز ز	لزّ (لازّ)	lazāzu
٢٨٣	ل ق '	لقى	leqû
٢٨٤	ل ك '	لكع (صفع)	lakû
٢٨٥	ل ك د	ركض	lakādu
٢٨٦	ل م د	لمذ (تعلم)	lamādu
٢٨٧	م ' ت	مات	mâtu
٢٨٨	م ' ن	مون	mânu
٢٨٩	م د د	مدّ (قاس)	madādu
٢٩٠	م ر '	مرّ (سمى)	marû
٢٩١	م ر ر	مرّ (غادر)	marāru
٢٩٢	م ر ر	مرّ (امتخ مرًا)	marāru
٢٩٣	م ر ض	مرض	marāṣu
٢٩٤	م ر ط	مرط (خدش)	marāṭu
٢٩٥	م ḫ ر	مخر (قابل)	maḫāru
٢٩٦	م ḫ ض	مخض (صنع زبدة)	mâṣu
٢٩٧	م س ḫ	مسخ (هوى، اضمحل)	masāḫu
٢٩٨	م š ḫ	مسح (سامة)	mašāḫu
٢٩٩	م š l	مشل (مثّل)	mašālu
٣٠٠	م k s	مكس (فرض ضريبة)	makāsu
٣٠١	م l '	ملأ	malû
٣٠٢	م l k	ملك	malāku
٣٠٣	n ' r	نعر (النادور)	na'āru
٣٠٤	n ' r	نهر	nêru
٣٠٥	n ' ḫ	نوح (ناح)	nâḫu
٣٠٦	n ' š	نعش (انتعش)	neʾšu
٣٠٧	n ' q	نهر/نعر	nâqu
٣٠٨	n b '	نبأ	nabû

إسكل	إكبر برّاكاري	إرادف العربي	إصمر برّاكاري
٣٠٩	n b ḫ	نبح	nabāḫu
٣١٠	n p ḫ	نفخ	napāḫu
٣١١	n p š	نفس	napāšu
٣١٢	n p š	نفش	napāšu
٣١٣	n p ṣ	نفض	napāṣu
٣١٤	n p l	نقل (وازن)	napālu
٣١٥	n ḫ r	نخر (شخر)	naḫāru
٣١٦	n ḫ r	نخر (ذبل)	naḫāru
٣١٧	n ḫ l	نخل	naḫālu
٣١٨	n d r	ندر	nadāru
٣١٩	n z '	نزح (فقلب)	nezû
٣٢٠	n z q	نزق (ناكد)	nazāqu
٣٢١	n z l	نزل (أنزل)	nazālu
٣٢٢	n s ḫ	نسخ (أزال)	nasāḫu
٣٢٣	n s r	نظر	nasāru
٣٢٤	n š r	نشر (صبّ)	našāru
٣٢٥	n š r	نشر (قطع)	našāru
٣٢٦	n š q	نشق (قبل)	našāqu
٣٢٧	n ṣ b	نصب	naṣābu
٣٢٨	n ṣ r	نصر (حرس)	naṣāru
٣٢٩	n ṭ '	نطح (تسبّب)	naṭû
٣٣٠	n ṭ '	نطح (ضرب)	naṭû
٣٣١	n ṭ p	نتف	naṭāpu
٣٣٢	n q b	نقب	naqābu
٣٣٣	n q r	نقر (هدّ)	naqāru
٣٣٤	n k r	نكر (عادى)	nakāru
٣٣٥	n k s	نكس (قطع)	nakāsu
٣٣٦	n w r	نور	nawāru

الشكل (٤ - ٦)

وننهي هذه المحاضرة بمثالين لهما دلالتهما الخاصة بالعلاقة بين اللغتين العربية والأكادية. في المثال الأول قول مأثور دُوِّن بالخط المسماري باللغتين السومرية والأكادية يُظهر قرب الأكادية من العربية واختلاف السومرية عن كلتيهما، الشكل (٥). وفي المثال الثاني أخذنا قصة سرجون الأكادي وأعدنا كتابتها باللغة الأكادية، اعتمادًا على الترجمة الحديثة فقط، لبيان قرب اللغتين العربية والأكادية الواحدة من الأخرى.

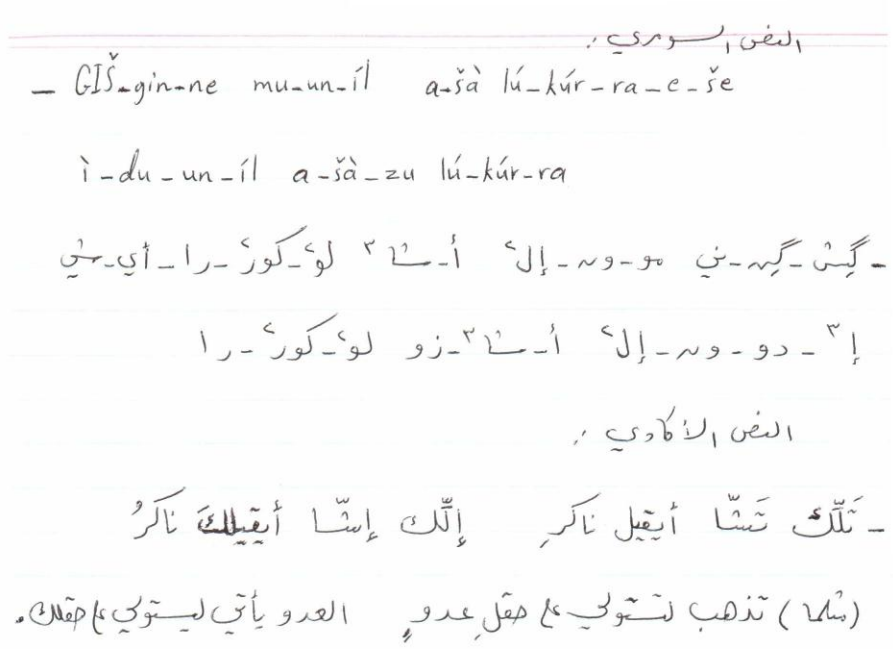

الشكل (٥)

الشكل رقم ٦ : نص أدبي مؤلف باللغة الأكادية حديثاً

قصة سرجون الأكادي

١: شَرُّكيه شَرُّ دَنُّ شَرْ أحادَه أناكُ

٢: أُمّي نَديتُ أبي أُل أدْ

٣: أهْوَ سا أبي شَدي إروموِ

٤: أزْبيراهُ آلي سا إنَ أخ بُرّاتِ

٥: أُمّي نَديتُ أبلهِ بُزريشْ توبلهِ

٦: إنَ بابه صَربتِ تَشكُنّ إنَ كَبرِ تَلكُمْ بابِ

٧: أنَ نارِ تَدّهِ نارُ أُل إشَلّمَ

٨: نارُ إتبَلهِمَ أنَ أكّي شاقي أوبلهِ

٩: أكّي شاقي إنَ طيبْ دَلِشْ إشّهِ

١٠: أكّي شاقي كيمَ مارشْ إهُزنِمَ أُربوهِ

١١: أكّي شاقي زاقِبانشْ إشكُنّ

١٢: أينما زاقِبابهُ أناكُ إستار نَروهِ

١٣: و أيربيتَهْ و [---] شَمَاتِ شَرّوةِ أيِيشْ

١٤: صَلاتْ قَقَرِ أبيلمَ أُرَدّ

-١-

الشكل (٦- ١)

١٥. شَدي دَنّوتِ إنَ پاشي سِپَرّ أكسُد

١٦. شَدي أيلوتِ أُشتَنَبلكَتْ

١٧. شَدي شبلوتِ أللّك

١٨. ماتْ تآمتِ شَلشيانِشْ أمَتلّك

١٩. دِلون إيداي إصبَتو

٢٠. أنَ دير رَبي أللّك

٢١. كَزَلُ أُنَقّرمَ [---]

٢٢. سَرّ مَمّهْ وَركي

٢٣. [---]

٢٤. صَلاتْ قَقّدِ لوبلمَ لوردِ

٢٥. شَدي دَنّوتِ إنَ پاشي سِپَرّ لِكسُدْ

٢٦. شَدي أيلوتِ لوشتَنَبلكَتْ

٢٧. شَدي شَبلوتِ لِلّك

٢٨. ماتْ تآمتِ شَلشيانِشْ ليمَتّك

٢٩. دِلوه إيداسُ لِصبُت

-٢-

الشكل (٦– ٢)

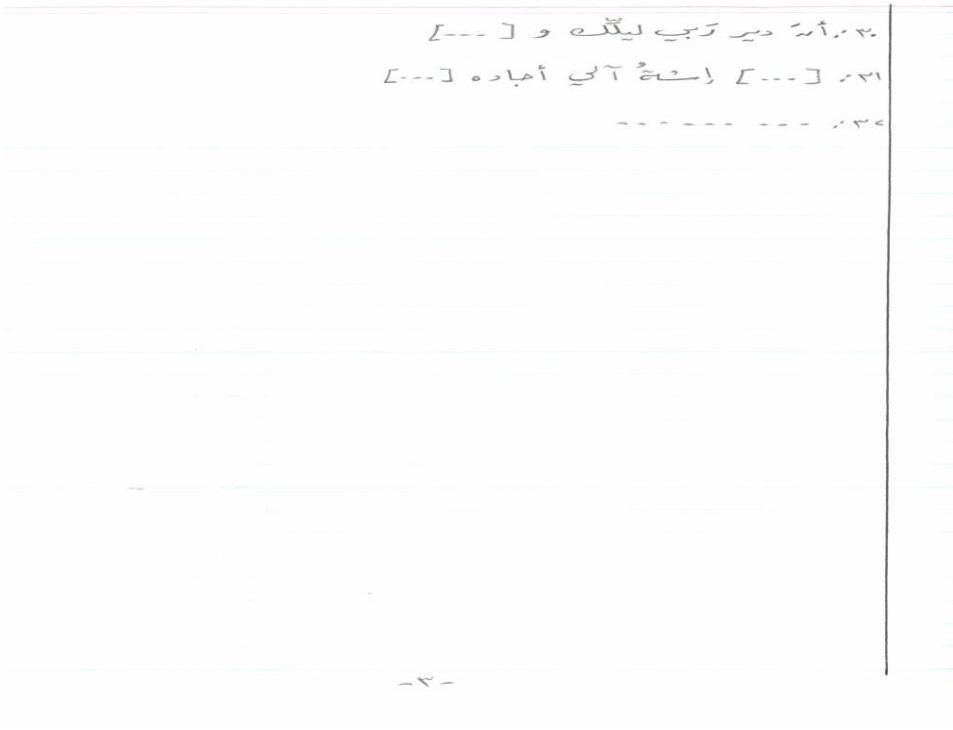

الشكل (٦- ٣)

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

الأبجديات القديمات

تاريخها – جغرافيتها – استعمالاتها

وملامح في فقه اللهجة العربيَّة الآرامية المعلولية

أ.د. محمد بهجت قبيسي(*)

أستاذ الكنعانية والآرامية بجامعات

حلب وتشرين والقاهرة سابقاً

بدايةً تحيةَ إِكبارٍ وإجلالٍ إلى أرواحِ شهدائِنَا في فلسطينَ ولبنانَ والعراقِ والصومالِ والسودانِ، وبعد:

استفتحُ هذهِ المحاضرةِ حسبَ الطريقةِ العربيَّة الإسلاميةِ وأقولُ: بسمِ الله الرحمنِ الرحيم. وحسبَ الطريقةِ العربيَّة المسيحيةِ فأقولُ: بسمِ الله الواحدِ الأحدِ. وحسبَ اللهجةِ العربيَّة الأجاريتيةِ أقولُ: **(ئيل**(1) **صمد)** أي اللهُ الصمدْ. وحسبَ اللهجةِ العربيَّة الآراميةِ المعلوليةِ نقولُ:

بِشْمِ لْ أللو رَحُوما تي مَرْحِم

أي: بسم الله الرحوم ذي المَرْحَمَةْ

(*) محاضرة ألقيت في قاعة المحاضرات في مجمع اللغة العربية بتاريخ ١٨ شوال ١٤٣٠هـ – الموافق ٧ تشرين الأول / ٢٠٠٩م.

(١) ئيل تعني (الله) نكتبها على نبرة للتفريق بينها وبين أيل لتعني غزال خلافاً لطريقة الإملاء المستعملة اليوم وقريبة من الرسم القرآني.

أرحِّبُ بكم أيّها السَّادةُ الحضورُ وأخصُّ بالذّكرِ السيّدةَ نائبَ رئيسِ الجمهوريةِ أ.د.نجاح العطار والأستاذَ الدكتورَ مروان محاسني رئيسَ مجمعِ اللغةِ العربيَّة بدمشقَ وأ.د.محمود السيد نائبَ رئيسِ المجمعِ والسادةِ أعضاءِ المجمعِ وكذلكَ السادةَ العلماءَ والمختصينَ في هذا المجال.

الأبجديات

مُقَدِّمَة: كانَ الشَّرفُ للمنطقةِ العربيَّة (مِصْرَ والعراقِ والشامِ) شرفُ الاختراعِ الأوّلِ في العالمِ أجمعْ وهوَ **تحويلُ الصَّوْتِ إلى شكلٍ كتابيٍّ**، اختراعٌ وكشفٌ كبيرٌ لا يُمكنْ مقارنَتَهُ بأيِّ اختراعٍ آخرَ حتَّى اختراعِ الكهرباءِ والذرة.
ذاكَ العبقريُّ الّذي حوَّلَ ليْ الصّوتَ إلى رسمٍ كتابيٍّ.

أساليبُ الكتابة:

١) **الكتابةُ التصويريّةْ**: نَفْهَمُ مِنْهَا المعنى ولا نعرِفُ الصَّوتَ وهيَ مستعملةٌ حتّى اليومِ بإشاراتِ المرورِ والمطاعمِ (شوكةٌ وسكّينٌ) [✕] تعني مطعماً، لكنّي لا أعلَمُ لَفْظَهَا إنْ كانَتْ مطعماً أو مطبخاً أو استراحة أو ميس. وهيَ أوُلى أنواعِ الكتاباتِ، استُخْدِمَتْ فيْ كافَّةِ أرجاءِ المعمورةِ العراقِ – مِصْرَ – شمالِ إفريقيا – أوروبا – شرقِ آسيا، وأماكِنَ أخرى.

٢) **الكتابةُ المقطعيةْ**: كلُّ مقطعٍ يحمِلُ صوتَيْنِ (حرفَيْنِ) أو ثلاثَةً، وقدْ يُؤلِّفُ المقطعُ كلمةً أو جزءًا مِنْ كَلمَةٍ مثل:

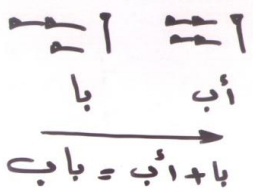

با: صوتانِ بدون معنى. **أب**: تعني أب والد.

فإذا أردتُ أنْ أكتُبَ [باب] فأكتُبُ با + أب لكنْ ألفِظُهَا باب لتعني باب وكِلتَا الكلمتين أب وباب موجودتانِ في الأكّاديةِ بفَرعيْها البابليِّ والآشوريّ.

الأبجدية:

لَمَّا كانتِ المقطعيةُ صعبةً وهي تحوي عِدَّةَ ألفاظٍ للصّوتِ الواحِدِ فَمَثَلاً [الباء] لّدّيَّ: أَبْ + أُب + إِب وكذلك، با + بو + بي. وكلُّ مرحلةٍ زمنيّةٍ تحوي أكثرَ منْ خمسِمِئَةِ مقطعٍ؛ لذا كانتْ الأخطاءُ الإملائيّةُ كثيرةً.

ولَمَّا كانتْ أنظمةُ الكتابةِ منذُ فجرِ التاريخِ، وحتّى اليومِ عاجزةً عنْ تلبيةِ متطلّباتِ الصّوتِ قَامَ ابنُ أُجاريتَ[1] باختراعٍ آخرَ وهوَ تجاهُلُهُ للأحرفِ الصوتيةِ ا + و+ ي المجموعةِ في كلمةِ بارودي ومَثَّلَ الأصواتِ الساكنةَ فقط ومنها: أ + ي + والمجموعةَ في كلمةِ أَيَوْمْ.

إذنْ اختراعُ الأبجديّةِ كانَ ضرورةً لتلافي الأخطاءِ الإملائيّةِ ولسهولةِ الكتابةِ، حيث كان على علمٍ أنّ اللغةَ تُعّلَّمُ في السَّماعِ والسَّماعِ أولاً، ولا تُعَلَّمُ في الكتبِ حيث الكتابةُ للتذكيرِ وليست للِّفْظِ، فشرطُها السَّماعُ السَّليم، السَّماعُ بالأذنِ ثمّ الإعادةُ باللّسانِ، وأمّا الكتابةُ فتأتي بدرجةٍ متأخّرةٍ جدّاً وهي للتذكير.

(١) وردت في أكثر الكتابات بالضم أُجاريت وأتت أحياناً بالفتح أَجاريت أو أَجَرِيتْ: الهمزة للتنبيه وجريه = جريت أي قرية = قَريتا وأجاريت تعني القرية، المدينة.

١) الأبجديّةُ المسماريةُ الأجاريتية:

تاريخُها: ١٨٣٠ ق.م.

جغرافيتُها: شمالَ غربِ سوريا

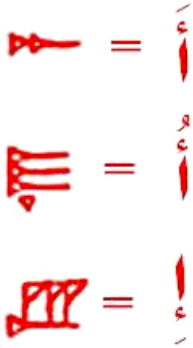

A	B	G	Ḫ	D	H	W	Z	Ḥ	Ṭ
أ	ب	ج	خ	د	ه	و	ز	ح	ط

Y	K	Š	L	M	Ḏ	N	Ẓ	S	ʿ
ي	ك	ش	ل	م	ذ	ن	ظ	س	ع

P	Ṣ	Q	R	Ṯ	Ġ	T	I	U	(S)
ف	ص	ق	ر	ث	غ	ت	إ	ؤ	(س)

أهمُّ ما فيها أنَّها مَثَّلتِ الهمزةَ بحركاتِها الثلاث كلٌّ على حِدا، ومَثَّلَتْ صوتَ الظّاءِ (بدونِ إخراجِ اللسانِ)، كما ألفُظُ كلِمَةَ ضابطٍ بالعاميّةْ (زابط).

٢) الأبجديّةُ السينائية:

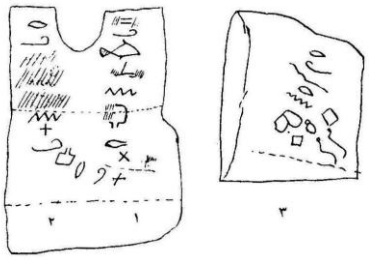

تاريخها: ١٥٥٠ ق.م.

جغرافيتها: شبه جزيرة سيناء.

نقوشُها قليلةُ العددِ وكتابتُها منَ اليسارِ إلى اليمينْ.

	الكنعانية/الآرامية	السينائية	الهيروغليفية
أ			
ب			
و			
ز			
ي			
ك			
ل			
م			
ن			
ع			
ف			
ر			
ش + س			
ت	× +	+	

مقارنة الأشكال الهيروغليفيّة والسينائيّة

ملاحظةٌ هامّةْ: لقد حَوَتْ كلٌّ منَ **المسمارية** والهيروغليفيةِ (الكتابةُ المقدسّةُ) أبجدياتٍ لتمثّلَ كلَّ صوتٍ بحرفٍ، وهي أبجديّةٌ كاملةٌ للأصواتِ، لكنّها لمْ تستعمْلها بصورةٍ منفردةٍ، بل استعملَتْها داخلَ الكتابةِ المقطعية.

ومع ذلك فهي أبجديّةٌ كاملةٌ تقريباً بالهيروغليفيةِ وقليلةُ العددِ وقليلةُ الاستعمالِ في المسمارية.

٣) الأبجديّةُ الكنعانيةُ / الآراميةُ أو الآراميةُ / الكنعانية:

تاريخها: ١١١٧ ق.م نقشُ السفيرةِ (المحفوظُ بمتحفِ دمشق)[١].

جغرافيتها: بلادُ الشّامِ – العراقُ – جنوبُ تركيا – شمالُ إفريقيا – (مِصْرُ ٢٠٠٠ نقش) – ليبيا – تونُسُ – الجزائرُ – المغربُ – جزيرةُ سردينيا – جُزُرُ البليار – إيرانُ – باكستانُ – نهرُ السّند.

وهي أهمُّ أبجديّةٍ، كانت يدويّةً تختلفُ بعضُ أحرفِهَا في الرَّسْمِ مِنْ بلدٍ إلى آخرَ لكنّ المختصَّ يميِّزها ويعرِفُها بسرعة.

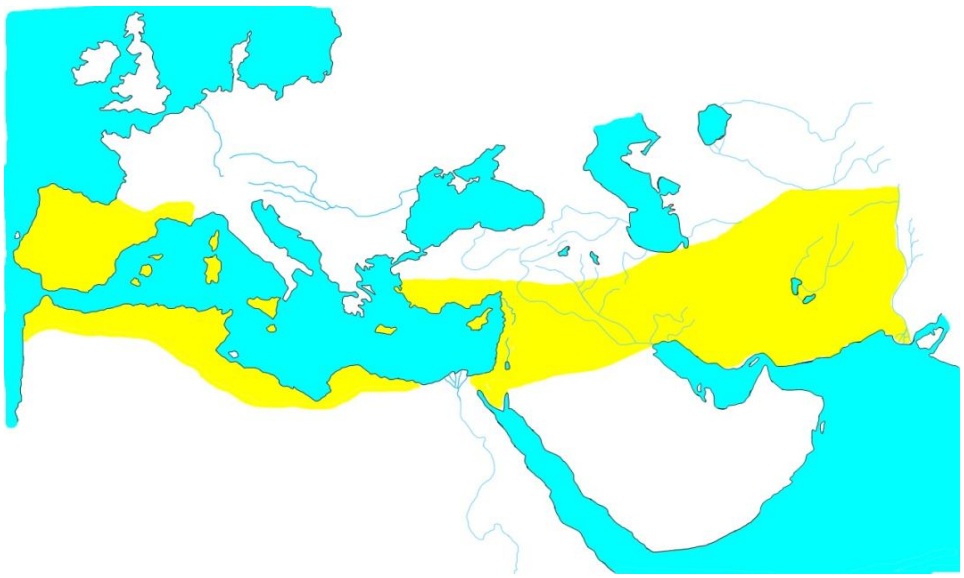

(١) دراسات جديدة رفعت تاريخ النقش للقرن الثاني عشر ق.م بعد أن كان تاريخه القرن الثامن ق.م. وجعلتها معاهدة متكافئة بعد أن كانت تُعتبر معاهدة إذعان.

٤) الأبجديّة الرسانية (الأتروسكيون) الذين عمّروا روما:

هي أبجديّةٌ كنعانيةٌ / آراميةٌ لكنَّها كُتِبَتْ مِنَ اليسارِ إلى اليمينِ، ونُرجِّحُ أنَّ الكتابةُ اللاتينيةُ أُخِذَتْ منها وليسَ منَ اليونانية كَمَا يُدَّعَى.

تاريخها: القرنُ السابعُ قبلَ الميلادِ تقريباً.

جغرافيتها: شمالُ غرب إيطاليا ابتداءً من روما.

الأبجدية الأتروسكية (الرسانية)

ت ر ق ص ف ع س ن م ل ك ي ط ح ز و هـ د ج ب أ

يقولُ ارنست شتراناد منْ جامعةِ هومبولت في برلينَ بمؤتمرِ أتروسك في فلورنسا عامَ ١٩٨٥ [بيدَ أنَّهُ مَا منْ أحدٍ يريدُ أنْ يقبلَ بالمقولةِ القائلةِ إنَّ الأتروسكيينَ (الرسانيينَ) جاؤوا منَ المشرقِ العربيِّ] ويضربُ على ذلك مثلاً اسم روما (منَ الرَّامِ: الآراميةِ الكنعانية التي تعني العالي وهي مبنيّةٌ على سبعِ تلالٍ، وكلمةُ سيناتو هي أتروسكيةٌ وليستْ لاتينيةً لتعني المسنيّنَ (مجلسَ المسنيّنَ) مجلسَ الشّيوخِ علماً أنّ تعبيرَ (مسن سنهم) استُعْمِلَ في النّقوشِ الكنعانيةِ بمعنى شيخِ شيوخِهِم وبالأمازيغيةِ مسّن سنّا أي مسنَّ السِنّ.

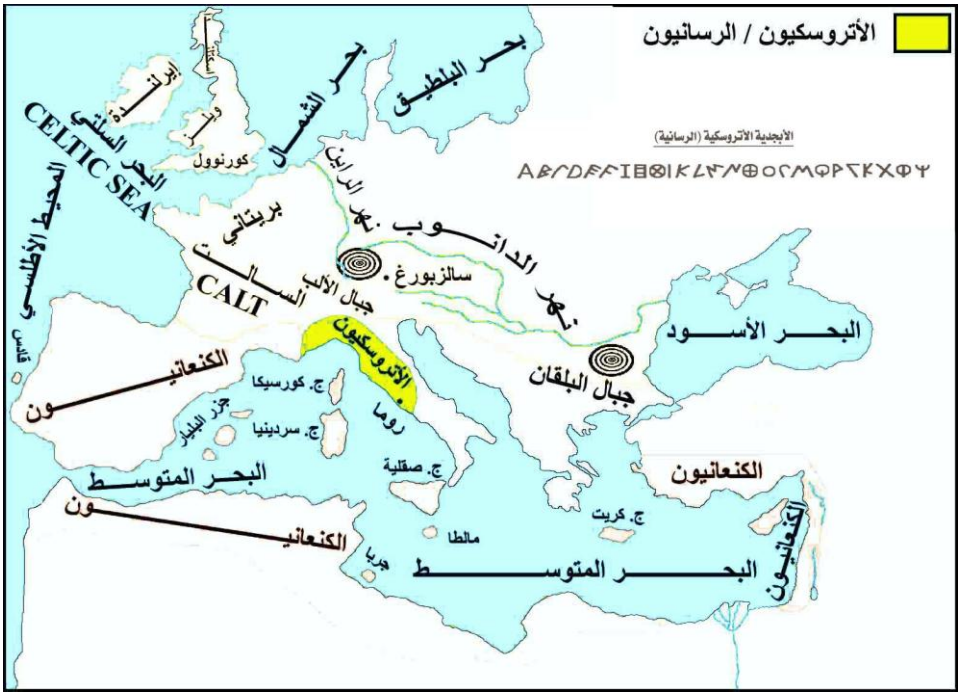

إذنْ الكتابةُ الرسانيةُ الأتروسكيةُ أُخِذَتْ منَ الكنعانيةِ، واللاتينيةُ أُخِذَتْ منَ الرسانيةِ على ما نُرجّحُ اعتمادًا على:

١ – الناحية الجغرافية

٢ – شكل الخطِّ

٣– فقه اللغة.

٥) الأبجديّة السلتية:

تاريخها: القرنُ السادسُ قبلَ الميلاد.

جغرافيتها: البلقانُ جنوبَ الدانوبِ – النمسا غربَ الراين – فرنسا، وكذلك الجزرُ البريطانيةُ أي شمالَ الأتروسكيينَ الرسانيينَ في إيطاليا.

أبجدية السالت

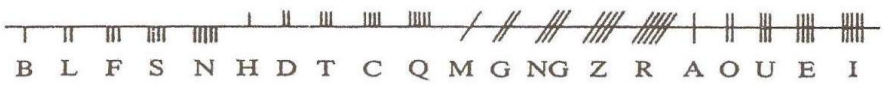

لغوياً:

يقولُ جون جوزيف في كتابِهِ [اللغةُ والهويةُ] الذي نشرتهُ مجلةُ عالَمِ المعرفةِ الكويتيةِ في عددها ٣٤٢ لشهرِ آبَ (أغسطس) ٢٠٠٧ ترجمةُ د. عبدِ النّورِ خرافي في ص٢٤٨ [إنّ اللهجةَ الايرلنديةَ القديمةَ (وهي إحدى اللهجاتِ السلتيةِ) تحوي تسعَ كلماتٍ منْ أصلِ عشرٍ هي كلماتٌ كلديةٌ وعربيةٌ خالصة].

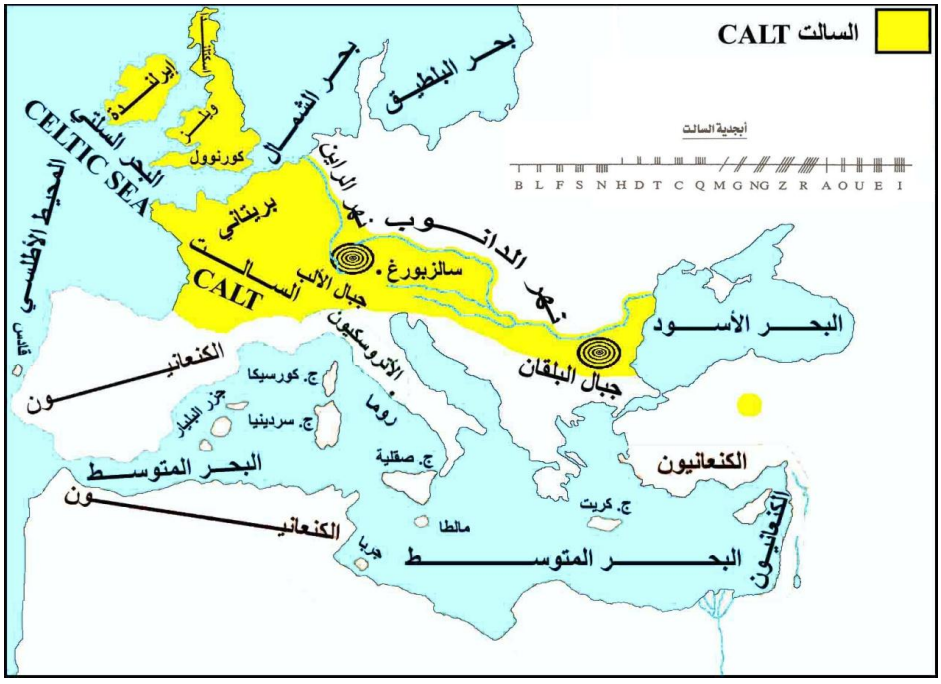

٦) الكتابة اليونانية :

معروفةٌ وقالوا إنّها أُخِذَتْ منَ الكنعانيينَ.

تاريخها: القرنُ السابعُ ق.م.

جغرافيتها: اليونانُ – تركيا – بلادُ الشامِ – مِصْرُ – ليبيا. واستُعملت جنباً إلى جنبٍ معَ الكتابةِ التدمريةِ، لا سيما نقشِ التعرفةِ الجمركيةِ التدمريةِ الذي قمنا بتحقيقِهِ وإعادةِ قراءتِهِ.

GREEK ALPHABET

Greek name	Greek letter	
	Lower case	Capital
Alpha	α	A
Beta	β	B
Gamma	γ	Γ
Delta	δ	Δ
Epsilon	ϵ	E
Zeta	ζ	Z
Eta	η	H
Theta	θ	Θ
Iota	ι	I
Kappa	κ	K
Lambda	λ	Λ
Mu	μ	M

Greek name	Greek letter	
	Lower case	Capital
Nu	ν	N
Xi	ξ	Ξ
Omicron	o	O
Pi	π	Π
Rho	ρ	P
Sigma	σ	Σ
Tau	τ	T
Upsilon	υ	Υ
Phi	ϕ	Φ
Chi	χ	X
Psi	ψ	Ψ
Omega	ω	Ω

٧) الكتابةُ اليونانيةُ الأقدمْ: LINEAR (A) و LINEAR (B)

تاريخها: مدّوها للقرنِ ١٢ ق.م وإننا نشكُّ في ذلك.

ويقولونَ إنّ لها صلةً منْ ناحيةِ الشكلِ بالهيروغليفيةِ، وقد قرّبوها منَ الخطِّ المصريّ.

الجغرافيا: جزيرةُ كريتْ وماجاورها وخاصّةً قصرُ كينيسوس (قصرُ التيه).

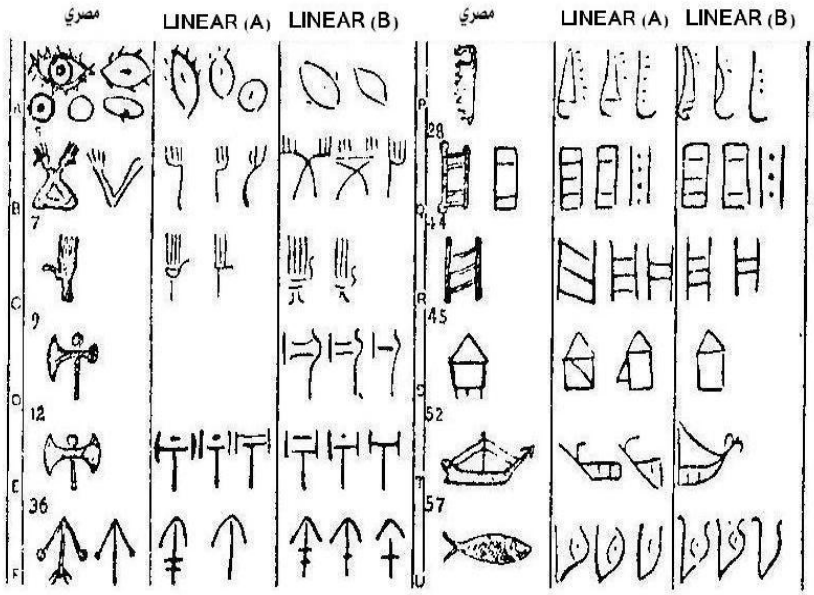

الرسم ٦

تطور بعض الأشكال من الهيروغليفيّة إلى الخط غير التصويريّ

(نقلاً عن Evans, *The Palace of Minos*, I, 643)

٨) كتابةُ التيفيناغ:

كتابةُ اللهجةِ العربيَّةِ الليبيةِ الأمازيغيةِ.

تاريخها: قرابة القرن ٤ ق.م.

جغرافيتها: ليبيا والجزائر والمغرب.

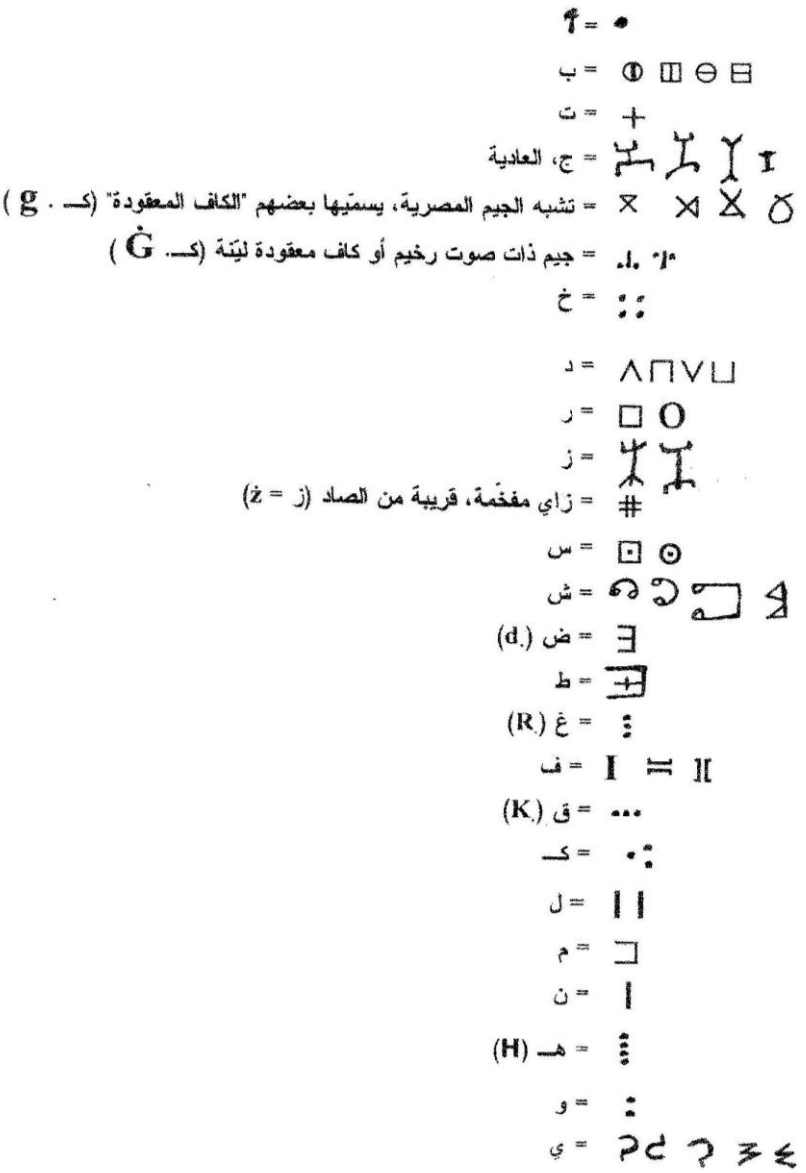

أمثلتها:

نقش مسنّ سنّهم والمسمّى خطأً نقش ماسنيسا

السطر (١)	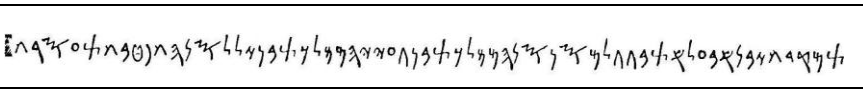
حرف الجزم:	ت م ق د ش ز ب ن أ ب ع ل أ ت ب ج ج ل م س ن س ن هـ م م ل ك ت ب ن ج ع ي ي هـ ق م ل ك ت ب ن ز ل ل س ن هـ ش ف ط ب ش ت ع س ر ش
تفريق الكلمات:	تمقد شز بن أب علأتب ججل مسن سنهم مل كتبن جعي يهقم لكتبن زلل سنه شفط بشت عسر ش
اللفظ المقترح:	تمقاد شزا بن أبي علاء تاب جوجل مسن سنهم ملاّ كتابين جوعي يهقوم لكتابين زلل سنه شفط بشتّا عسر شا
التفسير:	تمقاد شزا بن أبي علاء، عاد، نظّم، شيخ شيوخهم: أملا الكتّاب (الكتبة) المتلهّفين الجوعى، يقدّم للكتبة بإعادة عادات العدل لـ ستة عشر (ملكاً سبقوا)
السطر(٦)	
حرف الجزم:	ص ك ن ت ب ج ج أ ب ن ي ف ش ح أ م س ن س ن أ ج ل د ث أ و ج ي ي أ ج ل د ث أ و ز ل ل س ن أ ش ف ط
تفريق الكلمات:	صكن تب ججأ بني فشح أ مسن سنا جلدث أو جيي أجلدث أو زلل سن أشفط
اللفظ المقترح:	صكن تاب جوجأ بني فشيح وأُ مُسِنْ سِنّا جَلْدَثْ أو جويي أجلدوث أو زلل سن أشفط
التفسير:	سكن، تاب (عاد)، جوجأ (نظّم) وهو من بني الفسحة والكرم وابن شيخ الشيوخ. أَكْتَبَ المتلهّفين (الجوعى) كتاب وأعاد سنّة العدل

والفضلُ في قراءتنا لهذهِ النّقوشِ يعودُ لعَلاَّمَتِنَا العميدِ محمد علي ما دون الموجودِ بيننا، وهو صاحبُ المدوّنةِ العربيَّة (منْ خمسةِ أجزاءَ) لم يُكتبْ لها النّشر حتى الآن، ونوصي مجمعَ اللغةِ العربيَّةِ بدمشق بطباعتها لأهميتها.

٩) الأبجديات: الهيروغليفيةُ ثم الهيراطيقيةُ فالديموطيقيةْ:

أي المقدسةُ والكهنوتيةُ والشعبيةْ

فأما الأولى فلم تُكتبْ منفردةً، بل دخلتْ هذه الأبجديّةُ بحواشي الهيروغليفيّةِ (كما بيّنّا) في الألفِ الثالثِ قبلَ الميلادِ والهيراطيقيةُ بالألفِ الثاني قبل الميلادِ والديموطيقيةُ نهاياتِ الألفِ الثاني والألفِ الأوّلِ قبل الميلاد.

جغرافيتها: مصر.

الهيروغليفية	
الهيراطيقية الديموطيقية	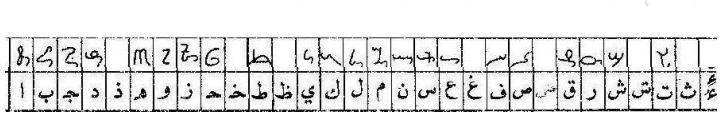

إنّ اختلاف نمط الخط لا يدلُّ على اختلاف اللغة

١٠) **الخطُّ المسند**:

ويضم الحميريَّ + السبئيَّ + اللحيانيَّ + الثموديَّ + الصفائيَّ.

التاريخ: القرن ٦ ق.م.

ملاحظة: السُّلَّم التأريخيُّ اليمنيُّ لا يزالُ ضبابياً.

الجغرافيا: من اليمنِ وحتى الصفا جنوبَ دمشق.

الاستعمالات: كُتِبَتْ بهِ اللهجاتُ الأوسانيةُ والقتبائيةُ والحضرميةُ والمعينيةُ والحميريةُ والسبئيةُ في اليمنِ اليومَ، وكذلك اللحيانيةُ والثموديةُ شمالِ نجدٍ والحجازِ والصفائيةُ في كلٍّ منَ الأردنِ وجنوبِ سوريا (سايكس بيكو). وأمّا ما بعدَ اللحيانيّةِ جغرافيّاً، فهي كتابةٌ يدويّةٌ رديئة.

الصوت		سبئي	ثمودي	صفائي	لحياني
ʾ	أ	𐩱	𐪀 𐪁 𐪂 𐪃 𐪄 𐪅 𐪆 𐪇 𐪈	𐪀 𐪁 𐪂 𐪃 𐪄 𐪅 𐪆 𐪇 𐪈	𐪀 𐪁 𐪂 𐪃 𐪄 𐪅 𐪆 𐪇 𐪈
b	ب	𐩲	𐪉 𐪊	𐪉 𐪊	𐪉 𐪊
g	ج	𐩳	𐪋 𐪌	𐪋 𐪌	𐪋 𐪌
d	د	𐩴	𐪍 𐪎 𐪏 𐪐	𐪍 𐪎 𐪏 𐪐	𐪍 𐪎 𐪏 𐪐
ḏ	ذ	𐩵	𐪑 𐪒 𐪓	𐪑 𐪒 𐪓	𐪑 𐪒 𐪓
h	ه	𐩶	𐪔 𐪕 𐪖 𐪗	𐪔 𐪕 𐪖 𐪗	𐪔 𐪕 𐪖 𐪗
w	و	𐩷	𐪘 𐪙 𐪚 𐪛 𐪜 𐪝 𐪞 𐪟	𐪘 𐪙 𐪚 𐪛 𐪜 𐪝 𐪞 𐪟	𐪘 𐪙 𐪚 𐪛 𐪜 𐪝 𐪞 𐪟
z	ز	𐩸	𐪠 𐪡	𐪠	𐪠
ḥ	ح	𐩹	𐪢 𐪣 𐪤 𐪥 𐪦 𐪧	𐪢	𐪢
ṯ	ث	𐩺	𐪨	𐪨	𐪨
ṭ	ط	𐩻	𐪩	𐪩	𐪩
y	ي	𐩼	𐪪 𐪫 𐪬	𐪪	𐪪
k	ك	𐩽	𐪭 𐪮 𐪯 𐪰 𐪱 𐪲	𐪭 𐪮 𐪯 𐪰 𐪱 𐪲	𐪭 𐪮 𐪯 𐪰 𐪱 𐪲
l	ل	𐩾	𐪳 𐪴 𐪵 𐪶 𐪷 𐪸	𐪳 𐪴 𐪵 𐪶 𐪷 𐪸	𐪳 𐪴 𐪵 𐪶 𐪷 𐪸
m	م	𐩿	𐪹 𐪺 𐪻	𐪹 𐪺 𐪻	𐪹 𐪺 𐪻
n	ن	𐪀	𐪼 𐪽 𐪾 𐪿 𐫀 𐫁	𐪼 𐪽 𐪾 𐪿 𐫀 𐫁	𐪼 𐪽 𐪾 𐪿 𐫀 𐫁
s	س	𐪁	𐫂 𐫃 𐫄 𐫅	𐫂 𐫃 𐫄 𐫅	𐫂 𐫃 𐫄 𐫅
ʿ	ع	𐪂	𐫆 𐫇 𐫈	𐫆 𐫇 𐫈	𐫆 𐫇 𐫈
ḫ	خ	𐪃	𐫉 𐫊	𐫉 𐫊	𐫉 𐫊
p/f	ف	𐪄	𐫋 𐫌	𐫋 𐫌	𐫋 𐫌
ṣ	ص	𐪅	𐫍 𐫎 𐫏 𐫐 𐫑 𐫒 𐫓	𐫍 𐫎 𐫏 𐫐 𐫑 𐫒 𐫓	𐫍 𐫎 𐫏 𐫐 𐫑 𐫒 𐫓
ḍ	ض	𐪆	𐫔	𐫔	𐫔
q	ق	𐪇	𐫕	𐫕	𐫕
r	ر	𐪈	𐫖 𐫗	𐫖 𐫗	𐫖 𐫗
š	ش	𐪉	𐫘 𐫙 𐫚 𐫛 𐫜 𐫝	𐫘 𐫙 𐫚 𐫛 𐫜 𐫝	𐫘 𐫙 𐫚 𐫛 𐫜 𐫝
t	ت	𐪊	𐫞	𐫞	𐫞
ṯ	ث	𐪋	𐫟	𐫟	𐫟

الخطوط المنسوبة للمسند

١١) خطُّ الجزم:

استعملتهُ العدنانيةُ واللهجةُ المعلوليةُ (موضوعُ البحث)

هو الخطُّ الذي نستعملهُ اليومَ (متطوراً) في كتاباتنا، فكتابة العربيَّة الفصحى العدنانيةَ به معروفةٌ، أمّا كتابة اللهجةِ المعلوليةِ بهِ فسنرجئُ بحثها إلى ما بعدَ قليل.

تاريخ خط الجزم العدناني / المعلولي:

بدأَ بنقشِ امرئِ القيسِ أو ما يعرفُ بنقشِ النَّمَارَةِ سنةَ ٣٢٨ م، وأخذوا بِدْءَ هذا التاريخِ منَ التاريخِ النبطيِّ وهو سقوطُ دولةِ الأنباطِ سنةَ ١٠٦م **كما يَدّعونَ** ويعتبرونها حربَ النّبط.

جاء في الكتاباتِ أنّ دولةَ الأنباطِ **ضُمَّتْ** إلى الإمبراطوريةِ الرومانيةِ زمنَ تراجان ذي الأمِّ الكنعانيةِ ٩٨-١١٧م، فإن كانت هناك حربٌ وخَسِرَها الأنباطُ -كما يدّعونَ - فهلْ يُؤَرَّخُ لإنسانٍ بسنةِ هزيمتهِ؟ إنّ حربَ النبطِ هي هاتيك الحربُ التي قَتَلَ فيها الحارثُ الثالثُ النبطيُّ أنطيوخس الثاني عشرْ ملك سوريا الإغريقيَّ في معركةِ مؤتة (جنوبَ شرقِ البحرِ الميّتِ بـ ٢٥ كم) سنة ٨٦ ق.م. وقد مَرَّ زمنٌ قدرُهُ ١٩٢ سنةً بين ١٠٦م و٨٦ ق.م؛ لهذا فإنّ تاريخَ نقشِ النَّمَارَةِ أو ما يُعْرَفُ (بنقشِ امرئِ القيسِ) يعودُ لسنةِ ٣٢٨م – ١٩٢ = **١٣٦** أي سنةِ ١٣٦ م.

وموقعُ النَّمَارَةِ هو شرقُ/ جنوب دمشقَ بـ ٣٠كم.

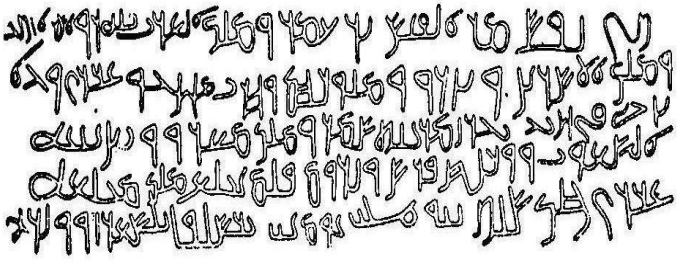

أي: هذه نفس (قبر) امرئ القيس بن عمر.

هذه لهجةٌ عربيةٌ آراميةٌ معلوليةٌ مئة في المئة، وليست لهجةً عربيةً عدنانيةً؛ لذا نقولُ: إنّ اللهجةَ المعلوليةَ كُتِبَت بحرفِ الجزم.

ثم لدينا **نقشُ أمِّ الجمالِ الأوّلِ** جنوبَ درعا ٢٥٠م تقريباً

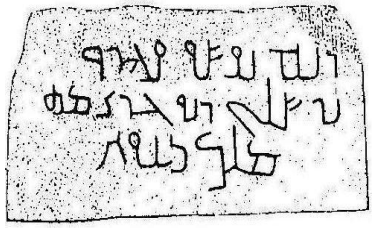

دنّه نفشو فهرو بر شلي ربُّ جزيمة ملك تنوخ

ثم نقشُ زبد ٥١٢ م.

آثار كنسيّة

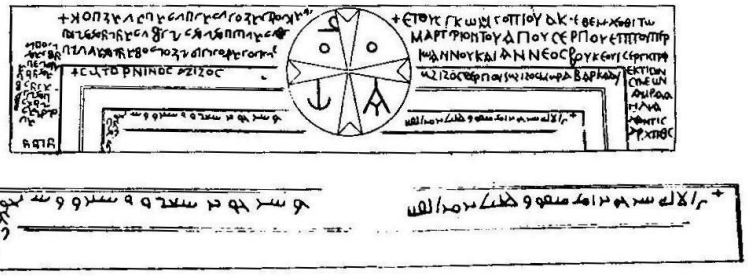

قراءته:

يبدأُ النّقشُ بعلامةِ الصّليبِ † بسم الإله (والنصُّ يحوي أسماءَ منِ اشتركوا في بناءِ الكنيسةِ)

من الأسماءِ: شرحو بر تيمو – بر مر لقس (ومنها (مرقس) – شرحو بر سعدو

(ولنلاحظ هذه الواو التي بقيت في كلمات: ميرو – شيخو – سعدو دارجة إلى اليوم)

ثم نقشُ حرّان:

آثار كنسيّة

أنا شرحبيل بر كلمو بنيت ذا المرطور (إشارة الصليب) سنة ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعام (المرطور تعني باليونانية المشهد كما قرأها أستاذنا الدكتور محمد محفل).

ولا ننسى أنّ هذا النصَّ **مكتوبٌ على كنيسةٍ بحرّانِ اللجا** في جبلِ العربِ – (جبلِ حَورانَ)– سنةَ ٤٦٣م. تصبحُ ٢٧١م. بعد تصحيحِ سنةِ حربِ النبطِ. بسنة ٨٦ ق.م بدلاً من ١٠٦ ميلادية.

نقش أمِّ الجمالِ الثاني:

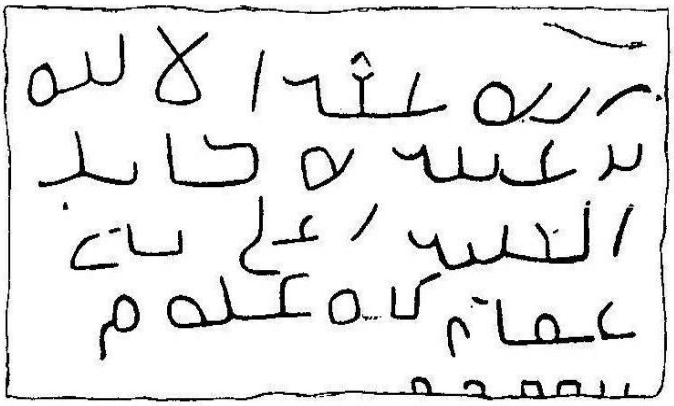

الله غفرا، لأُلَيْهْ بن عبيده كاتب العُبيد أعلى بني عمري تنبه عليه من يقرؤه.

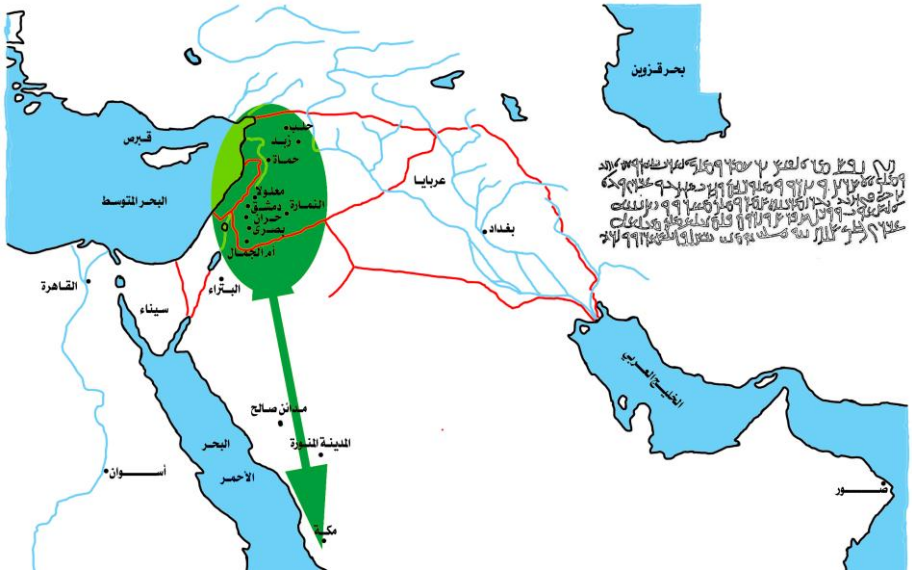

نعم، أقدمُ خمسةِ نقوشٍ لحرفِ الجزمِ العربيِّ وُجد في سوريا ليس سوريا الطبيعيةِ، بل سوريا (سايكس بيكو)، ولم نجدْهُ في الحجازِ ونجدٍ في ذاكَ التاريخِ. أي أنّ حرفَ الجزمِ (العدنانيِّ) المستعمل اليومَ انتقلَ من سوريا إلى الحجازِ.

وهل هذا معقول؟

نقول نعم: حيث قريش حسبَ الدلائلِ الآتية أتت منَ الشمالِ ولم تأتِ من الجنوب.

وطالما أنّنا تطرقنا للموضوعِ فسنوردُ شواهدنا:

١- اسمُ محمدٍ موجودٌ في أجاريتْ مع فعلِ حَمَدَ.

٢- لم تعرفْ قريشٌ إلاّ خمسةَ محمدينَ فهو نادرٌ.

٣- إنّ اللهجةَ العربيَّةَ العدنانيةَ (العربيَّةَ الفصحى) تحوي من الآراميةِ ٨٦٪ منْ مفرداتها، كما أنّ الآراميةَ تحوي منَ العامياتِ ١١.٢٪. (والآرامية في الشمال).

٤- إنّ العربيَّةَ العدنانيةَ تحوي منَ الكنعانيةِ قرابة ٩٠.٥ ٪. (والكنعانية في الشمال).

٥- إنّ العربيَّةَ العدنانيةَ تحوي من الأكّاديةِ بفرعيها الآشوريِّ والبابليِّ قرابة ٦٠ ٪ على غربتها وتأثّرها بالدّخيلِ الذي هو السومرية.

٦- إنّ العربيَّةَ العدنانيةَ لا تحوي أكثرَ منْ ٦٥ ٪ من العربيَّةِ السبئيةِ أو العربياتِ الجنوبياتِ. بمعنى آخرَ فإنّ اللهجةَ العربيَّةَ العدنانيةَ تمتُّ بصلةٍ إلى الشمالِ أكثرَ مما تمتُّ بالصلةِ إلى الجنوب.

٧- إنّ أسماءَ الأشهرِ القمريةِ: محرمٌ – صفرُ – جمادى١ – جمادى٢ – ربيعٌ١ – ربيعٌ٢ – رجبُ – شعبانُ – رمضان – شوال – ذو القعدةِ – ذو الحجةِ. تحوي ثمانيةَ أسماءٍ مناخيةٍ (والمناخُ شتاءً وصيفاً واضحٌ في الشمالِ أكثرَ منهُ في الجنوبِ) وأربعةَ أسماءٍ دينيةٍ. وإذا ما أجرينا المقارنةَ الآتية:

تشرين٢	كانون١	كانون٢	شباط	آذار	نيسان	أيار	حزيران	تموز	آب	أيلول	تشرين١
محرم	صفر	جمادى١	جمادى٢	ربيع١	ربيع٢	رجب	شعبان	رمضان	شوال	ذو القعدة	ذو الحجة
ديني	مناخي	مناخي	مناخي	مناخي	مناخي	ديني	مناخي	مناخي	مناخي	ديني	ديني
	اصفرار الأوراق					شهر التعظيم	عرفت المناطق الجغرافية الواحدة عدداً من أسماء الشهور ولم تكن أسماؤها موحّدة.				

الترتيب بعد إجراء النسيئةِ بين ربيعٍ وجمادى. راجع تفسير المنار للقرآن الكريم لمحمد رشيد رضا.

وهكذا نجدُ ثمانيةَ أشهرٍ تحملُ معنىً طبيعياً وهي: صفرُ – ربيعُ الأوّل– ربيع الثاني – شعبان – رمضان – شوال – جمادى الأوّلى – جمادى الثانية. وأربعةَ أشهرٍ تحملُ أسماءً دينيةً منها ثلاثةٌ سردٌ وواحد فردْ وهي: ذو القعدة – ذو الحجة – محرم، والفردُ هو رجب. ولما كانت الفصولُ الأربعةُ واضحةً في بلاد الشام وغيرَ واضحةٍ في شبه الجزيرةِ، مما اضطر أصحابَ هذه الأشهرِ إلى استعمالِ القمرِ لمعرفةِ المواقيتِ، فأُسقطت أسماء الأشهرِ المناخيةِ الشماليةِ على الأشهرِ القمريةِ في شبهِ الجزيرة.

٨- كثيرٌ منَ الأسماءِ الخاصةِ ككلمةِ عصفور تعطينا ما يرجّحُ لنا هذا الموضوع. فكلمةُ عصفور: **في الأكّادية**: إصّور.

وفي الأجاريتية: عصور.

وفي السريانية الآرامية: صفور.

وهكذا نجدُ كيف أنّ اللهجةَ العدنانيةَ ضمّت اللهجاتِ العروبيات الشماليةَ (الأكّاديةَ والأجاريتيةَ والسريانيةَ) في جذرها المركّبِّ الرباعيِّ (عصفور) المؤلّفِ من:

إصوروم	+	عصور	+ صفورو	= عصفـور
أكّاديـة		أجاريتية	سريانيـة	عدنانيـة

٩- نحن نعلمُ أنَّ قبيلةَ قريشٍ وافدةٌ إلى مكةَ وقد تقدّم عليها في الإقامة بها قبيلة جُرهمٍ، وأنّ معنى القبيلةِ هي الجماعاتُ التي قبلتِ التعايشَ مع بعضها لحماية نفسها، ومعنى [قريشٍ] من [قَرَشَ] أي جَمَعَ فهي مجموعٌ لأكثرِ الأطرافِ الشماليةِ ذاتِ اللهجاتِ المتعددةِ فأخذت أحسنَها وألّفت القبيلةَ [قريش].

١٠- كان لقصيٍّ زعيم قريشٍ بيتٌ دائمٌ في دمشقَ.

١١- رحلةُ الشتاءِ والصيفِ التجاريةُ كانت متأصلةً بقريشٍ فمعرفتها بالشمالِ كانت كبيرة.

١٢- اسمُ الشمالِ في العدنانيةِ من شمأل عاصمةِ (مملكةُ يادي الآراميةِ) الواقعةِ في شمالِ غربِ سوريا (لواء اسكندرون اليوم) وتدل على الاتجاه. أما اسمُ الشمالِ في اليمنِ فهي أشامن حيث كان اليمنيُّ يقفُ قبالةَ الكعبةِ باتجاهِ الشرقِ فيقول: [أيامن] أي الجنوبِ جهةِ اليمنِ، [أشامن] أي الشمالُ جهةِ الشام.

١٣- فالشمالُ في العدنانيةِ من شمأل وهي في شمال بلادِ الشام. وأشامن في اليمنيةِ من الشام. يقول امرؤ القيس:

فتوضِح فالمِقْراةِ لم يَعْفُ رَسْمُها لما نَسَجَتْها من جَنوبٍ وشَمْأَلِ

١٤- وأخيراً فإنّ حرفَ الجزمِ العربيِّ نجدُهُ في الشمال أيضاً ولا نجدْهُ في الجنوب، واسمُ عدنانَ وجدناه في الشمال ولم نجده في الجنوب.

١٢) الخط العربي الآرامي النبطي:

تاريخه: القرن ٤-٣ ق.م وحتى ١٠٦ م تقريباً تاريخُ ضمّ دولةِ الأنباط.

جغرافيته: شمال دمشقَ حتى الضمير وجنوباً حتى تبوكَ وغرباً حتى فرعِ دمياطَ (نيل مصر) وشرقاً حتى العراق.

نفسها دي، حمرة دي، بناه لها أذينة بعلها

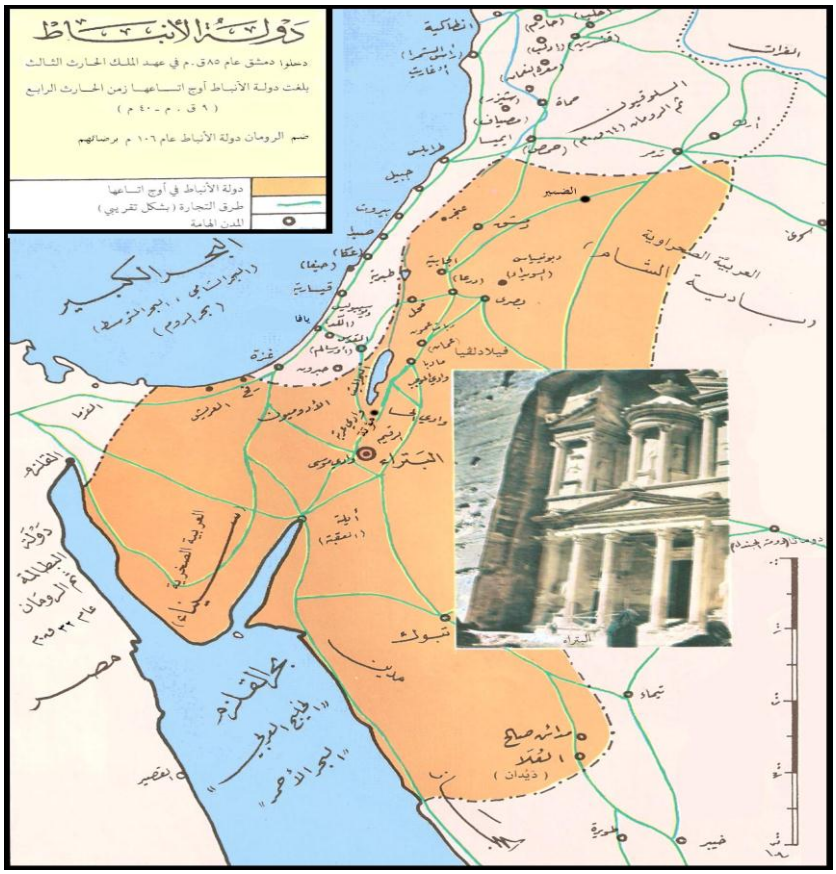

١٣) الخط الآرامي لمملكة عربايا:

عَرَفَتْ مملكةُ عربايا الآراميةُ التي تقعُ شمال بغدادَ وعلى وادي الثرثارِ وعاصمتُها مدينةُ الحضرِ ٥٠ ق.م ولغاية ٢٤٢م خطاً آرامياً آخرَ.

وأهمَّ ما في هذه المملكةِ: أنّ الآراميينَ سموا أنفسهم عرباً.

فكلمةُ عربٍ جمعُها في حالةِ النكرةِ عربين وفي حالةِ التعريفِ عربايا مثل:

دار – دارين – داريا حيث الألف (تلغي النون)

حصب – حاصبين – حاصبيا / راش – راشين – راشيا / قدس – قدسين – قدسيا/

وهنا: عرب – عربين – عربايا.

إذن الآراميونَ سموا أنفسهم عرباً، حين دخل الدخيلُ إلى أرضِ العربِ. أي أنتم أيّها الآراميّون في معلولا وبخعة وجب عدين (نعم أنتم عرب أصلاء).

أي من الناحية العلمية وليس العاطفيةِ أقولُ: العرب الآراميون (الأنباط + التدامرة + السريان الشرقيون + السريان الغربيون).

١٤) الكتابة السريانية الغربية (اليعقوبية) نسبة ليعقوب البرادعي:

الكتابةُ معروفةٌ.

تاريخها: القرن الثالث الميلاديّ تقريباً.

جغرافيتها: سوريا والعراقُ وجنوبُ تركيا.

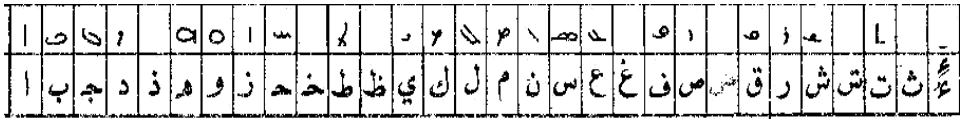

١٥) الكتابةُ السريانيةُ الشرقيةُ النسطوريةُ المعروفةُ بالسطرنجيليّة:

استعملها المسيحيونَ السريانُ الشرقيونَ وامتدت جغرافيتُها عَبرَ سوريا والعراقِ وإيرانَ وأفغانستانَ وباكستانَ والهندِ والصينِ.

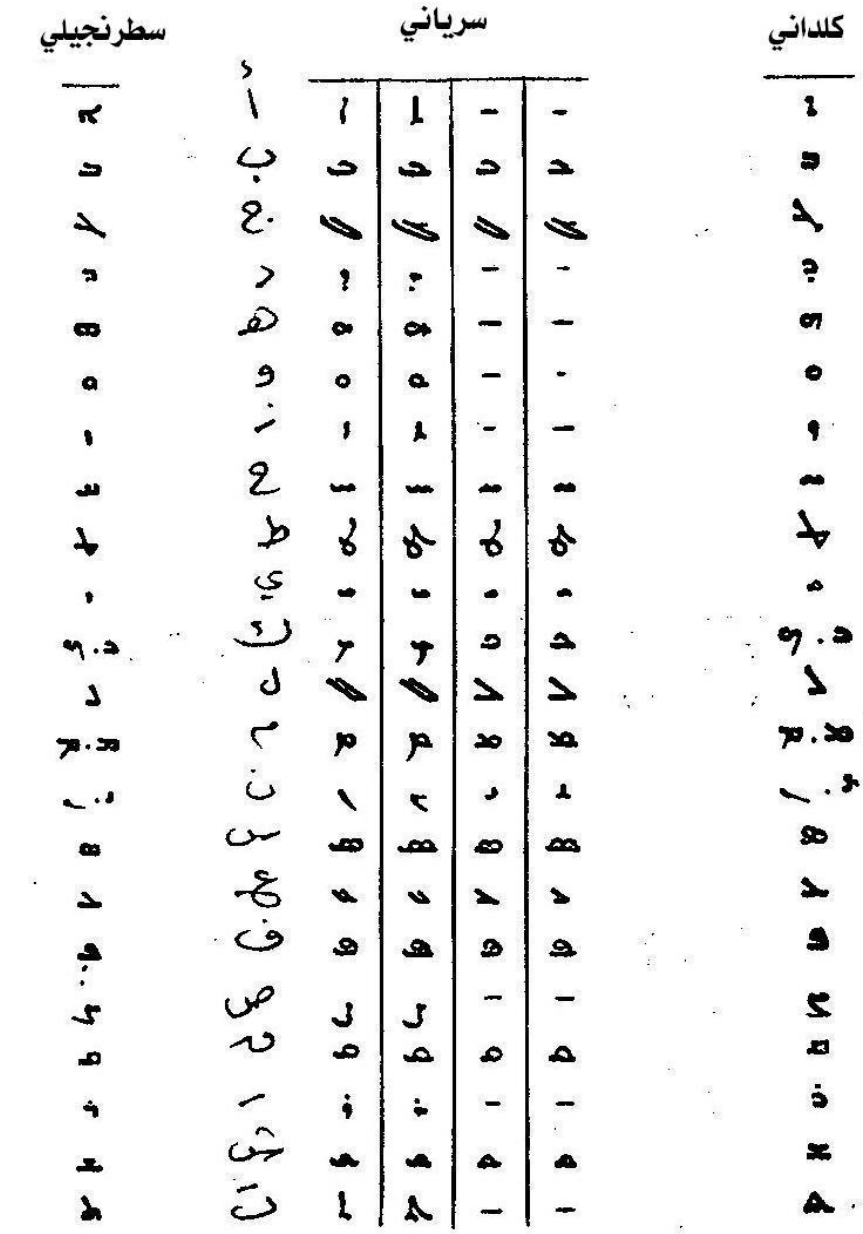

١٦) الكتابة المندائية وريثة الآراميين الكلدانيين:

وهي كتابةُ الصابِئة منْ يتطهرونَ بصبِّ الماءِ. واسمُ بيتِ العبادةِ (المسجدِ) يسمّى (المندى)، من فعلِ نادى.

تاريخها: القرن الثالث الميلادي تقريباً.

جغرافيتها: جنوب العراق.

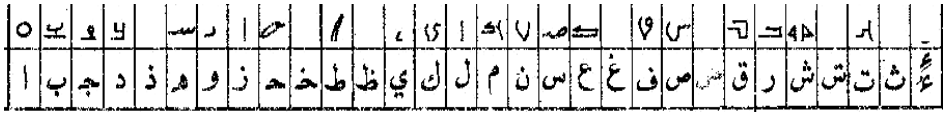

١٧) الكتابة المصرية القبطية:

تأثرت في شكلها باليونانية، تاريخُها القرنُ الثالثُ الميلاديُّ، جغرافيتها مصر.

١٨) الكتابة العبرية:

الحرف العبري المسمّى الخط الآرامي المربّع (زوراً وبهتاناً)							
א	ב	ג	ד	ה	ו	ז	ח
أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح
ט	י	כ ך	ל	מ ם	נ ן	ס	ע
ط	ي	ك	ل	م	ن	س	ع
פ ף	צ ץ	ק	ר	ש	ת		
ف	ص	ق	ر	ش	ت		

وهنا بيتُ القصيدِ:

كنا نقولُ إنّهُ لا وجودَ للحرفِ العبريِ المستعملِ اليومَ حتى القرنِ الثالثِ الميلاديِّ؛ لأنّ الخطوطَ المستعملةَ في منطقةِ بلادِ الشامِ هي النبطيةُ ومن ثمَّ التدمريةُ، وأصبحنا نؤكدُ، ألاَّ وجودَ للحرفِ العبريِ المستعملِ اليومَ حتى القرنِ السادسِ والدليلُ أنّهُ لم يَرِدْ هذا النوعُ من الخطوطِ بالبحثِ الأثريِّ الدقيقِ الذي قام به الأثريونَ المستشرقونَ والقسمُ الغالبُ منهم ذووا ميولٍ توراتيةٍ. وهذه الكتاباتُ المستعملةُ حتى القرنِ السادسِ ممثلةٌ بنقشِ زبد ذي الكتاباتِ الثلاثيةِ.

١) يوناني.

٢) سرياني.

٣) حرف الجزم العربي / المعلولي المستعمل حتى القرن الأول الهجري السادس ميلادي.

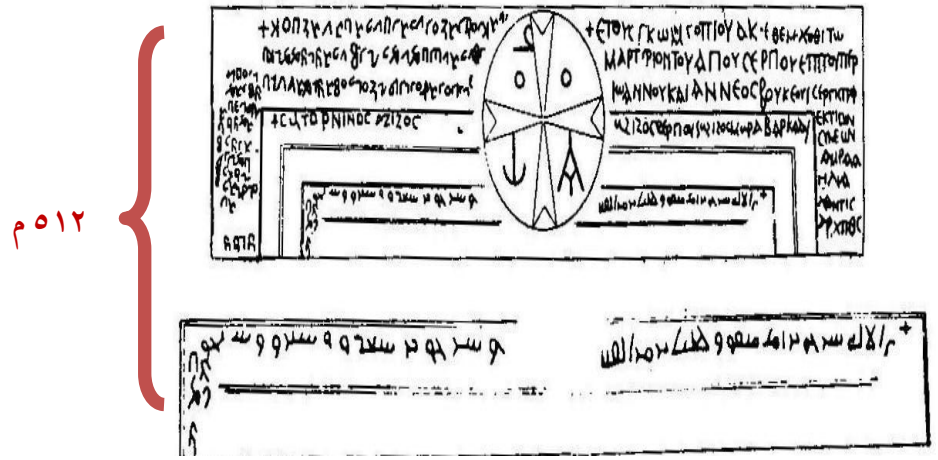

نقش زبد بين قن نسرين والفرات ٥١٢م / ٨٢٣ سلوقي

(قن نسرين: بالقرب من حلب)

فلو كانَ الحرفُ العبريُّ موجوداً لكُتبت به بعضُ النقوشِ.

أما من القرنِ السادسِ وحتى العاشرِ فبالنسبةِ لنا فإنّ العمليةَ ضبابيةٌ، إلا أنّنا على المستوى الشخصيّ لم نعثُرُ على شيءٍ مع أننا بحثنا واتصلنا بذوي الاختصاص أمثال: أ.د.أحمد شحلان أستاذُ العبريةِ في جامعةِ محمدٍ الخامسِ بالرباط.

لكنّه من المؤكّدِ لنا الآن أن الحرف العبري لم يعرف قبل القرن الثامن الميلادي (وليس قبل الميلاد)، حيث إنَّ أقدم نسخةٍ للتوراة موجودةٌ في العالم يعود تاريخها لـ / ٩٥٠م/ حسب ص(٢) من مقدمة الكتاب المقدس وص٧٦٢ من قاموس الكتاب المقدس. فلنتأمل ذلك.

إذن ماهي القصة !؟

١) نقرأ في الكتب ويقولون الحرفُ العبريُّ القديمُ.

٢) من المنطق أنْ يكونَ الحرف العبري هو أقدمَ من السرياني (المسيحي)، وأقدمَ من حرف الجزم العربي الذي كُتِب به القرآن الكريم. حيث المنطقُ يقول اليهوديةُ أولاً والمسيحيةُ ثانياً والإسلامُ ثالثاً.

هنا تأتي المغالطة والتزوير الصهيوني ..

نقول لقد كتب التاريخ القديم حسب الفكر التوراتي والفكر الإغريقي وأحياناً نجد تناغماً بينهما، فقد قسّموا لنا ساحلَ بلادِ الشّامِ إلى كنعانيٍّ جنوبَ صور تناغماً معَ الفكرِ التّوراتيِّ، وفينيقيٍّ شمالَ صورٍ تناغماً معَ الفكرِ الإغريقيِّ. ولا ننسَ أنَ صور هيَ أمُّ الممالكِ الكنعانيّةِ في المتوسّطِ من أُجاريتَ وقبرصَ وحتى إسبانيا وشمالِ إفريقيا.

وفي هذه العجالة لنحدد التزوير في الفكر التوراتي والاستشراقي الصهيوني:

١) يقولونَ: إنَّ التوراةَ كُتِبَتْ بالحرفِ العبريِّ القديمِ وهم يقصدونَ الحرفَ الكنعانيَّ الآراميَّ الذي أتينا إليه. وآخِرُ نسخةٍ كُتبتْ فيها التوراةُ النصُّ الآتي:

آخرُ نصٍّ توراتيٍّ وجدناهُ لدى إسرائيلَ ولفنسون في كتابهِ اللغاتُ الساميةُ:

القلم العبري القديم عند السامره

حرف كنعاني/ آرامي للتوراة

وليس الحرف العبري القديم

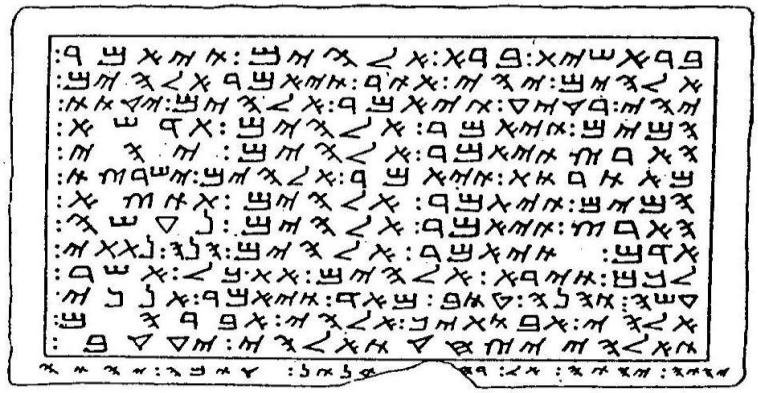

آيات من سفر التكوين بالحرف الكنعاني / الآرامي كُشف في مدينة نابلس بفلسطين وترجع إلى سنة ٢٥٩ م

نعم حتى إنّهم يزوّرونَ الذاكرةَ ولا يشيرونَ إلى مصادرِهم هذا الحرفَ الأصيلَ الذي عمّ المشرقَ حتى السِّنْدِ والمغربِ حتى الأطلسيِّ، نعم نسبوا الحرفَ الكنعانيَّ / الآراميَّ لهم وسمّوهُ الحرفَ العبريَّ القديمَ دون استحياءٍ (فلنراجع ما كتبهُ إسرائيلٍ ولفنسون [القلمُ العبريِّ القديمِ]).

٢) زوروا قراءةَ النقوشِ فهذا نقشُ الفرعونِ مرنبتاح ويقولون: إنّ اسم اسرائيلَ واردٌ فيه. أعدنا قراءةَ النقشِ فلم نجد اسم اسرائيلَ، بل وجدنا اسم مدينةِ يازور شرقَ يافا واسم بلدةِ يارينَ جنوبِ لبنانَ.

		تسعة
①	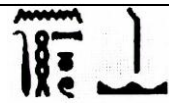	تحنو [الشعب في ليبيا]
②		خاتي [الحثيين]
③		كنعان [سوريا]
④	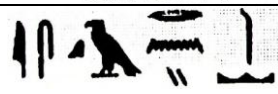	يسقراني [يقولون عسقلان]
⑤		جزر
⑥		ينعم
⑦		يازير = يازور [فلسطين]
⑧		يار = يارين [لبنان]
⑨		خال [يقولون جرار]

يقولون: يازير يار تعني إسرائيل؟؟

إذن ما هي «يازير» وما هي «يار». نجدُ في الخريطة المرفقةِ موقعينِ شهيرينِ:

١- [يازور] فهي قطعاً [يازير]، وقد وردت في بعض الكتابات باسم [هازور] أيضاً.

٢- [يار] هي [يارين] في جنوبِ لبنانَ الآنَ، وهي من المدن التي حرّرتها المقاومةُ اللبنانيةُ سنة ٢٠٠٠ من الاحتلال الصهيوني.

٣- أما اسم إسرائيلَ، فهو غيرُ واردٍ في هذا النقشِ، ثم إنّه لم يرد البتّةَ في نصوصٍ أخرى قبل نقشِ «مرنبتاح» هذا، ولا بعدَه في النقوشِ المصريةِ.

٣) زوروا نقشَ نفقِ سلوانَ الكنعانيَّ في القدسِ، وقالوا إنّهُ نفقُ النبيِّ حزقيالَ ولم نجد ذكراً لا لحزقيالَ ولا أية إشارةٍ للوجودِ العبريِّ في النفقِ.

نقش سلوان

كُشِفَ عنه بالقرب من بيتِ المقدسِ سنةَ ١٨٨٠م في قريةِ سلوان، حيث وُجد داخل مغارةٍ ينبعُ منها الماء تسمّى عين سلوان. وهذا نصّه وقراءته:

السطر الأول:

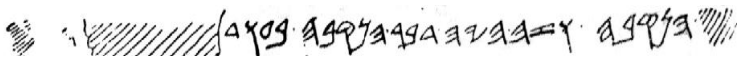

حرف الجزم: هـ ن ق ب هـ وز هـ هـ ي هـ د ب ر هـ ن ق ب هـ ب ع ور

تفريق الكلمات: ها نقبـــه وزا ها هـي ها دبرهـا نَقَّـابَـهْ بعـويّر

اللفظ المقترح: ها نقبـــه وذا ها هـي، ها دبّرهـا نَقَّـابَهْ، بعـوّيـر

التفسير: هذا النقب (النفق) وذا ها هي ها قد دبّرها نُقّابْ بعوّير (عَمَلَهَا حفّاري التكسير)

السطر الثاني:

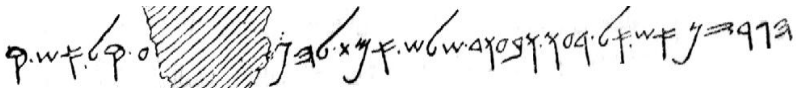

بحرف الجزم: هـ ج ر ز ن أ س أ ل رع وو ب غ ور س ل س أ م ت ل هـ ك [س م]ع ق ل أ س ق

تفريق الكلمات: **وها جرزٌ أسال رعو وبغور سلاس آمات له [ك...] سمع قول إسْـق**

اللفظ المقترح: وها جرزٌ (جرز=قطع) أسال (الإله) رع وبعمق ثلاث قامات (آمات)[أي بقامة ثلاث أشخاص] له سمع قول: إِسْقِ

التفسير: وهذا القطع أسال الإله رع (الإعانة)، وبغور (أو بعمق ثلاث قامات) له، سمع قول: اسقِ (من السقاية). **لاحظ تصريف الأفعال [أسال: فعل ماضي. سمع: فعل ماضي. اسق: فعل أمر. (تماماً كما هو في العربية العدنانية)].**

السطر الثالث:

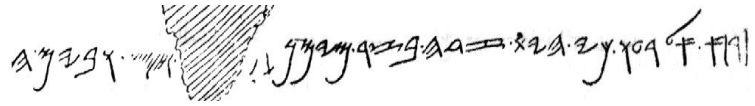

بحرف الجزم: ر أ أل ر ع و ك ي هـ ي ت ز د هـ ب ي د م د م ن ... وب ي م هـ

تفريق الكلمات: رأى ئيل رع و كي هي تزيده بيد مِ دمن ... وبيومه

اللفظ المقترح: رأى ئيل رع و كي هي تزيده بيد مِ دُمن ... وبيومه

التفسير: هذا ما رآه وعمله ئيل الراعي كي تزيد الخيرات بيد تخضرّ وبهذا اليوم

السطر الرابع:

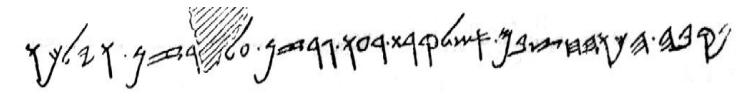

بحرف الجزم: ن ق ب هـ هـ ك وهـ ح ص ب م ا س ل ق دت رع

وج ر ز ن ع ل[ج]رز ن وي ل ي ك و

تفريق الكلمات: نَقَّابَهْ ها كوّه حصب مأسل قُدَّة رع وجرزن على جرزن ويليك و

اللفظ المقترح: نَقَّابَهْ ها كوّه حصب مأسل قُدَّة رع، وجرزٌ على جرزٌ ويليك و

التفسير: فإن النُقّاب (الحفّارين) وصلوا إلى نافذة كلها أحجار (لكنها كانت) مسيلاً للماء قدّه وقطعه الإله رع. حيث حفرٌ على حفر ثم (يأتيك) وتليك

السطر الخامس:

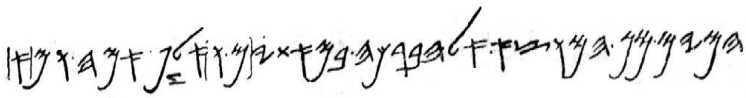

بحرف الجزم:

ه م ي م م ن ه م وض ا ا ل ه ب ر ك ه ب م ا ت ي م وا ل ف ا م ه وم ا [ت]

تفريق الكلمات:

ها ميّيم منها موضأ إلى ها بركه بمائتيم وألف آمه ومئة

اللفظ المقترح:

ها ميّيم منها موضأ إلى ها بركة بـ مائتيم و ألف آمة ومئة

التفسير: هذه المياه منها مكان وضوء إلى تلك البركة بمئتين وألف قامة (من جانب) ومئة

السطر السادس:

بحرف الجزم:

ت ا م ه ه ي ه ج ب ه ه ص ر ع ل ر ا س ه ح ص ب

تفريق الكلمات:

آمه ، هي ، ها جبّها ها صُرَّ على رأسها حصب

اللفظ المقترح:

آمة هيَ ها جبّها، ها صُرَّ على رأسها حصب

التفسير: قامة (من الجانب الآخر) وهذه الأنفاق التي جبّها وقد صرَّ على رأسها [أي تكوّم على رأس هذه الأنفاق (في بداية الحفر)] أكوام من الحجارة

٤) قالوا إنَّ اسمَ أورشليمَ ظهرَ في نصوصِ اللعنِ المصريةِ فلمْ نجدْ أورشليم، بل وجدنا اسمَ الشامِ فلا لامٌ ولا راءٌ في النقشِ.

أُ شـــام م

فإذا كانت أورشليم فأين الراء وأين اللام.

٥) زوروا قاموسَ جزنيوس المسمى:

LEXICON MANVALE HEBRAICVM ETCHALDAICVM (IN VETERIS TESTAMENTI LIBROS)

أي القاموسَ (العبريّ – الكلدانيّ) اللاتينيّ للعهدِ القديمِ

وأخيراً وليس آخراً، لقد ألّفوا الحرفَ العبريَّ في القرنِ الثامنِ الميلاديِّ على أقصى حدٍّ، أقدمَ نسخةٍ للتوراةِ (القرنِ العاشرِ الميلاديِّ كما أسلفنا). ألّفوا هذا الحرفَ وسمّوهُ على مرِّ الزمنِ:

- الحرفَ العبريَّ.
- ثم أطلقوا عليهِ الحرفَ العبريَّ المربعَ.
- ثم أطلقوا عليه الحرفَ الآراميَّ المربعَ زوراً وبهتاناً ودرّسوا كافةَ نقوشِ الأرضِ منْ مقطعيةٍ (عراقيةٍ ومِصريةٍ)، درّسوها بالأبجديّةِ العبريةِ في كافةِ جامعاتِ العالمِ معتمدينَ على نقطةٍ واحدةٍ هي أنّ الدينَ اليهوديَّ أولاً والمسيحيَّ ثانياً والإسلاميَّ ثالثاً، إذنْ منَ البدهيِّ أنْ يكونَ حرفُ التوراةِ هوَ الأقدمَ.

ملامحُ في فقهِ اللهجةِ الآراميّةِ المعلولية:

١- حافظت على الألف بآخر الكلمة وهي [أداة التعريفِ الآراميةِ]: البلدة = بلوتا، لكنها بواقعها اللغوي هي ألف إطلاق وليست أداة تعريف.

٢- عرفت أداة تعريف وهي اللام: لام الإضافة [ذنب ل خلبا] (أي ذنب الكلب).

٣- لا نجدُ في لهجةِ معلولا صوتَ الدالِ نهائياً بل نجدُ إبدالاً لها:

١) أُبدلت إلى تاءٍ مثل بلوتا = بلودا / وادي = ويتي = ويتيا

٢) أُبدلت إلى ذالٍ: إيد بمعنى يد فأصبحت إيذا.

٤- التاءُ المربوطةُ أُبدلت إلى ثاءٍ.

ظمة بمعنى ضمة أصبحت ظمثا، لعبة = لعبثا.

٥- التاءُ الممدودةُ أصبحت تش.

صمت أصبحت صمتشا.

٦- القافُ أُبدلت إلى كافٍ.

قلم = كلم = كلما (أداة كتابة). سقي = شِيكيا

٧- الكافُ أُبدلت إلى خاءٍ كتاب = خثوبا، خثوب ، كلب = خلبا

٨- فيها لامُ الإضافةِ، وهي للتعريف.

ذنب الكلب أصبحت ذنب لـ خلبا

يقول الأستاذ جورج زعرور - وهو من معلولا - إنّ المفرداتِ الآراميةَ في معلولا تستطيعُ أنْ تُرجعَنَا إلى اللهجةِ العربيَّةِ العدنانيةِ.

٩- ثُورتْ = ثورتشا

ثورة تعني بقرة وكذلك في آراميةِ الألفِ الثانيةِ قبلَ الميلادِ في (نقش السّفيرةِ).

جاءَ في اللعناتِ:

وسبع شورات يهينقن عجل وألاّ يشبع

أي: وسبع بقرات يرضعن عجلاً وألاّ يشبع

وسبعُ شآن يهينقن أمور وألاّ يشبع

أي: وسبع نعاجٍ يُرضعن حملاً وألاّ يشبع

وسبع ميهينقين يمسحن سديهن ويهينقن غليم وألاَ يشبع

أي: وسبعُ مرضعاتٍ يمسحن أثداءهنَّ ويرضعن غلامُ وألاّ يشبع

هذه آراميّةُ الألفِ الثانيةِ قبل الميلادِ.

١٠- صيغةُ الجمعِ الآرامية القديمة في حالةِ النكرةِ هي الياءُ والنونُ للمذكّرِ جسر = جسرين، دار = دارين لكننا نجدُها في معلولا بالواوِ الممدودةِ إشباعاً، كتاب = خثوبا، وجمعها خثابوو، وهذه صيغةُ جمعِ الواوِ. **صيغةُ جمعٍ أكّاديةٍ وليست آرامية.**

١١- صيغة الجمع الآرامية القديمة في حالة النكرة هي:[ا ت] للمؤنث، رويسة=رويسات، ونجدها في المعلولية بالواو والثاء والألف : وثا، مدرسة = مترستا وجمعها مَترْ سوثا

١٢- صيغةُ الفعلِ الماضي باللهجة الآرامية المعلولية **هي صيغةٌ أكّادية.**

١٣- تصريف الفعل بالآرامية القديمة هو مثيله في العربيَّة العدنانية أي **أحرفَ أنيت:**

العدنانية	الآرامية	المعلولية
كتب	كتب	اخثب **(صيغة أكّادية)**
اكتب	اكتب	عن خوثب
نكتب	نكتب	عن خوثبين
يكتب	يكتب	عم خوثب
تكتب	تكتب	عم خوثبا
اكتب	اكتب	خثوب

كتابي	كتابي	خثوب
كتابك	كتابك	خثوبخ
كتابه	كتابه	خثوبه
كتابهم	كتابهم	خثوبُون
كتابهن	كتابهن	خثوبين
كتبنا	كتبنا	خْثُوْبَيْح

إشاراتُ التشكيلِ:

في تعليمِ الآراميةِ المعلوليةِ في معهدِ اللغةِ الآراميةِ في معلولا اليومَ، نستعملُ اليومَ المصطلحَ العبريَّ الذي لا يمتُّ للآراميّةِ المعلوليةِ، ولا يمتُّ للآراميةِ القديمةِ بصلة.

فيقولون:

العدنانية	العبرية	البديل المعلولي
الفتحة	بتاح	فتحثا
الضمة	قبوص	ظمثا
الكسرة	سيجول	شيبرتا (أكّادية)
السكون	شِفاناح	صمتشثا

وهناك مصطلحاتٌ أخرى للإمالة وغيرها.

ويقولُ بعضهم: إنّ هذه الحركاتِ الأخرى غيرُ موجودةٍ بحرفِ الجزمِ ونظامِ الكتابةِ العدنانيِّ؛ لذلك فإنّ الحركاتِ العبريةَ هي أكثرُ دقّةً. نقولُ:

عند فقهاءِ اللغةِ: اللغةُ تُعلّمُ بالسَّماعِ والتِّرادِ، ولا تُعلّمُ بالكتبِ. فالسماع أساسُ التّعليمِ.

١) السَّماعُ بالأذنِ.

٢) الإعادةُ باللسانِ.

٣) وأما الكتابةُ فهي تأتي بالدرجةِ العاشرةِ فالكتابةُ للتذكيرِ ليس إلا.

يقولُ ابنُ جني: (العبرةُ في النطقِ لا بالخطِّ).

بين يديَّ كتيّبٌ حوى جملاً مقارنةً للمعنى نفسِهِ، في العدنانيةِ وما يقابلُهُ في المعلوليةِ وما يقابلهُ في العبريةِ.

فنجدُ أنّ الصلةَ بين العدنانيةِ والمعلوليةِ كبيرةٌ جداً، ونجدُ أنّ العبريةَ بَعُدَتْ عنْ العدنانيةِ والمعلوليةِ لاستعمالِهم لغةَ اليدشِ (ألمانية/ بولونية/ روسية).

وفي **السّبرِ العشوائيّ**[1] وجدنا النّسبَ الآتية:

المعلوليّة فيها من العدنانيّة: ٧٠.٥ ٪

المعلوليّة فيها من العبريّة: ١٣ ٪

المعلوليّة فيها من كلماتٍ غيرِ موجودةٍ بالعدنانيّةِ ولا بالعبريّةِ ١٦.٥ ٪.

تعليم المعلولية بالحرف العبري سياسياً:

١) شكلُ الحرفِ هو الهويةُ، ولو أجرينا دراسةً إحصائيةً حول تعليمِ المعلوليةِ بالحرفِ العبريِّ اليومَ لكانت الأكثريةُ ستقولُ: إنّ المعلوليةَ وثيقةُ الصلةِ بالعبريةِ وهذا غيرُ صحيحٍ منَ الناحيةِ العلميةِ اللغويةِ.

٢) خوفُنا هذا سيقودُنا إلى أنْ يكونَ لدينا في سوريا مشكلةٌ سياسيةٌ لغويةٌ اجتماعيةٌ كما هو حاصلٌ في المغربِ العربيِّ والمشكلةِ **الأمازيغيةِ**. أي نخافُ أنْ تصبحَ معلولا وبخعةُ وجبعدين كالمشكلةِ الأمازيغيةِ الثانيةِ في الوطنِ العربيِّ.

---

(١) هنا كان السبر عشوائياً، أما النسب الباقية التي وردت في هذه المحاضرة فهي نسب فعلية أُخذت من القواميس: الأجاريتية والكنعانية والآرامية.

٣) يقول دوبون سوميير أستاذُ أستاذِنا الدكتورِ محمد محفل في كتابهِ الآراميون.

[إن الآراميةَ لها صلةٌ بالكنعانيةِ والعبريةِ، لكنها وثيقةُ الصلةِ باللغةِ العربيَّةِ (العدنانيةِ)].

٤) لنتصوّرْ ماذا يجري في معلولا اليومَ:

أ- التعليمُ بالحرفِ العبريّ.

ب- اليافطات والإعلانات بالحرف العبري.

ج- شواهد القبور بالحرف العبري.

د- الجامع كتب عليه بالحرف العبري.

هـ- الوشم بالحرف العبري [تحدياً].

و- وقيل لنا أنّ بعض اليافطات في دمشق أصبحت بالحرف العبري.

ويتزامنُ ذلكَ مع شطبِ إسرائيلَ لحرفِ الجزمِ العربيِّ واعتمادِ الحرف العبريِّ لأسماءِ المدنِ والقرى في فلسطينَ المحتلّةِ.

لذلك نقترحُ على السيدةِ الدكتورةِ نجاح العطار نائبِ رئيسِ الجمهوريةِ للشؤونِ الثقافيةِ تأليفَ لجنةٍ برئاسةِ مجمعِ اللغةِ العربيَّةِ تضمُّ أعضاءً منَ المعهدِ العالي للغاتِ في جامعةِ دمشقَ لأخذِ القرار المناسبِ.

ولا ننسَ أنّ اللهجةَ العربيَّةَ الآراميةَ المعلوليةَ كُتِبَتْ بحرفِ الجزمِ العربيِّ:

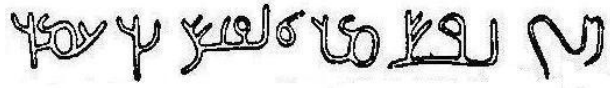

تي نِفْشْ مرؤُلِقيس بر عمر

تي: معلولية تعني هذه.

نِفْشْ: معلولية تعني نفس.

مرؤُ: اسم علم من بلاد الشام.

لـ: لام الإضافة المعلولية. (للتعريف).

قيس: اسم علم من بلاد الشام.

بر: معلولية آرامية تعني ابن، برة = ابنة، ومنها برة بني المصطلق زوجة الرسول □.

عمر: اسم علم.

وليكن شعار معهد تعليم العربيَّة الآرامية في معلولا هذا النقش:

معهد تعليم اللهجة العربية الآرامية القلمونية

أيها الإخوة:

أنهي هذه المحاضرةَ وقلبي وفكري يملؤهما الخوفُ، ويحضُرني هنا قولُ نصرِ بن سيَّار للخليفةِ مروانَ بنِ محمدٍ آخرِ الخلفاءِ الأمويينِ حينما كان في إيرانَ وشعرَ بنشاطِ أبي مسلمٍ الخرسانيِّ فأرسل له هذينِ البيتين:

أرى خِلَلَ الَّرمادِ وميضَ نارٍ يكادُ أنْ يكونَ لهُ ضِرامُ

فإنَّ النّارَ أوّلُها دُخانٌ وإنَّ الحربَ أوّلُها كلامُ

ويحضرني قولُ الشاعرِ في الحقبةِ الفاطميةِ في مِصرَ زمنَ الخليفةِ المستنصرِ باللهِ الفاطميِّ حينما بدأ النشاطُ اليهوديُّ باستعمالِ الحرفِ العبريِّ وبدأتْ كتابةُ العربيةِ بالحرفِ العبريِّ (للتعميةِ) (وثائقُ الچنيزا المصريّة العبريّة منها). وتسلّمَ الوزيرُ أبو سعيدٍ التستريّ اليهوديُّ الوزارةَ لدى الخليفةِ الفاطميِّ فقال الشاعر:

يا أهلَ مصرَ إنّي قد نصحتُ لكمْ تهوّدوا قد تهوّدَ الفلكُ

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

العلـوم الحيـوية واللغـوية

آفاق ومنهجيات

أ.د. أنور محمد الخطيب

عضو المجمع(*)

الـمُجمـل:

تمهيـد

أولاً: صقل المرآة اللغوية

ثانيًا: القوة الفكرية الإنسانية

ثالثًا: اتساع آفاق المعرفة الإنسانية

رابعًا: مكتشفات التجارب والقياسات الإنسانية

خامسًا: تطابق مذاهب العلوم الحيوية واللغوية

سادسًا: الانطلاقة العلمية التجريبية

سابعًا: بيولوجية العلوم اللغوية

ثامنًا: هدف دراسة اللسانيات

تاسعًا: السياسة العلمية اللغوية الحديثة

عاشرًا: التعريف الحديث للحياة واللغة

(*) محاضرة ألقيت في قاعة المحاضرات في مجمع اللغة العربية بتاريخ ٣ ذي القعدة / ١٤٣٠هـ الموافق ٢١ تشرين أول / ٢٠٠٩م.

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرحمن علم القرآن... خلق الإنسان... علمه البيان...)

تمهيد

لقد ابتليتُ بمرض العلم والعلوم... وعشت سنن الحياة ونظمها... وتمتعت بجمال اللغو واللغة وتذوقت البلاغة... كم أحب اللغة!... وكم أنا عاجز عن السيطرة عليها... إنها بسيطةٌ ككل أنثى!... وإنها معقدة... هي كالطبيعة والحياة لا يمكنك كشف أسرارها إلا إذا عشت في أحضانها... لو أني عرفت الحب خطيرًا ما أحببت... ولو أني عرفت البحر عميقًا ما أبحرت... ولو أني عرفت خاتمتي ما كنت بدأت!...

ما كان لي خيار العمل في مجمع اللغة العربية... ولكن شكرت لرجاله حسن ظنهم... وجميل اعتقادهم... وأقول لهم ما قاله سلفي شاعر دمشق الكبير شفيق جبري رحمه الله... (لقد فصَّلوا لي بردًا ضافي الحواشي... سابغ الأذيال... وتقدموا إلي في لُبسه... فأدركتني الحيرةُ في أمري...فإما أَن ألبِسَ هذا البرد فأعْثُرَ فيه... وإما أن أخلع فأكْفُرَ نعمة المجمع عليّ... ولكني سألبَسُه !... فإن عَثَرْتُ فيه فلست بأول رجلٍ زلت به قدمه... وما هذا الرداء الذي سأرتديه إلا مِطْرَفَ اللغة الذي نسجته الأيام... وبالغت في تطريزه الدهور...فازداد رونقًا على تعاقب السنين... وتضاعفت بهجتُه... فانبسطت جوانبه فوسع أممًا ذهبت بين سمع الأرض وبصرها... لقد تضمنت اللغة عبقرية العرب... واشتملت على خشونة بداوتهم... ورقة حضارتهم... وتمثلت فيها خواطر العرب

وعلومهم ومنظومُهم ومنثورُهم في قديم الدهر وحديثه... فهي المرآة التي إذا نظرت فيها أدركت فضل العرب وعلمت بمبالغ عقولهم ومقادير أحلامهم... إلا أنه لا بدَّ لهذه المرآة من صقلٍ من حين إلى آخر... لأنَّ عقول الناس قد امتدت آفاقُها... فاهتدت إلى ما لم يهتد إليه الأولون... فإذا أحببنا أن يكون لمجمعنا فضل، . فلنجتهد في صقل مرآة اللغة... حتى تتراءى فيها موضوعات هذا العصر بمجامعها).

أولاً: صقل المرآة اللغوية: إن صقل المرآة اللغوية لا يمكن أن يجري بالعودة إلى التراث المعماري والأوابد!... فاللغة هي كامل التراثِ الحي في قديمه وحديثه... هي مستودع القيم... ووعاء الروح... وذوب العبقرية... حروفها ثروتنا الأولى... وأوزانها وتفعيلاتها انعكاساتٌ لأنماط سلوكنا... وفي منثُورها ومنظُومها روحُ أمتنا العربية كلِها من محيطها إلى خليجها... فيها أفكارُنا وأفكارُ أجدادنا... وأفراحُنا وأفراحُهم... وأعمالنا وأعمالهم... وآلامنا وآلامُهم... ففي الفصيح القديم صفاء البادية وبساطة الخيمة وقوة الشكيمة والعزيمة... وفي العاميِّ الحديث تقطع الأوصال وتفريق الاستعمار... فيها آثار الهواء النقي في صدور أجدادنا والنسيم العليل الذي شمه أسلافنا... وفيها الهواء السخامي الملوَّث الذي نستنشقه اليوم... ليَخْطُر ببالك أن كلَّ كلمة من كلماتها تقابلها فكرةٌ من الأفكار التي أبدعتها طائفةٌ من الناس لا يُعلم عددهم... وعاطِفَةٌ من العواطف التي لا يُقَدَّرُ مداها... ففي هذه اللغة لحمُ الوطن... والبشر... ودَمُهُما... ورُوحُهُما.

ثانيًا: القوة الفكرية الإنسانية: لقد أخذ هذا الإنسان على نفسه، مذ وجد على سطح هذا الكوكب، التساؤل عن أبسط المواضيع وأعقدها: كيف يحيا؟ وكيف يموت؟ وما هي الحياة؟... وما هو الموت؟... كيف يتعلم وما هو العلم؟... كيف يلغو وكيف يتكلم وما هي اللغة؟... كم من البساطة: العيش والتعلم والتكلم وكم من الإعجاز في كشف قوانين هذه المَقُولات!... (ليس في الفن حقيقة، ... ولا ينبغي أن نفتش عن الحقيقة في الأدب الذي لا يصح موضوعًا له غير الجمال... الحقيقة في العلوم : أناتول فرانس).

إن قوة الإنسان في عقلهِ وعلمهِ ولغتهِ وسلوكِه لا في غريزته وفيزياء جسمه،... فهو مخلوق غير متخصص فيزيائيًا ولا كيميائيًا حتى ولا عضليًا أو عصبيًا: فالخُلْدُ أبرع منه في الحفر،... وكذا الحصانُ في الجري،... والعصفورُ في الطيران،... والسمكة في السباحة،... إلى آخر ما هنالك... إن ما يَلْفِتُ النظر في بنية هذا الإنسان ضَعْفُ جسمه وقُوةُ عقله وقدرته على العيش في أرض يتضور فيها الماعزُ جوعًا،... وفي حرارة يتلظى فيها العظاء ويتجمد فيها الطير... إنه مخلوق عجيب... واسع القدرة على التكيف...والاستئداب بآداب الوسط الذي يعيش فيه أو يحيط به... إنه من روح الله وعلمه وعقله: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرًا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ [ص:٧١- ٧٢]... هذا هو الوعد الحق... فلن يساور نفوسنا أي شك في نصرتنا... في صقل مرآة لغتنا حتى تتراءى فيها موضوعات هذا العصر الذي لن يرعبنا بالأربعين ألف فكرة أو كلمة تولد في السنة الواحدة مسلحين بقوله تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ۞ والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ۞ ما نَفِدَتْ كلمات الله ۞ إن الله عزيز حكيم﴾ [لقمان: ٢٧].

ثالثًا: اتساع آفاق المعرفة الإنسانية: لقد اتسعت آفاق المعرفة الإنسانية في العلوم عامة... وفي العلوم الحيوية خاصة التي نهضت بعد كبوة طال أمدُها... فأصبحت رائدة العلوم بعد النصف الثاني من القرن العشرين وإن التقدمَ الذي أحرَزَتْهُ قد أَثَّرَ في العلوم اللغوية... أما مجامعنا... لا بل وشعوبنا ففي غفلة عن هذا الأمر.

لقد اهتدى إنسان هذا العصر إلى ما لم يهتد إليه الأولون... ففي البداية كانت الكلمة... وكان المفتاح بقوله تعالى اقرأ أي تعلم التجريد... وكل ما نقرأ مُجردات واقرأ في كتاب الله المسطور... واقرأ في كتب الكون المنظور... فاكتفى الشرق حاليًا في قراءة الكتاب المسطور، وترك للغرب قراءة الكتاب المنظور فتفجرت ينابيع المعرفة الكونية فتقدم الغربُ... وكبا الشرقُ... بحث الإنسان عما هو قبله وشغل بالتفكير بمصيره... وبما يأتي بعده !... شغف بالخلود... فوعدهُ الله للمتقين!...

وتمثلت المرحلة الثانية بالدعوة إلى التجريب بقوله عز من قائل: «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق»... إنه قال لنا إنه خلق الإنسان من صلصال كالفخار... وخلق الجان من مارج من نار... ولكنه طالبنا بالنظر والبحث في بداية الخلق فكُشِفَ للإنسانية الغطاء، وأصبح بصرها اليوم حديد

رابعًا: مكتشفات التجارب والقياسات الإنسانية: كشفت الدراسات والقياسات الإنسانية تواريخ مذهلة نبرز ومضات منها: فقبل سبعة ملايين وثلاثة عشر مليار سنة (١٣.٧ مليار سنة) خُلِقَ الكون من الانفجار الأعظم.

وقبل ستة ملايين وأربعة مليارات سنة (٤.٦ مليار سنة) تكونت الأرض.

وقبل خمسة ملايين وأربعة مليار سنة (٤.٥ مليار سنة) تكونت الشمس.

وقبل أربعة ملايين وأربعة مليار (٤.٤ مليار) سنة تكون حساء الرنا RNA.

وقبل سبعة ملايين وثلاثة مليار (٣.٧ مليار) سنة تكون الدنا DNA.

وقبل خمسة ملايين ومليارى (٢.٥ مليار) سنة تكونت بداءة – طلائعية النوى Procaryotae - Archeae .

وقبل مليوني ومليار (١.٢ مليار) سنة تكونت حقيقيات النوى (اوكاريوت) وانفصل عالم النبات عن عالم الحيوان

وقبل خمسين وخمسمئة مليون سنة (٥٥٠ مليون) رسمت طريق العالم الحيواني المعاصر وعلى رأسها الإنسان.

وقبل خمسين ومئتي ٢٥٠ ألف سنة خلق الإنسان الماهر–هومو هابيليس وحجم جمجمته ٧٥٠ سم٣.

وتلاه قبل خمسين ومئة ١٥٠ ألف سنة خلق الإنسان المنتصب – هومو ايريكتوس – وحجم جمجمته ١٠٠٠ سم٣.

ثم قبل مئة ألف ١٠٠ ألف سنة خلق الإنسان العارف – هومو سابيانس وحجم جمجمته ١٤٠٠ سم٣.

﴿هل أتى على الإنسانِ حينٌ من الدَّهر لم يكنْ شيئًا مذكورًا ۞ إنَّا خلقنا الإنسانَ من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا ۞ إنَّا هديناه السبيلَ إمَّا شاكرًا وإمَّا كفورًا﴾ [الإنسان:١ – ٣].

عمر أبجدية أوغاريت في رأس شمرا، شمال اللاذقية، وبيبلوس (جبيل) في لبنان ٥٠٠٠ سنة ق.م.

وعمر الكتابة المسمارية cuneiform writing المقطعية التي ابتدعها الأكاديون ٤٠٠٠ ق م.

وفي القرن السابع الميلادي بدأ انتشار اللغة العربية حتى القرن الحادي عشر، فسيطرت على العلوم المتقدمة خلال ٤٠٠ سنة في الحقبة الواقعة بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر، فالعربية كانت لغة العلوم من الأندلس حتى حدود الصين...

وفي القرن الثامن عشر بدأت الحضارة الصناعية...

وتبعتها الحضارة التكنولوجية في منتصف القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين... التي يخشى البعض غزوها الاصطلاحي...!

ليَخْطُر ببالك بعد هذا العرض السريع أن تتصور قدرة هذا العقل الأعلى الذي نفخ في هذا الإنسان من روحه... وعلّمه الأسماء كلَّها ثم عرضهم على الملائكة فقالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا... أفكار وأفكار لا يعلم عددها... وعواطف وعواطف لا يعلم مداها... كامنةٌ في هذا القاموس المحيط البحر الذي يخشى العربي اليوم ركوبه،... فليس لديه حتى اليوم معجمٌ علميٌّ أو لغويٌّ أو أدبيٌّ أو تقنيٌّ يضاهي المعاجم الأعجمية... فإذا طلب تعريف الحرية أو التنمية... أو القاعدة...فسَّرتها له المعاجم الأعجمية ولم تحقق طلبه المعاجم العربية من المحيط إلى الخليج!...

الخلاصة المستمدة من المرحلة التجريبية: قبل اللغة لم يكن الإنسان شيئًا مذكورًا... وبدون اللغة لن يكون شيئًا مذكورًا ففي التِّقنيات التي أبدعتها الإنسانية تجسدت حبال

الحياة... وسمت إلى العلم... وارتقت إلى الفلسفة وعرجت إلى الدين ﴿إنَّما يخشى اللهَ من عبادِهِ العلماءُ﴾... فالعلم هو الذي عرَّف الإنسانية مسيرة خلق الكون. وبالعلم تميّز السراء من الضراء،... والصحة من المرض... والسعادة من الشقاء... والتقدم من التخلف... وفي اللغة تكتب صفحات خلود الفكر الإنساني...

وبعد القراءة التجريدية... والتجريب الميداني... كانت المرحلة الثالثة بدعوة الإنسان إلى رؤية الآيات والقوانين والسنن الإلهية بقوله جل وعلا: ﴿سنريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهم﴾.

فالعلوم الحيوية واللغوية صنوان نابعان من عين واحدة وكلٌّ تقدم في أحدهما يتبعه تقدمٌ في الآخر: فاللغات كجميع المخلوقات تولد وتنمو وتتطور وتتفاعل مع بيئتها فتيةً يافعةً متحولةً من حال إلى حال،... وتقترِض وتُقرِض من محيطها الميت أو الحي... وتتأثر وتؤثر ثم تشيخ وتعجز وتموت. إن المسيرة التكوينية البيولوجية واللغوية بطيئةٌ... عريقةٌ... صابرةٌ... متضافرةٌ... ﴿ألم ترَ كيفَ ضربَ اللهُ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبة ۞ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السَّماء تؤتي أُكلَّها كل حينٍ بإذن ربها ۞ ويضربُ اللهُ الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ [إبراهيم: ٢٤ –٢٥].

خامسًا: تطابق مذاهب العلوم الحيوية واللغوية: يذهب علماء البيولوجية في تفسير الحادثات الحيوية ومنها اللسانيات واللغات ثلاثة مذاهب رئيسة:

أ) مذهب الحيوية vitalism أو التَوْقِيفِية التي لا تُعلَّم إلا بالوحي أو بالقوى الخارقة: وهو تيار فكري مثالي يُرجع التفاعلات الحيوية في الكائنات الحية ومنها اللسانيات واللغات إلى قوة حية توقيفية مصدرها الخالق عز وجلَّ، تطلق على هذه القوة أسماء مختلفة منها: القوة الحيوية vital force والمبدأ الحيوي vital principle وروح الحياة vital spirt ، ومرد تلك الأفكار إلى أفلاطون وأرسطو المؤمنَين بقوة الروح المهيمنة على عالم الأحياء. يعتقد أصحاب هذا المذهب بوجود روحٍ في الكائنات الحية تُمكنها من

إجراء التفاعلات الحيوية، وكذلك اللسانيات واللغات عطاء من الخالق. ﴿ويسألونكَ عن الرَّوْح، قلِ الروحُ من أمرِ ربي ، وماأوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥] يُراد بذلك أن علم الإنسان عاجزٌ عن فهم المسيرة الصحيحة لطريقة حياة الأجسام.

لقد تحدى أصحاب المذهب الحيوي العلوم الكيميائية وقالوا بعجزها عن تقليد صنع المنتجات الحيوية!... وقد هُزم هذا المذهب شر هزيمة عندما حوَّل في المخبر الكيميائي الألماني فوهلر فروسيانور الأمونيوم المركب المعدني إلى البولة المركب العضوي الخاص بالأحياء...

وقاد باستور في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر حركة المذهب الحيوي مبرهنًا على عدم حدوث التخمر في الأوساط التي لا تحوي خميرة حية... ولكن ادوارد وهنس بوشنر قد تمكنا بوساطة الأنزيمات (وهي مركبات كيميائية حيوية غير حية)، من إجراء التفاعلات الحيوية في المخابر، وهكذا ذهب الاعتقاد بالمذهب الحيوي إلى غير رجعة. واستُبعدت التوقيفية عن نشوء اللغات، ويرى أهل النظر أن أصل اللغة تواضع واصطلاح.

ب) **مذهب الميكانيكية mechanism** : يعتقد أصحاب هذا المذهب بأن جميع العمليات الطبيعية الحيوية يمكن تفسيرها بوساطة القوانين الفيزيائية التي تدرس القوى المؤثرة في المادة. وكان رينيه ديكارت الفيلسوف الفرنسي ١٥٩٦-١٦٥٠م من ألمع المعتقدين بمذهب الميكانيكية. لقد صور الميكانيكيون عمل الجسم البشري كعمل الآلة: فالساق والذراع يعملان كعمل الرافعة،... والقلب يعمل كمضخة،... والرئة تعمل كمنفاخ،... والمعدة تعمل كالهاون والمدقة... واللغة: أصواتٌ فيزيائيةٌ وضعيةٌ اخترعها رجلٌ ماهر ثم قبلها الناس للتعبير عن رغباتهم (الفيلسوف اليوناني ديموقريطس)

ج) **مذهب الإرجاعية reductionism** : ينادي أصحاب هذا المذهب بالدراسة الفيزيائية-الكيميائية المخبرية لفهم الظواهر المعقدة كالحياة واللغة، ويرجعون دراسة البنى

المعقدة داخل العضوية إلى دراسة مكوناتها البسيطة خارج العضوية وداخل المخبر. كما يرون ولادة اللغة نتيجة التطور الحيوي للتفاعلات الفيزيائية الكيميائية عبر مسيرة التكوين العام للإنسان.

تعرض المبدأ الإرجاعي الفيزيائي الكيميائي لأعنف اختبارٍ له في القرن العشرين عندما طُلِب إليه الإجابة كيميائيًا عن الطريقة التي تمكن الأحياء من توليد كائنات جديدة مشابهة لأصولها أو مطابقة لها في كثير من الصفات!... وبرزت روعة الإجابة في مطلع الخمسينيات من القرن الماضي في كشف جزيء الحمض الريبي النووي المنزوع الأوكسجين الذي عُرف اختصارا بالدنا DNA وفتح ميدان السباق العلمي لكشف بنية هذا الجزيء العجيب، وطُلب من هذا الجزيء شرح أسرار الوراثة فأجاب عنها بوضوح رائع، وبُهت الذي كفر... وما إن اجتاز المبدأ الكيميائي للوراثة أعنف اختبار له حتى تعرض لاختبار أشد عنفًا عندما طُلب إليه الإجابة عن الآلية الكيميائية الحيوية لعمل الدماغ. كيف يتكلم الإنسان!... كيف يحب ويكره... وكيف ينظم الشعر؟...

ولئن قبلنا اليوم حل المسألة الوراثية، التي ظلت مدة طويلة من معجزات الحياة الغامضة!... فإنه من الصعب علينا القبول اليوم بأن آمالنا وأحلامنا ومشاعرنا ولغتنا مرتبطةٌ كلها بتكوين الخلايا الدماغية وكيميائية عملها لقصر نظرنا وعلمنا!...ولكن الواقع هو هذا الأمر... فاللغة منتَجٌ حيويٌّ يتأثر بالزمن والمكان، والحياة والموت، وبنماذج البيئة، وبالتوزيع الجغرافي للناطقين بها...

سادسًا: الانطلاقة العلمية التجريبية: فالعلم الذي ننعم بمعطياته أقامته القرون مستمدة كل مقوماته من مجموعة القوانين التي تسود الوجود. لقد انطلق بناء العلم من الأمم التي عاشت على ضفاف الأنهار: دجلة والفرات والنيل والسند وسواها... وزانه العقل الإغريقي والعربي بقيادة أبي حيان التوحيدي وابنِ سينا والفارابي وابنِ رشد... ونماه كوبيرنيكوس (١٤٧٣- ١٥٤٣) الذي برهن على دوران الأرض على ذاتها وحول

الشمس، وكبلر (١٥٧١-١٦٣٠) الذي وضع قوانين الكواكب السيارة التي أوحت بمبدأ الثقالة العامة، وغاليليه (١٥٦٤-١٦٤٢) الذي اكتشف حركة دوران الأرض حول الشمس. ونيوتن... لقد وضع كوبيرنيكوس الديناميت لنسف الكثير من أفكار العصور الوسطى،... وأشعل نيوتن وصحبه الفتيل. ووسع فرنسيس باكون نطاق هذه الرؤية مؤكدًا أن هدف العلوم الوحيد هو تزويد البشر باختراعات وكشف ثروات جديدة تيسر حياتهم. وقد استغرق ترسيخ هذا المفهوم، لكي يعتمده العالم الحديث، زهاء ١٥٠ سنةً... وجاء داروين (١٨٠٩-١٨٨٢) متحدثًا عن نشوء الأنواع وتنازع البقاء وبقاء الأصلح... وتلاه ماركس(١٨١٨-١٨٨٣) مدعيًا اكتشاف قانون التاريخ... وبعده فرويد (١٨٥٦-١٩٣٦) معتمدًا التحليل النفسي... وجاء توينبي ليحصي ثلاثين حضارةً عبر التاريخ دون تحيز لواحدة، قائمةً على نظرية التحدي والتصدي Challenge and Response، متخذًا المجتمع لدراسة التاريخ وليس الأمة... يرى تويمبي أن الحضارة العربية باقيةٌ حيةٌ وسليمةَ الجوهر... ولن يجرفها تيار الحضارة الغربية ولن تتحجر على الرغم من استعمارها والنكبات التي حلت بها؛ لأنها تملك مقومات بقائها ممثلةً بالتوازن بين الفكر والعمل. وهو يرى أن موت الحضارات ليس حتميًا كما يرى شبنغلر وابن خلدون، مادام أن هنالك مجتمعًا محتفظًا بالتصدي الإبداعي Creative Response وصاغ نظرته للتاريخ قائلاً: إن عجلة التاريخ ليست آلة شيطانية تبتلي الناس بعذاب سرمدي، ولكن هناك إيقاع أساسي يتمثل في التحدي والتصدي والانسحاب والعودة والنكسة والنهضة.

سابعًا: بيولوجية العلوم اللغوية: يرى تشومسكي ومن جرى جريه، بُعد مناهج الدراسات اللغوية عن مناهج الدراسات العلمية... ، وعلى الدراسات اللغوية لكي تصبح علمًا، أن تنهج منهج الدراسات البيولوجية. وإن دراسة اللغات ما زالت قاصرة على المشاهدة والوصف، ولن تصبح علمًا إلا عندما ترتقي إلى التفسير، أي الانتقال من مِمَ تتكون اللغة... إلى لماذا تتكون اللغة من كذا... وكذا... فالفلسفة نظر بلا عمل..

والإحصاء وجمع الذخيرة اللغوية عمل بلا نظر... والعلم نظر وعمل. نعم نظر وعمل وتنفيذ. العلم إذن: قراءة وتجريد... وعمل وتجريب... وغوص في المعاني... وارتقاء من المحسوس إلى المجرد... ووضع في الذهن ليصبح أمرًا كليًّا عامًا لا يأتمر بأمر شخص ولا جيل... ولا أمة... ولا أيِّ صنفٍ من البشر... ممثلاً بالقانون الطبيعي النافذ في كل زمان ومكان.

فالبيولوجيا التجريبية (الممثلة بعلم الحياة الجزيئي الذي يمثل فن النفوذ إلى بنية المكونات المادية البسيطة للطبيعة المعقدة واكتشاف القوى التي تحكمها، والقوانين التي تنظم أجزاءها البسيطة ثم دمجها في النظام الكلي) هي التي تعطينا الإجابة.

فاللغة هي المكون الأول للشخصية، وهي انعكاس اللاشعور الذي يمثل بنية لغوية يُدخلها بعض الأطباء في التحليل النفسي (جاك لاكان ١٩٠١-١٩٨٠) الذي يدعو إلى دراسة اللاشعور كدراسة اللغة في ضوء علم اللسانيات، وهنا التآلف الحي بين العلوم الحيوية البيولوجية، والنفسية البسيكولوجية، والعلوم اللغوية اللسانية لانغوستيك.

ثامنًا: هدف دراسة اللسانيات: إن هدف دراسة إدارة اللسان أو اللغة لينغويستيك linguistic أو اللسانيات كامن في دراسة العقل وطريقة حفظ المعلومات... ودراسة العقل تتطلب تجريد الدماغ... وتجريد الدماغ يمثل أعقد بنيان في هذا الكون ذلك لأن فيه عشرة آلاف مليار (١٠×١٠^{١٣}) خلية، و(١٠×١٠^{١٦}) واصلة Connexion ترتبط الواحدة منها بآلاف الأخريات... وفهم العقل سيأتي بعد تحليل بنيان الدماغ... وبعد فهم البنية الوظيفية التنسيقية... وهذا هدفٌ بعيد المنال!... وإلى أن يتم ذلك يستطيع علم إدارة اللسان أو اللغة لينغويستيك أن يدرس نتاج العقل أي اللغة ليكشف شيئًا من كنهها... ويتصور تشومسكي أن ملكة اللغة ، في عقل الإنسان: عبارةٌ عن دارة كهربائية موحدة (هي هي) في عقل كل إنسان مهما كان قومه، وأن في هذه الدارة قواطع تتخذ في كل لسان أوضاعًا تناسب اللسان الذي يتعلمه الطفل.

كتبت الموسوعة البريطانية عن تشومسكي ما يلي: «لا توجد قضية نظرية في علم إدارة اللسان لينغويستيك اليوم تناقش إلا بالشكل الذي أشار إليه تشومسكي» وقالت عنه جريدة نيويورك تايمز: «لعله أكبر مفكر في هذا الزمان» أما الخصوم فكثيرًا ما نعتوا أفكاره: بالمفلسة والمصيبة... والتافهة...

إن القبول بمبادئ تشومسكي لم يكن من الأمور السهلة وخاصة بالنسبة لأصحاب المذهبين الحيوي والإرجاعي!... فمن دعائم مبادئ تشومسكي تعلم الطفل لسان أمه:

فالطفل ينطق لسان أمه نطقًا سليمًا دون أي جهد... ويتعلم الصحيح والخطأ في لسان أمه... وهو لم يسمع إلا عددًا محدودًا من بحر كلمات لا يحصى عددها!...ويستحيل على أي إنسان أن يتعلم لسانًا أو لغة إذا كان جاهلاً بها كل الجهل عند البدء... وكم من صعوبة يجدها في تعلم لغة أجنبية عند الكبر!...

نستنتج (مع تشومسكي وديكارت) مما سبق: أن ملكة اللسان أو اللغة محفورةٌ في الدماغ تحملها جينات هذه شبيهة بجينات ملكة المشي... فالطفل السوي يتمكن من المشي في حينه ولا يتعدى أثرُ الوسطِ التشجيعَ أو التعويق. والطفل السوي يتمكن من النغو واللغو واللغة واللسان... وسماعُ الكلام هو الذي يحرر ملكة اللغة ويضبُط بعض خصائصها. وفي هذا يتمثل المنهج العقلي أو الفطري الممثل بالحديث الشريف: «كل مولود يولد على الفطرة أي (التي تمثل المخزون العقلي)».

وهنا نصطدم بالفلاسفة الاختباريين القائلين: «يمثل العقل، عند الولادة، صفحةً بيضاء تَخُطُ عليها التجربة ما تشاء» وإن السلوك هو الشيء الوحيد الذي تجوز دراسته... وأن السلوك الحيواني كلَّه مبني على تجربته التي تُقوي بالثواب بعض أنواع سلوكه، وتَضْعِفُ البعض الآخر بالعقاب.

ويرى تشومسكي أن على العلم استكشاف مخزون العقل بدراسة ما يصدر عنه متفقًا مع ما أراده كانط في كتابه: «نقد العقل المحض» مطبقًا طرائق العلوم الطبيعية في دراسة العقل. والذي قال إنَّ العقل محكوم بالوراثة.

ومن دعائم مبادئ تشومسكي دراسة لغة الكرِيولو criollo (لغة العبيد أو الموالي الذين أُخرجوا من ديارهم قسرًا بالعنف أو بالفقر، قبل نحو ثلاثمئة سنة، من أصول إفريقية وآسيوية وجزر البحر الكاربي، وجُمعوا في مزارع التبغ والقطن وقصب السكر وسواه، يتكلمون لغاتٍ إفريقيةً وآسيويةً مختلفة، فلا يفهم بعضهم بعضًا، فأوجدوا لسانًا مشتركا يتفاهمون به. فماذا يكون هذا اللسان أو اللغة.)

مَثَّلَ **الجيلُ الأول جيلَ المهجرين**: جيلَ العجمة أو الرَطَانَةِ أو التدجينِ أو الحرفةِ والمهنة مستعملين كلمات مشوهة من لغة سادتهم!...

الجيل الثاني: جيلُ المُوَلَّدِين: يتكلمون لغة واحدة متفقين في قواعدها دون تشاور، منتشرة في كل المواضع، على بعد الشَقَّة، واختلاف لغات السادة،... وقواعد معتمدة من قبل كل طفلٍ عاديٍّ يتعلم لغة قومه في كل مكان من العالم، فإن تُرك وشأنه فعل ذلك،...وإن ردعه أهله، لاختلاف قواعد لسانهم عن القواعد الفطرية الأصلية، ارتدع بعد لأي.

تاسعًا: السياسة العلمية اللغوية الحديثة: تتمثل السياسة العلمية اللغوية الحديثة بما يلي: الاعتقاد بوجود طبيعةٍ إنسانيةٍ جينيةٍ تُدعى ملكة اللسان أو اللغة، محفورة في العقل ممثلة بالفطرة التي فطر عليها الإنسان. تسير هذه الفطرة في اتجاهين: يرى الاتجاه الأول أن الإنسان أنانيٌّ مجبولٌ على حب الذات، بقيادة جينة الأنانية. ويتمثَلُ الاتجاه الآخر بحب التعاون مع أخيه الإنسان بحكم روابطه الاجتماعية. فإذا وُجد الفرد في جمهرة من الأنانيين نمت فيه النزعة العدوانية غير المؤمنة بالقواعد الاجتماعية والإنسانية ﴿وأنا منا الصالحون۞ ومنا دون ذلك ۞ كنا طرائق قددًا﴾ [الجن: ١١]. القددة الجماعة تختلف آراء أفرادها... وإذا وُجد في مجموعة من الغيريين التزم بالقواعد الاجتماعية التي تبني الحضارات!... ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

عاشرًا: تعريف الحياة: كرَّس عشرات ألوف الباحثين جهودهم ووقفوا حياتهم على تعريف الحياة الذي ما زال يتطلب الصياغة... لقد أيقظت أحجية غموض مفهوم الحياة اليوم البحث عنها في الفضاء الكوني،... كما وُجهت الدراسات نحو محاولة تخليق الحياة تجريبيًا في الزجاجيات. وقد ورد تعريف الحياة في اللغة العربية بأشكال عديدة أبرزها:

١- الحياة هي القدرة على النمو كقولنا: كائن حيّ ينمو وكائن ميت متوقف عن النمو...

٢- الحياة هي القدرة على الإحساس ممثلة في قوله تعالى: ﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾ [فاطر: ٢٢]. فالأحياء الذي يتحسسون ما يحيط بهم، وما يخطط لهم. والأموات لا يدركون ما يخطط لهم...

٣- الحياة هي القدرة على استعمال العقل ممثلة في قوله تعالى: ﴿أَوَ مَنْ كانَ مَيْتًا فَأَحْييناه﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقول كثير عزّة:

لقدْ أسمعْتَ لو ناديْت حيًّا ولكن لا حياةَ لمن تنادي

كم منا من يستعمل عقله في دراسة هذا الكون الفسيح؟

٤- الحياة هي ارتفاع الغمّ والذل كما في قول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميّتٍ إنما الميت ميّت الأحياء

إن من لا يسعى إلى رفع الذل والغم عن نفسه وعن قومه فهو حي ميت

٥- الحياة هي الحياة الآخرة التي يتوصل إليها بالعلم والعقل كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمَنُوا استجِيبُوا للهِ وللرَّسولِ إذا دعَاكُم لما يُحييكم﴾ [الأنفال٨: ٢٤].

٦- الحياة حياتان: إحداهما الحياة الدنيا والأخرى هي الحياة الآخرة...

٧- الحياة هي صفةٌ من صفات الله تعالى. فإذا قيل فيه عزّ وجلّ : «هو الحيّ» فمعناه : هو الذي لا ينطبق عليه الموت.

٨- الحياة والحيوان واحد عند أهل اللغة ، وقد قيل الحيوان من يملك الحياة والموتان من لا يملك الحياة...

٩- الحياة هي صورة البقاء الطويل الأجل في النبات والحيوان والإنسان. وهي عكس الموت...

١٠- الحياة انعكاسٌ لصيغةٍ كيميائيةٍ عند علماء الكيمياء الحيوية...

١١- الحياة عملية تطورٍ طويلٍ مرّت بالمادة عند علماء التطور...

التعريف الحديث للحياة: وإنَّ أحدث تعريف للحياة: الحياة نظام كيميائي حيوي (بدن أو جسم أو جهاز) ذاتي الإدارة (أوتونومي) مفتوح التطور بالنمو والتحول. وهو كاللغة التي هي نظام كيميائي حيوي محفور في العقل بوساطة جينات، قادرة على الإدارة الذاتية (أوتونومي) المفتوحة على التطور والتقدم إلى الأمام عبر مجموعات متكررة من التفاعلات والروابط الداخلية التي تمثل الفصيح والأصيل من الكلام والتفاعلات الخارجية التي تمثل الكلام الدارج والعامي والمقترض من اللغات المتعاملة معها.

وسنعالج المناهج العلمية لدراسة العلوم الحيوية (البيولوجية) والعلوم اللغوية في محاضرات تالية إن شاء الله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

دمشق في ٢١/ ١٠/ ٢٠٠٩

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

محاضرات عام ٢٠١٠م

نحو مصالحات لغوية ومصارحات

أ.د. ممدوح محمد خسارة

عضو المجمع(*)

الاختلاف في النظرة إلى الأمور والقضايا تحليلاً وتعليلاً من طبائع الأشياء ومن سنن الحياة، ولكن الاختلاف - وهو شيءٌ مشروع وطبيعي- يمكن أن يهدَّأ فيفضي إلى تعايش وتوافق، كما يمكن له أن يَصعَّد إلى نزاعٍ فصراعٍ، إلا أن ذينك الأمرين: التهدئة والتَّصعيد ليسا عفويَّيْن، بل هما غالباً ثمرة جهد ثقافي تمارسه الأطراف المعنية بالأمر. ويؤمل أن يصبَّ هذا البحث في إطار جهود التَّهْدئة والتوافق لا التَّصعيد والتصارع بين أبناء العربية أو متكلميها. ولم يدر في خلدنا أن أي جهد توفيقي، مهما علا كعبه من العقلانية والموضوعية والتَّسمُّح، قادرٌ على إزالة الخلاف، لأنه- كما قدمنا- سُنَّةٌ، وقصاراه أن يُلْجمه عن أن يتطور إلى تناحر. وإذا كنا نلحُّ على نهج المصالحة فذلك لأننا نؤمن بأنه إذا كان النزاع عرقلة للتقدم نحو الأفضل فإن الصِّراع مَقْتَلَة له.

كان من الطبيعي أن تخضع اللغة العربية- وهي مع العقيدة ركنا الأمة وجناحا حضارتها- لناموس الحياة في الخلاف والاختلاف، لاسيما وأن اللغة العربية أمٌّ لجميع العرب، وهم شركاء في ميراثها، فكما لا يجوز لنفر من الأبناء ادعاء الإرث المادي دون فريق آخر، كذا لا يجوز لنفر من أبناء اللغة أو متكلمِّيها ادِّعاء ملكيَّتها والحجر على الآخرين في حقهم في المشاركة والنظر فيما يرونه من صلاح شأنها أو صلاح شأن المتلاغبين بها.

(*) محاضرة ألقيت في قاعة المحاضرات في مجمع اللغة العربية بتاريخ ٢١ محرم / ١٤٣١هـ - الموافق ٦ كانون الثاني / ٢٠١٠م.

ولكن ليس من الطبيعيّ أن يصل الخلاف بين أبناء العربية أو متكلِّميها إلى مواقف وآراء تبلغ حدَّ التجريم والتخوين، ذلك أن الغالبية العظمى من المتنازعين تنطلق من مبدأ الحرص على وجود الأمة وتقدمها، نقول الغالبية؛ لأننا لا نعدم من أبنائها من يحاول الانسلاخ عنها. ومع ذلك فلن نيأس من دعوتهم إلى كلمةٍ سواء، ومن يدري فقد ينقلب العدوُّ الألدُّ - بالكلمة الطيبة- وليًّا حميماً.

إنَّ هذه المصالحات تندرج في إطار ما يُسَمَّى التوعية اللغوية، إذ ليست التوعية مقتصرةً على إدراك أهمية اللغة وحتمية التمسُّك بها، سبيلاً للبقاء الحضاري والثقافي، بل هي أيضاً سَدُّ الفُرْجة وردم الهوَّة ما أمكن بين التيارات المختلفة من أهل هذه اللغة.

وبعد، فإن المصالحات التي ندعو إليها - وصيغة الجمع للمشاركة ليس إلا- تشتمل على ثلاثة محاور هي:

- المصالحة بين دعاة الفصحى والعاميَّة.
- المصالحة بين المتشدِّدين والمتساهلين من اللغويين.
- المصالحة بين دعاة التعريب ودعاة التغريب في التعليم.

الأولى: المصالحة بين دعاة الفصحى والعاميَّة:

لعلَّ من المفيد التذكير بأن العامية تعني - إجمالاً- ما أدخله العامة على الفصيحة من لَحْنٍ في الإعراب أو تغيير في بنية الكلمة الصرفية أو الصوتية[1] - ويزيد بعضهم الدلالية- أو في بناء الجملة تركيباً وترتيباً.

ومن الضروري التقديم لهذه المصالحة بمجموعة من المصارحات:

١) لابدَّ من الاعتراف بأن الفصحى والعامية هما مستويان للخطاب اللغوي العربي، وهما مستويان عريقان في ثقافتنا العربية ولغتنا.ولكنهما ليسا متساويَيْن، فالفصحى تمثل المستوى الصوابيّ، والعامية تمثل المستوى الخاطئ لأنها انحرافٌ لغوي.

(١) ينظر: السيوطي – المزهر في علوم اللغة ١: ٣١١.

لقد عاشت العامية منذ الجاهلية إلى جانب الفصحى، وكان العرب يفهمون المستويين من الخطاب اللغوي. فما الحروف التي عدَّها سيبويه زيادة على الحروف الخمسة والثلاثين والتي وصفها بأنها (غير مستحبَّة) إلا بدايات تغيير في البنية الصوتية، وهذا التغيير شكل من أشكال اللهجة العامية، قال: «فأصل حروف العربية تسعةٌ وعشرون حرفاً.. وتكون خمسةً وثلاثين حرفاً بحروف هن فروع وأصلها من التسعة والعشرين، يؤخذ بها وتُسْتَحْسَنُ في قراءة القرآن والأشعار.. وتكون اثنين وأربعين حرفاً بحروفٍ غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من تُرْتَضى عربيَّتُهُ ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف.. والباء التي كالفاء.»[١].

وما الأغلاط التي كان يقع فيها بعض العرب في صدر الإسلام إلا مظهرٌ من مظاهر العاميَّة المبكرة، كذلك الذي لحن في حضرة الرسول ﷺ فقال لأصحابه: «أرشدوا أخاكم فإنه قد ضَلَّ»[٢]. أو ذاك الذي جاء إلى زياد والي البصرة يشكو أخاه قائلاً: «أصلح الله الأمير. توفي أبانا وترك بنونا... فقال زياد: توفي أبانا وترك بنونا!! ادعُ لي أبا الأسود، فقال ضع للناس الذي كنت قد نهيتك عنه»[٣]، وكان زياد قد نهى أبا الأسود – في بعض الروايات– أن يضع علم النحو. بل وأزعم أن بعض علماء اللغة كانوا يتوكَّؤُون على العامية في بعض عباراتهم حتى العلمية منها، مثال ذلك ما ورد في تهذيب اللغة: «قال أبو العباس [عن كتاب العين للخليل]: (ذلك كتابٌ مَلاَ غُدَد)، وحقه عند النحويين (مَلان غُدَداً) ويعني بذلك أنه فيه فساداً «كفسادِ الغدد وضَرِّ آكليها.»[٤]. بل قد لا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن كثيراً مما ورد من كلام الجاهليين خارج القياس اللغوي إنما هو مستوى

(١) سيبويه – الكتاب ٤: ٤٣١ – ٤٣٢.

(٢) ابن جني – الخصائص: ٢: ٨ و٣: ٢٤٦.

(٣) ابن قتيبة – عيون الأخبار: ٢: ١٥٩.

(٤) الأزهري – تهذيب اللغة ١: ٢٩.

عاميّ من الخطاب، اصطلح اللغويون على تسميته: (شذوذاً أو لغة رديئة أو لغة قبيلة بعينها). لقد كانت لغات بعض القبائل نوعاً من عامية ذلك العصر؛ لأن مفهوم العامي عند معظم اللغويين القدامى هو التغيير[١]. أليست لغة قيس في (يا أبي: يا أبَ ويابَ ويابةَ) هي مما نعدُّه اليوم عاميَّاً؟ وكذا ما ذكره الأزهري، قال: «سمعْتُ بعض بني سليم يقول: (كما أَنْتَني) أي انتظرني في مكانك»[٢]. وذكر صاحب اللسان نحو سبع وثمانين كلمة نسبها إلى العامية، من نحو قولهم «خُطَّة والعامة تقول (خُطْيَة).. وعصا مُعْوَجّة والعامة تقول (مِعْوَجَّة)... والقارس: البارد، والعامة تقول (قارص)[٣]». ويجعل ابن السكيت كلمة (اللَّبْوة) من العامية وفصيحها (اللَّبُؤة).

ولكنَّ الملاحظ أن كثيراً مما كان يُعَدُّ عاميَّاً في ذلك العصر هو اليوم فصيحٌ لا يُستغنى عنه، نحو (المرايا) جمع مرآة وقياس جمعها (مَراءٍ)، و(البَقَّال) وفصيحها البَدَّال، و(الكُزاز) [مرض] وفصيحها عندهم الكُزَّاز[٤]. مما حدا بي إلى القول بشيء من العمومية (إن كثيراً من عامية القدماء صار في عِداد فصيحة المعاصرين)، ذلك أن الشيوع من عوامل الفصاحة. ولكن يجب التنبُّه إلى أن مانعنيه بالفصيحة هو الكَلِمُ المنقاد لأنظمة اللغة النحوية والصرفية والصوتية، أما الفصحى بصيغة التفضيل فيقصد بها عربية عصر الاحتجاج.

لذا لا يجوز التبرُّؤ من العامية وكأنْ لا قرابة بينها وبين الفصيحة، كما لا يجوز التبرُّم من الفصيحة وكأنها لغة محنَّطة عَفَّى عليها الزمن، فهما مستويان للخطاب اللغوي العربي – على اختلاف مابينهما صحَّةً – يتجاذبان مساحة اللغة العربية زيادة ونقصاناً، تضيق الفجوة أحياناً وتتَّسع أحياناً أخرى، ولكن يبقى المستويان عربيَّيْن، من حيث الأصل والنسبة.

---

(١) ينظر: المزهر في علوم اللغة ١: ٣١٠ – ٣١١.

(٢) ابن منظور – لسان العرب: عند

(٣) ابن منظور – لسان العرب: خطط، عوج، قرس.

(٤) المصدر السابق: رأى، بدل، كزز.

٢) **الإقرار بأن كلاً من المستويين**: الفصيح والعامي أصيلٌ وثابت في العربية وهو عصيٌّ على الزَّوال، لا العامية استطاعت أن تزيح الفصيحة حتى في أحلك عصور الرُّكود الثقافي التي مرت بها الأمة أي في العصرين المملوكي والعثماني، ففي تلك العصور التي طغت فيها العامية صُنِّفت أهم الموسوعات اللغوية كلسان العرب والقاموس المحيط، والموسوعات الأدبية كصبح الأعشى والكتب الطبية لابن النفيس. كما لم تستطع العربية الفصحى في أزهى عصورها الثقافية وهو العصر العباسي، إقصاء العاميَّة، وبلغت من التأثير ما جعل أكبر أدبائنا لذلك العصر وهو الجاحظ يدعو لالتزامها في بعض السَّرْد الأدبي إذ يقول: «إذا سمعتَ نادرة من نوادر العوامّ ومُلْحة من مُلَح الحشوة والطَّغام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب أو تَتَخَيَّرَ لها لفظاً حسناً، أو تجعل من فيك مخرجاً سريَّاً، فإن ذلك يُفسد الإمتاع ويخرجها عن صورتها ومِن الذي أريدت له»[(١)].

ابتدأ التأليف في لحن العامة وأغلاطها منذ منتصف القرن الهجري الثاني وبلغت تلك الكتب العشرات منها: (ما تلحن فيه العوام) للكسائي (١٨٩هـ). ومنها (لحن العوام) للزبيدي (٣٧٩هـ)، وتكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة للجواليقي (٥٣٩هـ)[(٢)]. ولكن هل استطاعت عشرات الكتب المصنَّفة لغرض إصلاح اللحن في لغة العامة أن تقضي على العامية؟

بل إنَّ حركة التأليف في لحن العوام والعامية إجمالاً، قابلها حركة تأليف في إنصاف بعض الكلم العاميّ الذي خُطِّئَ في مصنفات أصحاب التثقيف اللغوي، ولعلَّ أولها كتاب (بحر العَوَّام فيما أصحاب فيه العوامّ) لابن الحنبلي (٩٧١هـ)[(٣)] ولا تبعد معاجم فصاح العامية أو تفصيح العامي أو ردِّ العامي إلى الفصيح التي يُصَنِّفها المحدثون عن ذلك

(١) الجاحظ – البيان والتبيين: ١١١.

(٢) د. أحمد قدور – مصنفات التثقيف اللغوي: ٥٥– ٥٦.

(٣) المصدر السابق نفسه.

الغرض، وهو رَدُّ الاعتبار إلى بعض الكلمات التي وُصِمَتْ بالعامية أو اللحن وهي ليست كذلك. ونذكر منها على سبيل المثال (معجم فصاح العامية) لهشام النحاس، ومعجم (رد العامي إلى الفصيح) للشيخ أحمد رضا، و(معجم فصيح العامية) لأحمد أبو سعد. و(معجم تهذيب الألفاظ العامية) للشيخ محمد علي الدسوقي، و(معجم فصاح العامية من لسان العرب) لكاتب هذه السطور وهو قيد الطبع.

إنَّ قدَر هذين المستويين اللغويين أن يتعايشا؛ لم يستطع أحمد لطفي السيد ولا عبد العزيز فهمي في مصر بوزنهما السياسي والثقافي أن يزعزعا الفصيحة عن مكانتها رغم تملُّق عواطف الناس بدعوتهما إلى تمصير اللغة العربية، وكان الناس في عصرهم أشدَّ التفافاً حول رموز الفصاحة كالرافعي والزيَّات والعقاد والجارم. وقصَّر عن ذلك في لبنان أمين الشمِّيل مارون غصن الذي تنبَّأ عام (١٩٢٥) بموت العربية الفصحى[1] مستحضراً مَوْتَ اللغتين اليونانية القديمة واللاتينية وداعياً للعامية السورية، فكان إلى جانبهما دعاة الفصحى وأدباؤها كالشدياق واليازجي وجبران الذين أثرَوا العربية لغةً وإبداعاً عزَّ نظيره. لم تصدُق أحلام أنصار العامية بزوال الفصيحة، ولم تتحقَّق أمنية أنصار الفصحى بزوال العامية، بقيت الفصيحة لغة أدب وصحافة وإدارة وعلوم، وبقيت العامية لغة حياة يومية، تتعايشان تحت سقف واحد، وبقي حتى أصلب المنافحين عن الفصيحة يخاطب صغاره ويتحبَّب إليهم بالعامية، وبقي أعند المدافعين عن العامية يعبر عن أفكاره وأبسط ملاحظاته باللغة الفصيحة، وحتى عندما يدعو إلى العامية ويروِّج لها فإنه يلجأ إلى الفصيحة.

٣) إن الاتجاه اللغوي العام هو التقارب بين مستويَي العاميّ والفصيح، إذ ليس بمقدور أيٍّ من الفريقين الاستغناء بالمطلق عن أسلوب الفريق الآخر. فقد أدت ثورة الاتصالات والإعلاميات إلى إنشاء القنوات الفضائية العربية العامة والخاصة، وصارت

(١) د. نسيم خوري – الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية : ١٥٨، ١٦٢.

هذه الفضائيات تتسابق في جذب المشاهدين إليها بما تقدمه من برامج حوارية وأنشطة تشاركيَّة، وبما أن الإعلام موجه للجمهور العريض في الوطن العربي وبكل مستوياته الخاصة والعامة، فقد أصبح المشارك حريصاً على النفاذ إلى أوسع شريحة من العرب، وبما أنه ليس للعرب عاميَّةٌ واحدةٌ بل عاميَّات قطرية، غدا لزاماً على المتحدث أو المحاور من العامّة ألا يتقوقع في زاوية عاميَّته إذا أراد الوصول إلى أصحاب العاميات الأخرى، والسبيل إليهم ليس عاميتهم لأنه لا يعرفها، بل هو التَّوسُّل بلغة عربية سليمة وبسيطة يفهمها معظم العامة في الوطن العربي. كما غدا إلزاماً على المتحدث أو المحاور من الخاصة وللغاية نفسها أن يتبَسَّط في الفصيحة، بل يحاول أن يتملَّح ويتقرَّب إلى المشاهدين – وغالبيتهم من العامة– بالأمثال الشعبية والعبارات العاميَّة، لاسيما بعض الدعاة الدينيين. وفي سياق متابعتي للغة الإعلام أحرص على مشاهدة البرامج التي يشترك فيها عامَّة من مختلف أقطار الوطن العربي، ومنها برنامج كانت المذيعة تقدمه بالفصيحة الميسَّرة وكانت المشاركات تجيب كلٌّ بلهجتها العامية المحسَّنة وقد لاحظتُ أنَّ التفاهم كان واضحاً وأنَّ التواصل لم يتعثَّر، فلم تحاول المتحدثة المغربية أن تستوضح من زميلتها المصرية، ولا تلك من نظيرتها الخليجية فكان الحوار سلساً ومقبولاً مع أنه كان يجري بثلاث لهجات عامية محليَّة، وكان وراء هذا التفاهم والتواصل أنَّ كلَّ واحدةٍ منهن كانت تختار الكلمة أو العبارة الأقرب إلى السلامة اللغوية لكي تكون مفهومةً ومتقبَّلةً لدى الأخريات ولدى المشاهدين. وهذا يعني أننا أمام أداء لغوي يقترب من الفصيحة بقدر ما ينأى عن العامية وهو بشير خير.

*** فإذا اقتنع كلٌّ من الفريقين بالمصارحات السابقة تعيَّن عليهما المصالحة على هدفٍ لغويٍّ أكثر واقعية مما يتخيَّل كل منهما، هدف هو وسَطٌ بين المستويَيْن، يحاول فيه أنصار العامية تحسين أدائهم اللغوي بتطعيم خطابهم بما سَهُل ولانَ من الفصيحة، ويحاول أنصارُ الفصحى تيسير خطابهم بما صَحَّ وفَصُحَ من العاميَّة.**

لقد قمنا بدراسة للغة الإعلام المقروء في الوطن العربي اشتملت على جمع (٤٨٥٠٠٠) كلمة من صحفٍ ومجلاتٍ من المشرق العربي ومغربه وخليجه، فتبيَّن أنَّ نسبة الكلمات العامية فيها لا يتجاوز ٠.١٣٪ أي ثلاث عشرة كلمة من كلِّ عشرة آلاف كلمة، وهي نسبةٌ تؤكد أنَّ العامية لا تشكل خطراً ذا بالٍ على الفصحى في الإعلام المقروء[١].

وهذا الهدف الوسط الذي أشرنا إليه هو ما يُسمَّى اللغة الثالثة أو لغة المثقفين، التي لا هي بالعامية تماماً ولا هي بالفصحى كليَّة. والطريق إلى هذه اللغة الوسطى هو التعليم، إنَّ نشر التعليم بالعربية هو الذي يجعل المتكلم يحاول مقاربة الفصيحة وإن لم يوفق إليها دائماً. ليس الطريق إلى إقصاء العامية والتخفيف من أثرها السلبي على الفصيحة هو إنكارها البتَّة، بل التعليم بالعربية السليمة. لأنَّ المتعلِّم سوف يتأثر بدرجة أو بأخرى بالأداء اللغوي السليم، وآية ذلك أن المتلاغين من العامة يطعِّمون كلامهم وأحاديثهم بعباراتٍ سليمةٍ وكلمات فصيحة، وإذا لم يكن ذلك للتدليل على إيمانهم بها، فذلك للاستعانة بها في التعبير أو للتدليل على أنهم ليسوا جاهلين بها. التعليم هو المفتاح إلى المقبوليَّة اللغوية، ونحن نرى أن عامية اليوم –بسبب التعليم– لا تختلف كثيراً عن فصيحة بدايات عصر النهضة في مطلع القرن التاسع عشر حيث كان التعليم مَحْدوداً. ولعلَّ النصَّ الآتي للشيخ رفاعة الطهطاوي (١٨٧٣) يظهر مدى التقارب بين المستويين: قال في وصف أفراد البعثة وهم في باريس وقد اجتمعوا حول الطعام: «ثم مدُّوا السفرة للفطور، ثم جاؤوا بطبليَّات عالية (أي موائد) ثم رَصُّوها من الصحون البيضاء، وجعلوا قُدَّام كل صحن قدحاً من القزاز وسكينة وشوكة وملعقة، وفي كل طبليّة نحو قزازتين من الماء.. ثم رَصُّوا حوالي الطبلية كراسي لكل واحد كرسي، ثم جاؤوا بالطبيخ فوضعوا في كل طبلية

(١) د. ممدوح محمد خسارة – اللهجة العامية في الإعلام المقروء – من بحوث المؤتمر الثالث لمجمع اللغة العربية بدمشق، تشرين، ٢٠٠٤.

صحناً كبيراً أو صحنين ليغرف منه أحد الطلبة ويقسِّم على الجميع، فيعطي لكل إنسان في صحنه شيئاً يقطعه بالسكينة التي قدامه، ثم يوصله إلى فَمه بالشوكة لا بيده...». والمقارنة بين هذا الأسلوب وعامية اليوم يُظهر أن لغة العامة المعاصرة ليست على تلك الدرجة من السُّوء الذي تُرْمَى به.

ومن المفيد أن نذكِّر «أن الازدواجية اللغوية ظاهرة طبيعية، وهي موجودةٌ في جميع اللغات وليس هناك لغةٌ واحدةٌ في العالم يكتب فيها ناطقوها كما يتكلمون... وإنَّ الهوَّة السحيقة بين الفصحى ولهجاتها المحكيَّة في عصرنا الراهن بدأت تتقلَّص تدريجيَّاً بتأثير التعليم وتراجع الأميَّة والدورِ المتنامي لوسائل الإعلام»[1].

ولكن يجب التَّنبه - لكيلا يُساء فهمنا- على نقطة هامة، **وهي أنه إذا كُنَّا ندعو إلى تلك اللغة الوسطى في الخطاب أو الحديث اليومي، فنحن لا ندعو إلى إلغاء المستوى البياني الأفصح، بل أن يبقى للبيان والأدب مستوى عالٍ ورفيع يظل مطمحاً لكلِّ عربي**، وأن يبقى للحديث اليومي مستوى ينأى عن الرَّكاكة، كما أننا لا ندعو إلى إعدام أو تسفيه ما جاء به الإبداع الشعبي من زَجَلٍ وشعرٍ ملحون يهزُّ الأعماق، أو أمثال تختزن تجارب مجتمعاتنا.

الثانية: المصالحة بين المتشدِّدين والمتساهلين من اللغويين:

إذا كانت الجبهة الأولى للمصالحة بين دعاة الفصحى وأنصار العامية، فإن الجهة الثانية هذه، هي بين دُعاة الفصحى أنفسهم، أعني بين المتشدِّدين والمتسمِّحين من اللغويين.

وأنا أقدم لهذه المصالحة بمجموعة من المصارحات لعلها تسهم في الوصول إلى ما نرغب فيه من التوافق:

---

(١) د. ظافر يوسف – اللغة العربية وتحديات العولمة – المؤتمر الخامس لمجمع اللغة العربية بدمشق – تشرين الثاني / ٢٠٠٦، ص١١- ١٢.

١) إن هذا الخلاف بين الفريقين من اللغويين قديمٌ قِدَمَ تراثنا. فقد حفلت كتب القدماء بالآراء المتعارضة حول الموقف من الظواهر اللغوية المستجدة وأساليب الأداء اللغوي وكلمه، فَثَمَّة فريقٌ يميل إلى التشدُّد التَّصَعُّب، ولا يقبل من الكلَم أو التراكيب إلا ما سُمِع ونقل عن العرب، ووفق شروط السَّماع التي يرتضيها. وثمة فريقٌ آخر يميل إلى قبول قياسِ مالم يُسْمَع على ما سُمِع من العرب.

وبالنظر لاختلاف منهج كلِّ فريقٍ عن الآخر، فكثيراً ماكنا نرى نفراً من اللغويين يضعِّف نفراً آخر ويجهله، ومن ذلك:

أ- «قال الليث: سمعَتْ أذني زيداً يفعل كذا، أي أَبْصَرْتُه بعيني يفعل كذا.. وقال الأزهري [صاحب تهذيب اللغة]: لا أدري من أين جاء الليث بهذا الحرف، وهو عندي كلامٌ فاسد، ولا آمَنُ أن يكون وَلَّدَهُ أهلُ البِدَع والأهواء»[١].

ب- «قال الأزهري: وممَّن ألف الكتب في زماننا فَرُمِيَ بافتعال العربية وتوليد الألفاظ أبو بكر بن دريد [صاحب الجمهرة]، وقد سألت عنه إبراهيم ابن محمد بن عرفة يعني نفطويه، فلم يعبأ به ولم يُوَثِّقْه في روايته». ثم يَتَصدَّى السيوطي للأزهري فيعدل ابن دريد فيقول: «قلت: معاذ الله، هو بريءٌ مما رُمِيَ به، ومن طَالَعَ الجَمْهرة رأى تحرِّيَهُ في روايته، وسأذكر منها في هذا الكتاب ما يُعْرَف منه ذلك ولا يَقبَلُ طعن نفطويه»[٢].

ج- «قال ابن سيده: وأيُّ شَيْءٍ أدلُّ على ضَعْف المُنَّة وسخافة الجُنَّة من قول أبي عبيد [القاسم بن سلام] في كتابه المُصَنَّف من قوله: العِفْريَة مثال (فِعْللة) فجعل الياء أصلاً...»[٣]. أي هي عنده (فِعْلِية).

---

(١) ابن منظور – لسان العرب: سمع.

(٢) السيوطي – المزهر ١: ٩٣.

(٣) ابن منظور – لسان العرب: عفر.

د- وكان لابن قتيبة، وهو من رواد التصحيح اللغوي حظٌ وافر من التَّخْطئة والتَّجهيل. «قال الأزهري: أغفل القُتبيُّ موضع الصواب [في تفسير عَشَوْتُ]، واعترض مع غَفْلَتِهِ على الفرَّاء يَرُدُّ عليه، فذكرْتُ قولَهُ لأبيِّن عُواره فلا يغترَّ به الناظرُ في كتابه [أي أدب الكاتب] »[1].

ولَوْ صدَّقنا أقوال كلِّ اللغويين ببعضهم لما وثَّقْنا واحداً منهم، وهذا محال؛ لذا نميل إلى ما ذهب إليه علماء الحديث من أن أقوال الأقران ببعضهم لا يقدح.

٢) إن الدافع لدى كلا الفريقين الحرصُ على اللغة والحفاظ عليها:

- فدافع المتشدِّدين كان الخوفَ على الحقيقة اللغوية من الضياع بما يُدْخَل عليها، والمحافظة على النقاء والصفاء في التعبير العربي، وهم غالباً من أصحاب السَّماع والنَّقل الذين يمثلهم إلى حدٍّ كبير قول ابن فارس (٢٩٥هـ): «ليس لنا أن نخترع ولا أن نقول غير ما قالوه، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه...؛ لأن في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها»[2].

ويرى الأصوليون أن لا مجال للعقل في اللغات... ولا قياس في اللغات»[3].

ومن عجبٍ أنَّ بعض اللغويين كابن الأنباري كان قياسياً في النحو، سماعيَّاً في اللغة إذ يقول: «فوَجَبَ أن يوضع النحو وضعاً قياسياً عقليَّاً لا نقليَّاً، بخلاف اللغة فإنها وُضِعَتْ نقليَّاً لا عقليَّاً، فلا يجوز القياس فيها، بل يقتصر على ما ورد به النقل»[4]. مع أن العقلانية منهج في البحث والدرس يتسم بها باحثٌ، فليس بِمِكْنَته أن يكون نقليَّاً في موضع وعقلياً في موضع آخر. ويمكن أن يضاف إلى قائمة السماعيِّين المتشدِّدين الأصمعي وابن قتيبة وأحمد بن يحيى ثعلب وابن الأعرابي والزبيدي وغيرهم... ويلحظ أن ابن قتيبة على تشدُّده لم يَسْلَمْ ممن هو أكثر تعصُّباً

(١) المصدر السابق: عشا.

(٢) ابن فارس – الصاحبي في فقه اللغة: ٣٣.

(٣) د. طاهر سليمان حمودة – القياس في الدرس النحوي: ١٤٧.

(٤) السيوطي: الاقتراح: ٣٩.

- أما دافع المتسمِّحين من اللغويين، ومنهم الكسائي وابن جني وابن السيِّد والبغدادي والخفاجي.. فكان دافعهم الحرصَ على نماء اللغة وإغنائها، والإقرار بحتمية التطور اللغوي، لاسيما في إطار الاشتقاق والدلالة، وهم غالباً أصحاب النزعة العقلية في البحث، وهم تيار العَقْل في مقابل تيار النَّقْل الذي سبقت الإشارة إليه. فهم يرون «أن اللغة أصواتٌ يعبُّر بها كل قوم عن أغراضهم»[١]، وبما أنَّ المقاصد والأغراض متغيرةٌ ومتجدِّدة، وضرورات كل عصر تختلف عن ضرورات عصر آخر، وجب فتح باب القياس في اللغة ومنهجِ العقل في معالجة ظواهرها. وحجتهم في ذلك: أن اللغة لم تصل إلينا كاملة، يقول السيوطي: «وذهب علماؤنا أو أكثرهم إلى أنَّ الذي انتهى إلينا من كلام العرب هو الأقل، ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعرٌ كثيرٌ وكلامٌ كثير، وأحْرِ بهذا القول أن يكون صحيحاً»[٢]. وينسب بعضهم هذا القول لأبي عمرو ابن العلاء أو الكسائي.

فإذا كانت اللغة كذلك فيجب على الخَلَف استدراك مالم يصل إليهم من السِّلف قياساً على ما سُمع منهم. وعلى سبيل المثال فإن كل مصطلحات علم العروض كالبَحْر والخَبْن والتَّرفيل، لم تنقل عن العرب لهذه الدلالات فهل يمكن الاستغناء عنها، بل إنَّ العرب – بحسب بعض الروايات - لم تكن تعرف أسماء الحروف فهل من البدعة تسميتها، ذكر لسان العرب أن «العرب لا تعرف الحروف. قال ابن سيدة: أخبرني من أثق به أنهم قالوا لعربي فصيح: أنشدنا قصيدة على الذال، فقال: وما الذال؟... وسئل بعض العرب عن الذال ونحوها من الحروف، فإذا هم لا يعرفون الحروف»[٣]. وهل من الممكن تصور بحثٍ لغويٍّ يستغني عن أسماء الحروف؟

٣) إن العربية كغيرها من اللغات تطوّرت ومالت إلى الأسهل والأخفّ، وليس

---

(١) ابن جني – الخصائص ١/ ٣٣.

(٢) السيوطي – المزهر في علوم اللغة ١: ٦٦.

(٣) ابن منظور – لسان العرب: قفا.

صحيحاً أن عرب عصر الاحتجاج كانت تتكلم مستوى لغوياً واحداً، بل نكاد نجزم أن العربية تطوَّرت من الجاهلية إلى نهاية القرن الهجري الأول أكثر مما تطوَّرت من العصر الإسلامي الأول إلى يومنا هذا. ودليلنا على ذلك أمران:

أ- أنَّ الحديث النبوي الشريف وكلام المسلمين الأوائل أفصح وأسهل من كلام من سبَقَهم من الجاهليين، بل إنَّ معظم الحديث النبوي الشريف –على عُلُوِّ بلاغته وفصاحته- أوضح وأقرب فهماً من فصيحة اليوم على يسرها والتصاقنا بها وأُلْفتنا إياها.

ب- ما أورده اللغويون من كلام القدماء مما لم يفهموه هم أنفسهم. مثال ذلك: «قال أبو الهيثم: اعتلَّت أم الهيثم الأعرابية فزارها أبو عبيدة [وهو ممن اشتغل بالغريب]، وقال لها: عمَّ كانت علَّتُك؟ فقالت: كنت وَحْمَى سَدِكةً، فأكلت جُبْجُبَةً من صَفِيف هُلَّعة، فاعْتَرَتْني زُلَّخَةٌ. قال لها: ما تقولين يا أم الهيثم؟ فقالت: أو للناس كلامان؟»[١]. والذي لم يفهم هذا الكلام ليس من معاصرينا بل هو من كبار لغويِّي ذلك العصر. إنَّ مقارنة أمثال هذه العبارات مع ما كَتَبَه الجاحظ أو التوحيدي أو ابن المقفع يظهر الميل المُطَّرد إلى اليسر والسُّهولة في التعبير والتركيب، وهو ما يستنكره بعض المحدثين ويرمون أهله بالرَّكاكة.

والواقع أن التَّصَعُّب والإغراب أسلوبٌ قديم في الأداء اللغوي عَسُرَ على بعض كبار اللغويين. «قال أبو حاتم: سألت الأصمعيّ عن قوله (لم تَأَبَّق) في قول الشاعر:

ألا قالـــــت بهـــــانِ ولم تـــــأَبَّق كَـــبِرْت ولا يليـــق بـــك النَّعـــيم

فقال: لا أعرفه»[٢] «وقال أبو عمرو [بن العلاء] سألتُ رجلاً من هذيل عن حرفٍ غريبٍ فقال: هذا كلام عُقْميَّ، يعنى أنه من كلام أهل الجاهلية ولا يعرف اليوم»[٣]. فهل نحتاج إلى مزيد من الأدلة بأن اللغة تسير بخطاً حثيثة نحو اليسر والسهولة ولكن دون أن تنقطع عن الأصول والجذور؟

---

(١) المصدر السابق: زلخ.

(٢) ابن منظور – لسان العرب: أبق.

(٣) المصدر السابق: عقم.

٤) إنَّ كـلَّ جهـود التّصـحيح أو التَّصْـويب اللغـوي [وبعضـهم لا يجيـز التصويب] لم تَحُلْ دون استمرار استعمال كلماتٍ وعباراتٍ اتهم قائلوها بالغلط، ووصفت بالفساد.

ففي القديم نشطت حركة تصحيحٍ لغويٍّ أنتجت نحو ستين كتاباً في هذا الباب، أبرزها إصلاح المنطق لابن السِّكيت، وأدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الفصيح لثعلب ودرة الغواص للحريري[١]. وفي الحديث انبعثت كذلك حركة مشابهة ومن تجلياتها: معجم الأغلاط الشائعة لمحمد العدناني، ومعجم الخطأ والصواب لأميل يعقوب، وقل ولا تقل لمصطفى جواد، وأخطاؤنا في الصُّحف والدواوين لصلاح الدين الزعبلاوي وغيرهم[٢]. ولكن كل تلك الجهود لم تؤدِّ إلى النتيجة التي كان يتوخاها مصنفو تلك الكتب، ليس لضعفٍ فيهم وإنما لأمرين:

أ- أنَّ اللغة واسعةٌ وتحتمل من الوجوه مايُسَوِّغ كثيراً مما يُخطِّئه بعض المتشدِّدين؛ «قال الخليل بن أحمد: لغة العرب أكثر من أن يلحن فيها متكلم»[٣]. والناظر في المعاجم العربية واجدٌ من الجوازات وتعدُّد اللغات ما يدفع عنه الكثير مما قد يُخَطَّأ به.

ب- أنَّ تلك الأقوال والأحكام التي أطلقت في التَّخْطئة والتَّصحيح تَتَخارَجُ، فينفي بعضُها بعضها الآخر، فما خطَّأهُ لغويٌّ أجازه آخر، والعكس صحيح. ومن أمثلة ذلك عند القدماء:

---

(١) د. رمضان عبد التواب – لحن العامة والتطور اللغوي: ٩٧- ١٠٠ (نقلاً عن د. محمد ضاري حمادي – حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث، ص١٦ وما بعدها).

(٢) د. محمد قاسم الزوكاني – مقاييس التصحيح اللغوي في القديم والحديث – رسالة دكتوراه: ٥٠٦.

(٣) ابن هشام اللخمي: المدخل إلى تقويم اللسان: ١٠ (نقلاً عن د. عبد الرحمن إسماعيل – مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج٥٨- ع٤ ص٧٨٦ – ٧٩٤).

- «كان ابن الأعرابي يُنْكر مَجيءَ (فَعيل) بمعنى (مُفْعَل)، فينكر السَّليم بمعنى المُسْلَم... وقد جاء ذلك كثيراً، مثل (سَخين ومُسْخَن وعَتيق ومُعْتَق...»[١].

- قال أهل اللغة: «وقع المطرُ على الأرض، ولا يقال سَقَطَ... وقد حكاه سيبويه فقال: سقط المطر مكان كذا.»[٢].

- قال الحريري في درة الغواص: «يقولون للقائم (اجْلِس)، والاختيار على ما حكاه الخليل بن أحمد أن يقال لمن كان قائماً (اقْعُد)، ولمن كان نائماً أو ساجداً (اجْلِس)[٣]، وأجاز البغدادي قول الناس للقائم إذا قعد (جَلَسَ)، ويوافقه في هذا التجويز ابن الحنبليّ[٤].

- ومن ذلك ما ذكره الحريري من أهل اللغة فرَّقوا بين القيمة والثمن فقالوا: «القيمة ما يوافق مقدار الشَّيْء ويعادله. والثمن ما يقع التراضي به ممَّا يكون وفْقاً له أو أزيد أو أنقص»[٥]. ولكن الخفاجي شارح كتاب الحريري أجازه[٦]. وقال الفيومي في المصباح المنير «ووقوعهما بمعنى لا يَضُرّ»[٧].

- وفرَّق الجواليقي صاحب كتاب التكملة فيما تلحن فيه العامة، بين (العام والسَّنة)، فردَّ عليه ابن بري مُجَوِّزاً، قال: «العام والسنة والحَوْل والحجة عند العرب بمعنى»[٨].

---

(١) ابن منظور – لسان العرب: سخن.

(٢) المصدر السابق: وقع.

(٣) الحريري – درة الغواص في أوهام الخواص: ٨٨.

(٤) ابن الحنبلي – بحر العَوَّام فيما أصاب فيه العوامّ: ١٩٥.

(٥) الحريري – درة الغواص: ٥٥ (طبعة توريكية).

(٦) الخفاجي – شرح درة الغواص: ٨٩.

(٧) الفيومي – المصباح المنير ٢: ٥٢٠.

(٨) عن د. أحمد قدور – مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي: ١٤٧.

ومن أمثلة تَخَارُجِ الأحكام عند المحدثين:

- أجاز الشيخ مصطفى الغلاييني الأفعال المزيدة (احتار، اختشى، افتهم، اقْتَبل)، وأنكر عليه صلاح الدين الزعبلاوي ذلك[١].

- منع إبراهيم اليازجي الأفعال (أساق بمعنى ساق، وألام بمعنى لام)، وقال الزعبلاوي: وكلاهما صحيح[٢]. مع أن منهج الزعبلاوي قريب إلى منهج اليازجي في التشدُّد. التشدُّد.

- خطَّأ مصطفى جواد قولهم (رَجُلٌ رَجْعيّ) بفتح الراء، أي متمسِّك بالأمور القديمة التي لا تساير روح العصر، فقال: هذه النسبة خطأ والصَّواب (رُجوعيٌّ أو رُجْعيّ) بضم الراء، ولكن مؤلفي المعجم الوسيط جوَّزوها[٣].

- خطَّأ أسعد داغر من يقول: (انكدرَ عَيْشُه)، بحجة أن الفعل (انكدر) لم يسمع قط، ولكن د. أميل يعقوب صوَّب هذا الفعل[٤].

وما ذكرناه وَشَلٌ مما تضمُّه كتب التصحيح اللغوي، ولو أراد القارئ مزيداً لعددنا من الأمثلة مالا يعجزنا وما يُمله. وعلى أي حال فكتب التصحيح اللغوي مبذولةٌ لمن أراد وهي بضاعة مزجاة. ولكنَّ الواضح أن تلك الكتب على كثرتها لم يكن لها أثرٌ يذكر في تحسين الأداء اللغوي لما ذكرنا من الأسباب، حتى إن بعض المصحِّحين كان يقع في الخطأ الذي سبق أن نبَّه عليه، من ذلك أن اليازجي كان يخطِّئ جمع (مجد) على أمجاد، لأنه مصدر، والمصدر لا يجمع إلا إذا سمع[٥]، ومع ذلك فقد جمع (غَلَط) على أغلاط وهي كذلك

(١) صلاح الدين الزعبلاوي – أخطاؤنا في الصحف والدواوين: ٢٤.

(٢) المصدر السابق: ٧.

(٣) محمد العدناني – معجم الأخطاء الشائعة: ١٠٨ وينظر المعجم الوسيط: رجع.

(٤) د. اميل يعقوب – معجم الخطأ والصواب في اللغة: ١٤٥.

(٥) إبراهيم اليازجي – لغة الجرائد: ٣٧.

مصدر لم يسمع جمعه!!

والعلة في ذلك واضحة إذ سار اليازجي في تخطئة (أمجاد) على قواعد بعض النحويين، وسار في استعماله (أغلاط) على سلائق اللغويين.

ولا نكاد نجد القوم متفقين على ما خطَّأ بعضهم، فما من كلمة أو عبارة خلافية حُسِمتْ لصالح فريق، والأصل في هذا كما قدَّمنا أنَّ ثمة فريقاً يتشدد فلا يقبل إلا ما صح عنده بالسماع والنَّقْل ولو كان سماعه واستقراؤه ناقصاً، وفريقاً آخر يتسمَّحُ، إما لأنه وصل إليه مالم يصل إلى غيره، أو لأنه يُحَكِّم مع السَّماع والنقل قوانين التطور اللغوي كالمجاز والتضمين والشيوع، وهي أبوابٌ واسعة في العربية لا يدرك شأوها.

ومما زاد في الطين بلَّه دخول بعض الهواة على التَّصْنيف في التصحيح اللغوي، علماً بأنَّ مثل هذه المهمة لا يجوز أن يتصدَّى لها إلا من قد تضلَّع من علوم اللغة العربية وصار بمنزلة الحكم خبرةً وجياداً. كما دخل الحَلَبَةَ بعض المتفقهِّين الذين تجاوزوا التخطئة والإجازة إلى التحريم والتحليل مُدَشِّنين سَلَفِيَّةً لغويةً ترفض أن يقال عن المتوفَّى (المرحوم فلانُ) والصواب عندهم (فلانٌ رحمه الله)، بحجة أننا استبقنا تقرير الرحمة وهي لله وحده سبحانه. ولكنهم نسوا أن العرب تُسمِّي اللديغ سليماً وتقول للذاهب للجهاد (منصوراً) تفاؤلاً، وتقول للمريض: (مُعَافَى)، مع أنه لا أحد ينكر أن هذه كلها في علم الله وحده وتقديره. فالله المستعان! ولم يعد سبب الخلاف بين المحدثين هو السَّماع بعد أن بعد عهدهم به، بل صار سببُه اختلافَ مرجعياتهم، فبعضهم يُعَوِّل على أقوال النحاة، وثان على أقوال اللغويين، وثالث على لغة الأدباء، ورابع على آراء الأصوليين، وخامس على المعاجم..

٥) وأيّاً كان موقفنا من شروط الصواب ومسوِّغات التجويز، فلابُدَّ أن يضاف إلى تلك الشروط والمسوِّغات شرطُ الشيوع والاستعمال. لا نريد بهذا أن يكون الشيوع هو الأساس في الحكم على إجازة كلمة، ولكنَّ تجاهله مخالفٌ لمنطق اللغة التي نعرف أنَّ لها

منطقاً خاصَّاً لا هو بالقياسي دائماً ولا هو بالسَّماعي مطلقاً، ومن ذلك:

أ- الأصل في كل صفة مشتركة بين المذكر والمؤنث جواز تأنيثها أو تذكيرها فيقال: طويلٌ وطويلة، وأسمر وسمراء... ولكنَّ العرب استعملت صفات بالتأنيث دون التذكير، فقالت (نَكْراء) ولم تقل (أنكر)، وقالت (فتاة عذراء) ولم تقل (فتى أعذر)، وبالمقابل فقد قالت (رجل أشأم ولم تقل امرأة شأماء)، وقالوا (ضَرَّاء) ولم يقولوا (أَضرّ)[١].

ب- الأصل أن الصفة إذا أطلقت دلت على من اتصف بها ذكراً كان أم أنثى ولكن العرب قالت: «العَوْكل: المَرْأَة الحمقاءُ.. والرَّجُل القصير الأفجح»[٢]، وقالت: «العُلَطُ: الطِّوال من النوق والقِصار من الحمير!!»[٣].

ج- من دلالة بناء (تَفَعَّل) الاتصاف بالشَّيْءِ واكتسابه نحو (تعبَّد وتعلَّم)، ولكن هذا البناء جاء في كلمات بعكس دلالتها القياسيَّة المعروفة: فالتَّأَثُّم هو الابتعاد عن الإثم، والتحرُّج: الابتعاد عن الحَرَج، مما جعل الأزهري صاحب تهذيب اللغة يقول: «وهذه حروفٌ جاءت معانيها مخالفةً لألفاظها»[٤].

د- القياس في تصغير أزهر: (أزيهر)، ولكن العرب قالت معه، وشاع أكثر: (زُهَيْر). والقياس في التفضيل من الخير والشر (أخير وأشرّ)، ولكن العرب قالت معها، وشاع أكثر: (خَيْرٌ وشَرٌّ).

هـ- قد تشيع الصيغة المفضولة لكلمة ويقصر حظُّ الفُضْلى:

- شاعت كلمة (الشَّعْر) بسكون العين وهي مرجوحة (بالشَّعَر) بفتحها.

---

(١) ابن منظور – لسان العرب: سوا، شأى.

(٢) ابن منظور – لسان العرب: عكل.

(٣) المصدر السابق: علط.

(٤) المصدر السابق: حرج.

– شاعت كلمة (الفَرْع) للقِسْم، بسكون الراء وهي مرجوحة (بالفَرَع)، بفتحها.

– شاعت كلمة (الوَحْل) للطين، بسكون الحاء وهي مرجوحة (بالوَحَل) بفتحها مما جعل الأزهري يقول عنها: «هي لغة رديئة»[١].

ومن الجدير ذكره أنَّ كل تجويزات مجمع القاهرة كان من مسوغاتها القياس أو الشيوع، فقد أقرَّ المجمع المذكور (من سنة ١٩٣٤ إلى سنة ١٩٨٧) مايزيد على ثلاث مئة وعشرين كلمة كان غلبة الشيوع وراء معظمها من مثل: (القُنْبلة) للقذيفة المتفجرة دون أن يكون لها أيُّ صلة بدلالتها التراثية[٢]، وكلمة (التأميم) بمعنى جعل الشَّيْء مُلْكاً للأمَّة[٣]، و(المقاول) بمعنى متعهِّد العمل[٤]. وما أقرت تلك الكلمات عن عبثٍ، وإنما عن بحث وتقصٍّ وموازنة بين أحكام القواعد الأصولية وضرورات الاستعمال ودواعي الشيوع. فهل نضرب بكل تلك الجهود عرض الحائط؛ لأنَّ هذه الكلمة لم ترق للغويّ، وأنَّ تلك اعترض عليها لغويٌّ آخر؟ لا يعني كلامنا هذا تعظيم شأنِ من جَوَّز، ولا الحطَّ من عِلْم من اعترض، فهما تياران قديمان في لغويِّينا. أما أن يُزْرَى بجهود مؤسسات لغوية عريقة وجادَّة وأن يَحْمل عليها حتى بعض من لم يقرأ قراراتها لا لشيْءٍ إلا لأنَّ فلاناً من المتشددين لا يجيز ما أجازت، فليس هذا مما يخدم اللغة وتطورها ونماءها.

٦) لا يختلف كلا الفريقين على أنَّ متطلبات الحياة المعاصرة تُلْجِئنا إلى إدخال دلالات جديدة لمفردات قديمة أو إدخال مفردات جديدة لها. ومن ذلك على سبيل المثال[٥]:

– ليس في معاجم العربية (سَجَّل) بمعنى (كتب وقيَّد)، إنما فيها: «السِّجلُّ: الصَّكُّ والتسجيل الاستيثاق.» فهل نستطيع اليوم الاستغناء عن الفعل (سجَّل) وسائر تصريفاته

(١) المصدر السابق: وحل.

(٢) مجمع القاهرة – القرارات المجمعية في الألفاظ والأساليب: ٢٣.

(٣) المصدر السابق: ٣٣.

(٤) المصدر السابق: ٤٣.

(٥) ينظر: ابن منظور – لسان العرب: سجل، دفع، قشش – حضر.

في استعمالاتنا الإدارية والتجارية؟

- ليس في دلالة الفعل (دَفَع) ما يدل على تسديد ثمن البضاعة أو الأجر، وهي الآن طاغيةٌ على الاستعمال، ويندر اليوم من يتعاطى بدائلها: (نَقَد وسَدَّد وأدَّى)؛ فهل بإمكان المصطلحات الحالية الاستغناء عنها؟

- ليس في اللسان (القَشَّة) بمعنى العُوَيْد الصغير من جذوع القمح أو الشعير، والمثل الشائع بين الخاصة عن السبب المباشر للأمر يقول: (هو القشَّة التي قصمت ظهر البعير). فهل يمكن الاستغناء عنها في حقل الزراعة والنبات والبيئة؟

- ليس لكلمة (المحاضرة) في العربية التراثية ما نطلقها عليها اليوم من معنى (الدرس أو مجلس العلم)، فهل بإمكاننا الاستغناء عنها أو إقفال معاجمنا الحديثة دونها، وهل في فتح الأبواب لها ما يَشين؟

وتستطيع أن نعدِّد المئين من الكلمات التي تحتاج إلى إقرار دلالات جديدة لها، والمئين من الدلالات التي تحتاج إلى مفردات وكلمات جديدة لها، وهي كلمات أو دلالات فرضتها ضرورة الاستعمال ودواعي الاتصال وعَمَّمها الشُّيوع والسَّيرورة.

* إننا بعد ما قدمنا من مصارحات **ندعو إلى مصالحة بين المتشددين والمتسمِّحين، جوهرها أن يخفِّف المتشدِّدون من تشدُّدهم، فلا يخطِّئون كلَّ مالا يروقهم أو لا يجدون له وجهاً عندهم، بل يَعَدُّونه جوازاً ورخصة لمن أرادَ. وألا يَشْتطَّ المتسمِّحون في تجويزهم ما يخالف خصائص اللغة ومقتضيات التطوير والتنمية اللغوية.** «يجب التفريق بين ما هو خطأ وانحرافٌ، وما هو توليد وتجديد وتطوُّر، فكلاهما حدث جديد في اللغة وتبديلٌ في بعض ظواهرها، ولكن الخطأ تبديلٌ يخالف خصائص اللغة والتطور وسنن نموِّها وقاموس حياتها وقواعد فطرتها ويخلُّ بنظامها. أما التجديد والتطور فهو تبديل وإحداثٌ يجري وفقاً لسننها، وينساق مع فطرتها، وينقاد لقواعدها ويوافق روحها وخصائصها.. **إن إحياء اللغة منوطٌ بتحريرها من الجمود والعقم من جهة ومن الفَوْضى والخروج على قواعد اللغة من جهة أخرى.**»[1].

(١) محمد المبارك – خصائص العربية ومنهجها في التجديد والتوليد (محاضرات ألقاها المؤلف بمعهد

نحن لا نريد وليس بمكنتنا تذويب هذه الخلافات، ففي التَّنَوُّع والتعددية غنى للغة عامة، وللبحث اللغوي خاصة، ولكن نريد أن يَتَقَبَّل كلُّ طرف آراء الطرف الآخر على أنها جائزة وإن كانت مرجوحة في نظره، وأن يكون موقف اللغويين كموقف الشافعي في مقولته المشهورة: قولي- في أحسن أحواله- صوابٌ يحتمل الخطأ، وقولك خطأ يحتمل الصواب. فإذا كان اختلاف الفقهاء رحمة للمسلمين فليكن اختلاف اللغويين كذلك، فيشفع لنا بعضهم فيما يخطئنا به آخرون، وليكن شعارنا ألاَّ نُخَطِّئ أو نحكم بالشذوذ على ماله وجه من القياس. ما نريده ألا ينتقل الخلاف إلى اختلاف فنزاع فصراع - يُجهِّل فيه بعضُنا بعضنا الآخر ويُسَفِّه فريق منا الفريق المقابل، بل نكتفي من الخلاف بتبيين وجهة النظر التي يؤدي إليها بحثنا على أنها لغةٌ راجحةٌ وفُضْلى، وأن غيرها مفضولٌ وليس أكثر «**لأنَّ ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم**»[(١)]، **ولعلَّ من هذا الأفق كان يطل الكسائي عندما قال: «على ما سمعْتُ من كلام العرب ليس أحدٌ يَلْحنُ إلا القليل**»[(٢)].

أليس من المضحك- وشر البليّة ما يضحك- أن نظل مختلفين حول (هاتف ومهتاف) حتى هرب الناس إلى (التلفون) الأعجمية؟.

أليس من المؤسف أن نتخاصم حول صوابيّة (حاسوب وحاسب وكبتار ونظَّامة) حتى فرَّ الناس إلى كمبيوتر؟

أليس من السُّخف أن نتراشق التَّجهيل حول ضبط (كُلُّ عام وأنتم بخير، وكُلَّ عام وأنتم بخير، وأنتم بخير كل عام...) حتى إننا لنكاد نُفْسد فرحة العيد. وأخيراً أليس

الدراسات العربية العالية في جامعة الدول العربية، سنة ١٩٦٠).

(١) ابن جني – الخصائص ١: ٣٥٧. والعبارة لأبي عثمان المازني.

(٢) ابن هشام – المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان: ٤، (عن د. أحمد قدور – مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي: ٦٦).

صحيحاً ما يقال **من أن من أسباب انتشار العامية تشدُّد اللغويين؟**[١]

وبعد فنرى أننا في كلِّ ما ذكرنا في هذا الباب لم نأت بجديد، وآيةُ ذلك ما رُوي من أنَّ رجلاً قال للخليل: «**أخبرني عما وَضَعْتَ مما سَمَّيْتَه عربيَّة أيَدْخُل فيه كلام العرب كله؟ فقال لا، فقال: كيف تصْنَعُ فيما خالفَتْك العربُ فيه وهم حُجَّةٌ؟ فقال: أحملُ على الأكثر، وأسمِّي ما خالفني لغات**»[٢]. كما أنَّ القاعدة اللغوية الأصولية «**أن لغاتِ العرب كلها حُجَّة**»[٣]، فلنجوِّز ما نراه مرجوحاً مادام له وجهٌ في لغة من لغاتهم.

الثالثة: المصالحة بين دعاة التعريب وأنصار التغريب:

ما نعنيه بالتعريب –هنا– التعليم بالعربية في المراحل الدراسية كافة، ولا نعني به ما قد يتبادر إلى أذهان بعضهم من معنًى سياسيٍّ تُشْتَمُّ منه رائحة تعصُّب قومي. كما نعني بالتغريب جعل اللغة الأجنبية لغة تعليم في مدارسنا وجامعاتنا، لا ما قد يتبادر إلى أذهان بعضهم من معنى سياسي تُشْتَمُّ منه رائحة التبعية واللاقومية؛ لأن بحث المسألة بغير هذين المفهومين اللذين ذكرنا يدخل في إطار السياسة، ونحن نصر هنا على البقاء في إطار اللغة، وعلى الرغم من التداخل بين ماهو سياسي وماهو ثقافيّ ولغويّ، فإننا نحاول أن ننأى بأنفسنا في هذا المقام عن ذلك التداخل ما أمكننا النأي. ولسوف يأخذ البحث في هذه المسألة منحىً فكرياً ثقافياً أكثر منه لغوياً صرفاً كما في المسألتين السابقتين.

وهذه المسألة الإشكالية من أبرز القضايا الثقافية المعاصرة، وطالما احتدم النزاع بين دعاة التعريب وأنصار التغريب مما جعل الإشكالية مزمنة تراوح في مكانها لا تريم.

وأنا مقدِّم بين يدي هذه المصالحة المصارحات التالية:

١) اللغة العربية – بالنسبة إلى العرب – هويَّةٌ ووجود ثقافي وحضاري. ولا معنى

---

(١) عبد الله العلايلي – مقدمة لدرس لغة العرب: ٦٠.

(٢) المصدر السابق: ١٩٧ وسعيد الأفغاني – في أصول النحو: ٧٣.

(٣) السيوطي – المزهر في علوم اللغة ١: ٢٥٧ – ٢٥٨.

لأيِّ تقدُّمٍ علميٍّ أو تقاني إذا خسرنا وجودنا الحضاري المتمثل أولاً باللغة. فلم يبق لنا نحن العرب من جامع يجمعنا – بعد ضروب الاختلافات حول كل شيء – إلا اللغة العربية. إنها الحصن الأخير للدفاع عن وجودنا كأمة. أما الذين يربطون الهويَّة بعناصر أخرى فهم يحيلون إلى خواء. والمعروف أنه لا ينسب إلى الأمة من حضارة أو ثقافة إلا ما كتب بلغتها، إنَّ علوم ابن سينا من مكونات الحضارة العربية الإسلامية، ليس لأن الشيخ الرئيس كان عربياً – ولا يضيره ألاَّ يكون كذلك، فهو مفخرةٌ لقومه ولنا – بل لأنها كتبت بالعربية. في حين يُعَدُّ كتاب (النبيّ) لجبران خليل جبران من مكونات الحضارة الإنكليزية، ليس لأن مؤلفه إنكليزي، بل لأنه كتبه باللغة الإنكليزية أصلاً، بينما تعد كتبه الأخرى التي كتبها بالعربية من الثقافة العربية. الحضارة لغة، والثقافة لغة. ترى لو لم ينقل أجدادنا العلوم إلى العربية، هل كان بإمكاننا أن نجد في كتاب سارتون الشهير (مقدمة في تاريخ العلم) نحو خمسين عَلَماً من رواد الحضارة الإنسانية يُحْسَبون للحضارة العربية، وأن يطلق على النصف الأول من القرن الثالث عشر عصر الترجمة من العربية إلى الأوربية[1].

ويندر أن نجد أمة كان لها حضارةٌ بغير لغتها، وإذا كان لها ذلك فسوف تحسب إنجازاتها لصالح حضارة الأمة التي كُتِبَتْ بلغتها.

إن الحفاظ على وجود الأمة مقدَّم على أي مطلب آخر وهو فَرْض، إذا خسرنا التقدم العلميّ فقد نستدركه ولو بعد حين، ولكن إذا خسرنا وجودنا كأمة فلن تعود لنا أبداً، إذا خسرنا لغتنا هويتنا فمن نكون؟ لن يبقى لنا اسم إلا (شعوب الشرق الأوسط، أو شعوب شمالي إفريقيا) وهو ما يسعى إليه من لا يريد لهذه الأمة البقاء.

٢) إن التقدُّم العلمي والتقاني لهذه الأمة هو هدف كُلٍّ من الفريقين ومطمحهما؛ إذ الحفاظ على الأمة وتلبية احتياجاتها واجبٌ، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجبٌ. ولكنَّ دعاة التعريب يرون أن توطين العلم بلغة المجتمع هو الطريق الأمثل لبلوغ تلك الغاية في

(١) عن: مجلة علوم وتكنولوجيا – الكويت – العدد ٢٩: ١٨.

حين يرى الفريق الآخر تَلَقُّفَ العلم بلغته هو الطريق الأسرع لذلك. إننا نبغي من هذا أن نرفع الإصْرَ عن الفريقين، فلا يجوز التشكيك في عقلانية وعلميَّة وتقدميَّة من يدعو إلى التعريب، كما لا يجوز التشكيك في قوميَّة أو وطنيَّة من يدعو إلى التعليم بالأجنبية، فكلاهما يهدف إلى التقدم العلمي والحضاري لهذه الأمة، ولكن بوسيلة يراها أقرب إلى الصواب وطالما تراشق الطرفان هاتين التهمتين في تنازعاتهما.

٣) إنَّ الحلَّ النهائي لإشكاليَّة التعريب أو إشكاليَّاته هو أن نصبح منتجين للعلم والتقانة، إذ المعروف أن الأمم المتقدمة - غربيَّةً وشرقيَّةً - قد سبقتنا وفرضت علومها وإنجازاتها ومصطلحاتها، ونحن بحاجة إليها وإلى لغاتها، وسوف نظل مستوردين للغات تلك الأمم ومصطلحاتها مادمنا نستورد منها العلم والتقانة، ولن تحل إشكالية التبعيَّة الثقافية عندنا إلا بحل إشكالية العلم العربي والتقانة العربية، فالاستقلال اللغوي يتطلب الاستقلال العلمي، ليس بمعنى الانعزال عن علوم الآخرين بل أن يكون لنا علماؤنا الذين يفكِّرون بالعربية ويصطلحون بالعربية ويكتشفون بالعربية. ولكن إذا كنا لا نرضى أن يُضَحَّى بالعلم على مذبح اللغة فإننا لا نرضى أن يُضَحَّى باللغة على مذبح العلم، لا يجوز أن نجعل الأمرين متناقضَيْن، بل نجعلهما متكاملَيْن.

٤) ليست لغة العلم هي التي تصنع التقدم أو تعرقله، فالقائلون بربط التقدم العلمي والمعرفي باللغات الأجنبية واهمون، والقائلون بربط التقدم العلمي باللغة الوطنية وحدها واهمون أيضاً، ومصداق قولنا أن في الوطن العربي أقطاراً تدرس باللغة الأجنبية من المرحلة الابتدائية وحتى الدراسات العليا، وأقطاراً تدرس العلوم بالعربية في مراحل التعليم كافة، فما وجدنا المتعلمين باللغة الأجنبية يبزُّون أقرانهم من المتعلمين بالعربية ولا العكس، ذلك أنَّ التقدم العلمي والتقاني حصيلة بيئة علمية متكاملة من أهم عناصرها العقلانية والموضوعية والحرية، وقيم الإبداع والتجديد والفرادة...

٥) إذا كانت حُجَّةُ أنصار التعليم باللغة الأجنبية التسهيلَ على الطلبة في متابعة الدراسات العليا باللغة الأجنبية، وهو ما رآه ٥٨٪ من أساتذة كلية العلوم في جامعة الكويت بحسب دراسة ميدانية[١]، فإن حُجَّةَ أنصار التعليم بالعربية التسهيل على الطلبة في استيعاب المادة العلمية، وهي حجة أقرَّتْها الجامعة الأمريكية في بيروت، فقد بيَّنت دراسة ميدانية فيها أنَّ طلابها الذين درسوا مقرّراً بالعربية استوعبوا ٧٦٪ من المادة العلمية، في حين استوعب الذين درسوا المقرَّر نفسه باللغة الأجنبية ٦٠٪ منها[٢]. وأكَّدت هذه النتيجة دراسة في جامعة الإمارات العربية المتحدة إذ إنَّ ٨٣٪ من الأساتذة فيها يرون أنَّ الطلاب أقدر على استيعاب المادة المدروسة باللغة العربية.

أما عن متابعة الدراسات العليا في الجامعات الغربية، فقد ذكرت دراسة أنه تقدم عام (١٩٩٧) إلى امتحان دخول الجامعات الأمريكية (١٠٥٢) طالباً من كل البلاد العربية ومعظم هؤلاء ممن درسوا باللغة الإنكليزية في جامعاتهم العربية، فكانت نسبة الناجحين هي ١٥٪ من المتقدمين. ولكن تبيَّن في الدراسة نفسها أن الدرجات التي نالها الطلبة المعرَّبون الذين تخرجوا من الجامعات السورية أعلى من درجات زملائهم العرب، مع أن المعرَّبين قدَّموا الامتحان باللغة الإنكليزية[٣].

وإذا كانت حجة أنصار التعليم بالأجنبية أن التعليم بالعربية يُبْعِد الباحثين والأساتذة عن المشاركة في البحث العلمي، فإنَّ دعاة التعريب يميلون إلى إحصائيات البنك الدولي – بما لها وما عليها- والتي تبيِّن «أنَّ الباحثين والعلماء في البلدان العربية في

(١) د. نجاة المطوع – التعريب ومشكلة استخدام الانكليزية بجامعة الكويت – المجلة التربوية بجامعة الكويت ع١٥: ٧٧.

(٢) شحادة الخوري – دراسات في التعريب والترجمة والمصطلح: ١٩٨.

(٣) د. أحمد محمد سليمان – تعريب التعليم العالي ضرورة علمية – مجلة كلية الطب بالرياض ع٢: ١٣٠.

مجموعها قد نشروا (٣٤١٦) بحثاً أو مقالاً علمياً في عام (١٩٩٩) مقابل قيام العلماء والباحثين الإسرائيلين بنشر (٥٠٥٢) مقالاً أو بحثاً علمياً في العام نفسه»[١]. مع أن الإسرائيليين درسوا العلوم بلغتهم العبرية، وأنَّ معظم العرب درسوا باللغات الأجنبية، ناهيك عن الفارق العددي الضخم بين الطرفين. وبالطبع فإن للبحث العلمي شروطاً أخرى أهمها التمويل والبيئة العلمية، ولكنَّ هذا الرقم ينزع ورقةً من يدِ مَن يريد أن يربط البحث العلمي باللغات الأجنبية.

ويجدر التنبُّه إلى نقطة هامة يتداولها بعضهم من أنَّ التعلُّم باللغة الأجنبية ذو فائدة ومردودٍ لصاحبه، وهو قول لا يخلو من الصحَّة، ولكن الأمَّة ككل هي التي تخسر. ومما لاشكَّ فيه أنه إذا تعارضت مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة، فإنَّ مصلحة الجماعة هي الخيار الأفضل.

٦) لابدَّ من الإقرار بأنَّ التعريب ما يزال مسألةً خلافيةً عميقةً في المؤسسات التعليمية العربية وأن فريقاً من أساتذة الجامعات ومن المثقفين لسبب أو لآخر تعارض التعريب وإن بدرجات متفاوتة[٢]. ففي دراسة أجريت في جامعة الإمارات العربية تبيَّن أن ٤١.٢٪ من الأساتذة يرون أنه ليس ثمة قناعةٌ لدى مؤسسات التعليم العالي بالتعريب[٣]. وفي جامعة الكويت دلت دراسة أخرى أن ٥٥٪ من أساتذة كلية العلوم فيها هم مع التعريب[٤]، ولا تختلف هذه النسب كثيراً عن مثيلتها بين الطلبة أنفسهم. لا نريد الخوض

(١) د. صالح بلعيد – البحث العلمي في الدول العربية والحلقات المفقودة – مجلة التعريب ع٣٢: ١٧٤.

(٢) لمزيد من التفصيل حول حجج كل من الفريقين؛ ينظر: د. ممدوح خسارة – التعريب والتنمية اللغوية: ٣٩- ٩١.

(٣) د. سعيد عبد الله حارب – تعريب التعليم العالي وأثره في مستقبل العربية – المجلة العربية للثقافة ع٢٢: ٣٧- ٤٦.

(٤) د. نجاة المطوع – التعريب ومشكلة استخدام الانكليزية بجامعة الكويت – المجلة التربوية بجامعة الكويت. ع١٥: ٧٧.

في العلل والأسباب، ولكنَّ الواضح أن المسألة لم تحسم بعد ثلاثين سنة من قرار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية بأن يكون عام (٢٠٠٠) هو عام التعريب الكامل في الجامعات، وبعد أكثر من عشرين سنة على قرار المجلس الأعلى لدول مجلس التعاون الخليجي بتعريب التعليم الجامعي. وإذا كانت الحال كذلك في جامعات لم تحسم فيها مسألة التعريب بَعدُ، فإننا لا نعدم في الجامعات المعرَّبة –كما في السورية والسودانية– أصواتاً ترتفع بين الفينة والأخرى تنعي تدنِّي المستوى العلمي فيها وانقطاعها عن التواصل العلمي العالمي.

* وبعد... فإذا كان لا غنى لنا عن اللغة العربية لحفظ هويتنا ووجودنا، ولا غنى لنا عن اللغات الأجنبية لتحصيل علوم العصر والتواصل مع منتجيها، وإذا كانت حُجَجُ كُلٍّ من فريقي دعاة التعريب وأنصار التغريب تَتَخارَجُ فينفي بعضها بعضها الآخر، وإذا كان لا أحد يعارض تدريس العلوم الإنسانية بالعربية، **فلنتصالح على طريقة وسطى تقوم على التعليم بالعربية في كلِّ المراحل ما قبل الجامعية وأن يكون التعليم الجامعي في الكليات العلمية مزدوجاً، لا نعني بالازدواج أن يكون ثمة شُعَبٌ معرَّبةٌ وأخرى مغرَّبة بل أن تكون العربية لغة التعليم الأساسية فيها، على أن يدرس الطلاب ٣٠٪ من المقررات العلمية باللغة الأجنبية بصورة تامَّة ويقدم الامتحان بها كذلك، وبذلك يجمع الطالب بين إتقانه العلوم بالعربية والأجنبية. أما في الكليات الإنسانية فيدرس الطالب ١٥٪ من المقررات باللغة الأجنبية كذلك**. وبذلك نكون قد جمعنا بين الحسنين وتقتضي مثل هذه الطريقة أن يُدَعَّم تدريس اللغات الأجنبية في المدارس الثانوية تأسيساً لتمكين الطالب من متابعة مقررات جامعية بها.

ملحق (١)

كلمات عامية فصيحة

- أبَّ (نَهَضَ)
- أُبَّهة
- أخَّ
- أوادم
- أدَّم
- آرَشه
- أَرَم القلم
- أزَّ الماء
- الأُشكلة
- الأُكْرة
- أهَّل به
- الأواعي
- الأَوان
- الأُوْقِيَّة
- بَجَّ الدُّمَّل
- تَبَجْبَح
- البَخْت
- مَبْخوع
- بَدَيْت بالشَّيْءِ
- البَرْبَرة في الكلام
- البَرَّاجة والبَصَّارة
- البريَّة
- البرَّاني
- البِرْطيل
- البَرْطَمَة
- البريم (العقال)
- البزور (للأولاد)
- البِزْر
- بَسْ (يكفي)
- مَبْسوط
- البشارة
- بَطَحه
- بَطَّال
- بَعَج الكيس
- بَعْزق ماله
- البُعْبُع والبَعْبَعَة
- يتبَغْدَد
- بقَرَ بَطْنَه
- بَقْبق الماء
- بُكْرَة
- بَلَّط
- البَلْطة (للفأس)
- البَنْج
- باهِتْ
- بَهَّر
- أرض بُور
- باس يَدَه (قبَّلَها)
- البُوش (الجماعة)
- بَوَّاق (سرَّاق)
- البال (الحال والخاطر)
- مَبْيوع
- بيضان وسُودان

ملحـق (٢)

ألفاظ شائعة مطعونٌ فيها لدى بعضهم

- القَيِّم (النَّفيس)
- التقاليد
- الانضباط
- التطويع
- المحاضرة
- الجامعة
- التهريج
- التشخيص
- التَّجسيد
- ساهم –مساهمة
- تجّمْهر
- الظاهرة
- الكتلة
- الجلطة
- تنموي
- تربوي
- تعبوي
- جبهوي
- وحدوي

- تجميد الأموال
- المؤشِّر
- التَّأشيرة
- قُنبلة
- الجيل
- السَّميك
- الشَّقيّ
- التأميم
- التدويل
- التَّصنيع
- التركيز
- الشهيَّة
- الثقافة
- قَصْف المدافع
- أثاث البيت
- الجَرْد
- التصفية
- التَّوعية
- الكوز

- الجسر
- الرصيف
- الواسطة
- أنجب ولداً
- مليء
  بمعنى مملوء
- كل عام وأنت بخير
- التوصيف
- المواصفات
- عديدة
- المديونية
- عزَفَ لَحْناً
- أمعن النظر
  بمعنى أنعم
- التَّكلفة
- المناورة
- التَّسَيُّب
- الأنشطة
- المنضدة

- الموسوعة
- فحص
بمعنى اختبر
- العِمالة (للعمال)
- شَطَف
- الحسَّاسية الشَّفَّافية
- الأنانيَّة
- الفَعَّاليَّة
- كَسُول
- اللصق واللاصق
- الحياد والتحييد
- تمشيط المكان
- التحوير
بمعنى التغيير
- التَّسْييس
- مصداقية
- التَّصَحُّر
- التَّحْديث
- التَّطبيع
- المشبوه
- المرابي
- مُرْبك
- إِشهار
- تَشْجُب
- البَرْمَجَة
- تكاتفوا
- الفَشَل
- الغيرية
- السِّباكة (حرفة)
- الواسطة
- اسْتَهدَف
- التَّعْتيم
- انعدم الشيء
- أعدَمَ المجرمَ
- الهروب
(بدل الهرب)
- الصُّمود (للثبات)
- التأرجح
(بدل التَّرَجُّح)
- الأُقْصوصَة
- المُنْتزه
- سار عبر البحار
- سَداد الدين
- استجمع قواه
- اسْتَعْرض
- اسْتَقْطَب
- رصد مالاً
- القيد
(بمعنى التقييد)
- الصُّدْفه (للمصادفة)
- التَّصويب (التصحيح)
- الأمسِية
(بدل الأمسيَّة)
- شَفُوف
- تغطية الخبر
- أمام خيارين
- أكَّد على
- تَحْجيم
- طَمَّن (هَدَّأ)
- الطَّابق (للبناء)
- الرَّفرف والرفراف
- الجَدْوَلة
- المَنْهجة
- زهور (أزهار)
- تَماهَى
- انْعَدَم
- يَهْدف إلى
أضرب وإضراب

مجالي الأدبِ المؤدّب في الفصول والغايات

لأبي العلاء المعرّيّ

أ.د. عيسى علي العاكوب

عضو المجمع(*)

تقصد هذه الورقةُ إلى إبراز بعض ملامح ما نسمّيه "الأدب المؤدّب" في كتاب الفصول والغايات لأبي العلاء المعرّيّ. وتنطلق أساسًا من فَرْضيّة تبدو على قدر كبير من الأهميّة، وتتمثّل في أنّ أبا العلاء أعدّ نفسَه منذ مطلع حياته ليكون معلِّمًا للعربيّة بمعجمها الأصيل الواسع جدًّا وعلومها المختلفة، وللحكمة والحياة العمليّة السّويّة المفضية إلى طيب السّيرة وحُسْن المنقلَب.

وتتّخذ الورقةُ وسيلةً لتحقيق هدفها مناقشةَ جملةِ قضايا تحسب أنّ إيضاحها وبلورتها وبَسْط القول في ملامحها تفلح متكاملةً في جلاء القضية التي تشاء تقديمها للمتابع. وهذه القضايا هي:

أوّلاً ـ أبو العلاء العالِمُ المعلِّمُ للعربيّة والحكمة الإيمانيّة.

ثانيًا ـ كتابُ الفصول والغايات والمقاصدُ التعليمية فيه.

(*) محاضرة ألقيت في قاعة المحاضرات في مجمع اللغة العربية بتاريخ ٢٦ صفر / ١٤٣١هـ - الموافق ١٠ شباط / ٢٠١٠م.

ثالثًا ـ فضاءات علوم العربيّة في الفصول والغايات:

١ ـ فضاء اللغة معجمًا وأساليب.

٢ ـ فضاء النحو والصّرف.

٣ ـ فضاء العروض والقوافي.

رابعًا ـ دروس الإيمان في الفصول والغايات.

خامسًا ـ الكلمة الأخيرة.

أوّلاً ـ أبو العلاءِ العالِمُ المعلِّمُ للعربيّة والحكمة الإيمانيّة:

تشهد آثارُ أبي العلاءِ الشعريّةُ لشاعرٍ محلِّق في آفاق القريض. فقد كان المنظومُ عنده فضاءً لروحٍ قويّ الملاحظة دقيقِ الفحص للقضايا متألِّمٍ من صفعات وجودٍ يحسُّ بتضاريسه إحساسًا قويًّا، لكنّه يعزّ عليه فهمُه بمنطق العقلِ الجدليّ التحليليّ الرّابط للنتائج بالمقدّمات والمسبَّبات بالأسباب. وفي الحسبان أنّ امتحانَ النفس أو القدرة الذي ابتُلي به أبو العلاء وتجلّى في مظاهر كثيرة في شعره ونثره وسلوكه يجيء تعبيرًا عن الإحساس بالقدرة ضمن العَجْز. فأبو العلاء عند نفسه قادرٌ قدرةً يفوق بها غيرَه، وهو نفسه أيضًا عاجزٌ عجزًا تلتوي الظنونُ في ماهيّته أمامَ صنيع مَنْ ﴿خلقَ السّماوات والأرضَ وجعَلَ الظّلماتِ والنّور ثمّ الذين كفروا بربِّهم يعدلون﴾ (سورة الأنعام، الآية ١).

نعم، في مضمار الشعر الأخّاذ أعدّ أبو العلاء نفسَه ليكون معلِّمًا للعقل والحياة والفنّ، أمّا في ميدان النثر الفنّي الجميل فوجد مندوحةً لتعليم أشياءَ كثيرة، في طليعتها علومُ العربيّة معجمًا وأساليبَ ونحوًا وصرفًا وعَروضًا.

وفي مجالَي الشعر والنثر يجدُ المرءُ في نفسه دافعًا إلى القول إنّ أبا العلاءِ كان ينشُد العَلاءَ، فوجدَه في شخصيّة من يعلِّمُ النّاسَ الخيرَ، وهو مطمئنٌّ إلى أهليّته لذلك. ويعني الاطمئنانُ إلى الأهليّة هنا، في وجهٍ من الوجوه، إعدادَ النفس بضروبٍ من المجاهدة تمضي في اتجاهين اثنين: أوّلُهما الإقبالُ بنَهَمٍ على التحصيل بقلبٍ عَقولٍ ولسانٍ سَؤول، كما قالوا في

شأن بعضهم. ويتجلّى القلبُ العقولُ عنده في اعترافه الذي يقول فيه: "ما سمعتُ شيئًا إلاّ حفظتُه، وما حفظتُ شيئًا فنسيتُه". وثانيهما إقدامُ النفسِ على المكروه، وهي لا تكره إلاّ ما خالف هواها وجافى طبيعتَها. وفي حياة أبي العلاء العمليّة ما يدفع إلى القول إنّه جارى إلهامَ نفسِه في تقواها، لا في فجورها. ويعني الأمرانِ تهذيبَ العقل واللّسان بتحصيل العلوم، وتهذيبَ النفس بهجر المنبوذِ المطَّرَحِ في الفكْرِ والقولِ والعمل.

هكذا انتظر أبو العلاءِ من غرسةِ علمه أن تُثمر نوعَيْن من الثّمر، كلٌّ منهما مهمٌّ لنفسه ولمجتمعه؛ وهما ضبْطُ معاقدِ علومِ العربيّة، وإنماءُ كرَم النفوس وزَكائها. وحَلْقةُ الوصل بين الأمرين، فيما نرى، إدراكٌ عميقٌ لسلوكِ الكتابِ العزيز وكلامِ النبوة في تعليم الخير والفضيلة والكمال. فإنّ الكلامَ الإلهيَّ وكلامَ النبوّةِ كليهما يقولانِ إنّ التعليم المقوّي لإنسانيّة الإنسان يكون بالأداءِ الجميل والصّياغةِ المُحكمة والتعبير المنشِّط لآلاتِ الإدراكِ عند الإنسان. وغيرُ بعيدٍ عن محفوظ متوسّطي الثقافة عندنا شهادةُ الوليدِ بنِ المغيرة الجاهليّ في البيان القرآنيّ الممتلِكِ، في رؤيته، للحلاوة والطّلاوة. ولعلَّ من تعليمِ اللهِ الإنسانَ ما لم يعلَمْ إدراكَنا، اليومَ، أنّ ابنَ المغيرة أُخِذ بالأداءِ القرآنيّ الأخّاذ، أي الحامِلِ اللغويّ الجميل، في الوقت الذي كان فيه محترسًا من أخْذ المعنى الجميل، معطِّلاً آلةَ الاستجابةِ له.

ويذهبُ بنا حديثُ الحلاوة والطّلاوة في البيان العالي إلى القول إنّ أبا العلاءِ أخذَ نفسه في حياته بمقولةِ "التعليم بالجمال"، المفضيةِ فيما نرى إلى ما سمّيناه "الأدبَ المؤدِّب"، أي المعلِّمَ المربّي. فقد كان الرّجلُ مدركًا أنّ النفس تسهل مقادتُها حين تُقاد بما وافق هواها، وجانس طبيعتَها، ويسهل عليها تحصيلُ العلم حين يُساق إليها في قوالبَ تعبيريّةٍ محرِّكةٍ لجِبلَّتها هازّةٍ لطبعها.

ولعلّه، من هذه الوجهة، شاء أن يكون في "الفصول والغايات" خاصّةً معلِّمًا لعلوم العربيّة وللحكمة الإيمانيّة في قوالبَ أدبيّةٍ من الطراز الرّفيع.

ثانيًا ـ كتابُ الفصولِ والغايات والمقاصدُ التعليميّة فيه:

يأتي عنوانُ الكتاب "الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ" ليقول لنا إنّ مادّةَ الكتابِ هي فصولٌ أدبيّةٌ نثريّةٌ منتهيةٌ بنهاياتٍ موحِّدةٍ موزّعةٍ على أحرف الهجاء. فثمّة فصولٌ غاياتُها، أو نهاياتها، الهمزةُ؛ إذ ينتهي كلُّ فصلٍ منها بكلمةٍ نهايتُها همزة. وهكذا تكونُ غاياتُ الفصولِ كلماتٍ من قبيل: الأباء، الإباء، الحوَبْاء، الأَطْباء.. إلخ.

وثمّة فصول أخرى غاياتُها الباء؛ إذ تنتهي بكلماتٍ مثل: السّحاب، ارتياب، الأحباب، الذّاب، الذّهاب.. إلخ، وهكذا.

والموجودُ المحقّقُ من الكتاب جزءٌ واحدٌ فقط ينتهي بفصلٍ غايتُه خاء. وينبّه العنوانُ أيضًا على موضوع الكتاب وأنّه في تمجيد الله سبحانه وفي المواعظ.

وتنبئ طريقةُ عَرْض مادّة الكتاب عن أنّ المؤلّف كان يملي فصولَه على تلاميذه، فيختم الفصْلَ بالغاية، ويعمد إلى شَرْح الغريب الوارد في تضاعيف الفصل. حتّى إذا انتهى من الشّرْح والتفسير عاد إلى الإملاء مشيرًا إلى ذلك بكلمة "رَجَع".

أمّا مادّةُ الكتاب نفسُها فإنشاءٌ نثريّ غايةٌ في إحكام النَّسْج ومتانة السَّبْك وجودة الاختيار، وقد ملأه مؤلِّفُه "بشتّى العلوم من اللّغة والأدب والعروض والصّرف والتّاريخ والحديث والفقه والفَلَك وعِلْم النجوم وغير ذلك مما لم يسبق لغيره جَمْعُه بالطريقة التي سلكها" (مقدّمة الكتاب، ص: هـ، و).

وتُظهر المادّةُ العلميّة في الكتاب وأسلوبُ أبي العلاء في عَرْضها وتقديمها احتشادًا وتهيُّؤًا وإعمالاً قويًّا للعقل والحافظة فِعْلَ الكريم الذي يقصد عقائلَ مالِه يُتحف بها العُفاةَ والطّالبين، جاعلاً من ذلك شاهدًا على خليقة متأصِّلة وطبيعة غلّابة.

ولا يجد المتأمّلُ غضاضةً في زَعْم أنّ أبا العلاءِ، الذي شاء لنفسه أن يكون معلِّمًا، حكَمَتْه في "الفصول والغايات" بواعثُ تعليميّةٌ واضحةُ المعالم، فكان صنيعُه في الكتاب مثالاً جيّدًا للأدب المؤدّب الذي يحرص على توصيل المعارف والخبرات في قالبٍ أدبيّ جاذبٍ للنفوس موقظٍ للحواسّ مُبهجٍ للعقل.

ثالثًا ـ فضاءاتُ علومِ العربيّة في الفصول والغايات:

تنبئ مؤلّفاتُ أبي العلاء الشعريّةُ والنثريّة، كما بدا فيما قدّمنا، عن عالِمٍ كبير وداعيةٍ إلى الصّلاح والاستقامة قليل النظير في تاريخ الأدب العربيّ. ويدرك قارئ آثاره سريعًا أنّه يَعُدّ اللغةَ العربيّة وعلومَها مِرْقاةً يصعد عليها النّوابغُ والملهمون إلى مصافَّ عاليةٍ فيما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون. وفي مستطاع المعرِّف بأبي العلاء أن يقول إنّه كان يرى في التأليف ونَشْر العِلْم وسيلةً لمرضاة الله سبحانه وخلاصًا من سَخَطه وغضبه. كيف لا، وهو الذي يقول: "عَلِمَ رَبُّنا ما عَلِمَ، أنّي ألّفتُ الكَلِمَ آمُلُ رضاه المسلِّمَ، وأتّقي سخَطَه المؤلم. فهَبْ لي ما أبلغُ رضاك من الكَلِمِ والمعاني الغِراب" (الفصول والغايات، ص ٦٢).

والصحيحُ أنّ المعارف التي يحرص أبو العلاء على تقديمها لقارئي كتابه هذا كثيرةٌ، ويحتاج حصْرُها وضبْطُ منهجه في تقديمها إلى فضاء أكبر من هذا المتاحِ لنا هنا. وقد أشرنا من قبْلُ إلى أنّنا سنديرُ حديثَنا على علوم العربيّة الأساسيّة، ولن يكون منّا وقوفٌ عند المعارف الأُخَر الكثيرة التي انطوى عليها الكتابُ وقصدَ المؤلّفُ إلى نشرها وتعليمها. وفضاءاتُ علومِ العربيّة التي سنقف عندها هي:

١ ـ فضاءُ اللغةِ معجمًا وأساليب:

يبدو هَمُّ تعليمِ العربيّة مفرداتٍ وأساليبَ مستبدًّا بنفس أبي العلاء. بل يستطيع المتأمّلُ أن يقول باطمئنانٍ إنّ الرّجلَ نصَبَ نفسَه ليكون محييًا لهذه اللّغة ألفاظًا ومعانيَ وطرائق تعبير . وكأنه كان في ضيقٍ من دُروسِ القَدْر الأكبر من معجمها وغيابه عن الألسنة والشّقاشق، فشاء هو أن يعيدها سيرتَها الأولى بجعل كثيرٍ من مادّتها ومخزونها مادّةً لتعليم طائفة من التلاميذ، ربما تزدهرُ العربيّة ويطيب جَناها بما سيقدّمونه هم أيضًا لمن يتتلمذ عليهم.

ويُفهَم ههنا أمرٌ مهمٌّ، وهو أنّ أبا العلاء كان على أنّ اختيار المادّة اللغويّة الجيّدة وتقديمَها في قوالبَ أدبيّةٍ راقيةٍ وإفهامَ المتعلّمين دقائقَها وأسرارَها، من أسباب تقويةِ

العربيّة وشَدِّ أزرها ومضاعفةِ نَمائها. وليس بمستنكَرٍ، فيما نرى، أن نزعم أنّ أبا العلاءِ كان وحْدَه مدرسةً لإحياء العربيّة وإنماء شجرتها. ونكتفي هنا بتقديم فصلين من "الفصول والغايات" يوضحان طبيعةَ المادّة اللغوّية التي كان يقدّمها والنّهجَ الذي سلكه في تقديمها:

آ ـ يقول في فصل: "أنتَ، أيّها الإنسان، أغَرُّ من الظّبي المقْمِر، لستَ بالعامر ولا المعتمر، ولا في الصّالحات بالمؤتمِر. أحسِبْتَ الخيرَ ليس بمُثمر؟ بلى، إنّ للخير ثمرةً لذّتْ في المطعم، وتضوّعتْ لِمَنْ تنسَّم، وحسنتْ في المنظور والمتوسَّم، وجاوزت الحدَّ في العِظَم، وبقيت بقاءَ السَّلَم. فما ظنُّكَ بثمرةٍ هذي صفتُها لا يمكنُ السّارقةَ كَفْتُها، ولا تذوي في الوقدة نضرتُها، قد أمِنَتْ أجيجَ القَيْظِ وصَنابرَ الشّتاء. غاية.

تفسير: أغَرُّ من الظّبي المقْمِر: مثَلٌ. ويقال إنّ الظّبي يُصادُ في الليلة المقمرة. الكَفْتُ: الضمُّ والجمعُ. (الفصول والغايات، ص ٦).

ب ـ ويقولُ في فصل آخر: "اللهمّ، اجعَلْ ذِكْرَكَ عَذْبًا على عَذَبةِ لساني، ومخلَّدًا طولَ حياتي في خلدي، ونَفَسًا عند الكُرْبة لنَفْسي، ومُنْبِطًا للحِكْمة في قليب قلبي. وأسألُك عصمةً من الذّنوب؛ فإن لم أكنْ أهلاً للعصمة فلتكنْ جرائمي معكَ لا مَعَ عبادِك؛ فإنّك الحليمُ الكريم، وإنّا معشَرَ الإنس فينا سوءُ ظفرٍ وقلّةُ احتمال. واجعَلْ، ربِّ، طاعتَك سيفي على العدوّ وسِناني، وزادي في السَّفَر وراحلتي، وأُنسي في الوحدة ولَذّتي. وأعوذُ بك، منشئَ الخَلْق، من أُذُن كأذُنِ طَوِيّ الزّجاج الذي ماؤه حِبرٌ ورِشاؤه يَرَاعٌ، له أربعُ آذانٍ يُجذَبُ بها فيتبعُ، وهو مع ذلك لا يسمع؛ ومن فَمٍ كالوِجار ما طُرِح فيه لِهَمَه؛ ومن يدٍ كيدِ الصَّبيّ، تبهشُ إلى كلّ شيء. وليكنْ لَيْلي فيكَ ليلَ أنقدَ ونهاري لك نهارَ الطَّيرِ الغِراث. غاية

تفسير: عَذَبةُ اللّسان: طَرَفُه. والخَلَدُ: النفسُ. وتَبْهَشُ: تمتدّ إلى كلّ شيء. وأنقدُ: هو القُنْفُذُ، ويُقال: ابنُ أنْقَد، وبات بليلة أنْقَدَ: إذا لم ينم (الفصول والغايات، ص ١٧٣).

وتعنّ لنا من تأمّل الفصلين بعضُ الأمور المتّصلة بتعليم المعجم العربي مفرداتٍ وأساليبَ:

١ـ غلَبةُ السّجع، الذي هو "في البديع العربيّ اتفاقُ الفاصلتين في الحرف الأخير. والفاصلةُ هي الكلمةُ الأخيرةُ من كلّ فقرة" (مجدي وهبة: معجم المصطلحات العربيّة في اللغة والأدب، ص ١١١).

٢ ـ غلَبةُ الجناس، الذي "هو في البديع العربي تشابُهُ اللفظين في النطق مع اختلافهما في المعنى" (معجم المصطلحات، ص ٧٨).

٣ ـ غلبةُ التّشبيه والتمثيل الذي يُراد منه الإيضاحُ والبيانُ وتحسينُ الخير وتقبيح الشّر.

٤ ـ اعتمادُ المادّة التّربويّة التأديبيّة التي تحضّ على فِعْلَ الخير وتَرك المنكر والارتقاء بالإنسان إلى حيث يكون مُرْضيًا لربّه سبحانه، مُحسِنًا إلى نفسه، وإلى الخلق جميعًا.

٥ ـ تطعيمُ المادّة التعليميّة ببعض الغريب الذي يعمد المؤلّف إلى شَرْحه في نهايات الفصول.

٦ ـ اعتمادُ الأمثال والأقوال المأثورة والعبارات المحفوظة عن العرب.

والمستنتَجُ المفيدُ ممّا نحن إزاءه هنا ما يأتي:

آ ـ غزارة المحفوظ اللغويّ عند أبي العلاء، ويصوّر هذا مبْلَغَ الدّرس والتعلُّم الذي أخذ به نفسَه، وشاء أن ينشر نتاجَه ويذيعه بين تلامذته. ويَظهَرُ أبو العلاء هنا معلّمًا للعربيّة ألفاظًا ومعاني وأساليب.

ب ـ يجمع أبو العلاء في تعليمه بين جمال الأداء وافتتان الأسلوب، وبين الدّعوة إلى كلّ ما يفضي إلى الكمال الإنسانيّ. وعلى هذا النحو، يكون داعيًا إلى سبيل العربيّة بالحكمة والموعظة الحسنة.

جـ ـ يَظهر أبو العلاء هنا معلّمًا لأدب الدّرس وأدب النفس وينتمي نتاجُه هنا بجدارة إلى ما أسميناه "الأدب المؤدّب".

٢ ـ فضاءُ النحو والصرّف:

يمثِّل النحوُ والصّرف اهتمامًا كبيرًا في جملة اهتمامات المعرّي. وتُظهِر مؤلّفاتُه وآثارُه في هذا المجال المعرفيّ أنّه عالِمٌ كبيرٌ ثابتُ القلب والقدَم في هذا الميدان. ويجد المرءُ غير قليل من مباحث النحو والصّرف في "الفصول والغايات". ونحسب أنّ إيرادَ نموذجين من هذا القبيل كافٍ لإيضاح طبيعة تعامله مع المادّة الصّرفية:

آ ـ يقول في فصل: "ربِّ، أبلغْني هوايَ، وارزقْني منزلاً لا يلجُه سواي، مَنْ دَخلَه أَمِن، فهو كعِنْدَ، وأنا كَمِنْ، ولا تجعلْني ربّ في الصّالحين كواو الخزم، والثابتةِ في الجَزْم. وأثبتِ اسمي في ديوان الأبرار مع الأسماء المتمكّنات". غاية.

تفسير: "عِنْدَ" لا يدخل عليها من الحروف شيءٌ غيرُ "مِنْ". وقولُ العامّةِ: ذهَبْنا إلى عِنْدِه، خطأ. وزعمَ النحويّون أنّ "عِنْدَ" غيرُ محدودة لأنّها تقع على الجهات السِّتّ، و"إلى" للغاية، فامتنعت "عِنْدُ" من دخول "إلى" عليها؛ لأنّ في "إلى" بعضَ التخصيص.

"واوُ الخَزْم" هي التي تُزاد في أوّل بيت الشِّعر، ويكون الوزنُ مستغنيًا عنها، وأكثرُ ما يزيدون الواوُ والفاء وألفُ الاستفهام للحاجة إليهن...

و"الواوُ" الثابتةُ في قولك للواحد: "لم يغزو"، وإنّما تثبتُ ضرورةً في الشعر كقوله:

هجــوتَ زَبّــانَ ثــمّ جئــتَ معتــذرًا مــن هَجْــوِ زَبّــانَ، لَمْ تهجــو ولَمْ تَــدَعِ

فالمتقدِّمون من البصريّين يجعلون الفعلَ في هذا ممّا بُلِغ به الأصْلُ في الضرورة؛ لأنّ أصْلَ "يهجو" أن يكونَ مضمومَ الواو؛ لأنّه في وزن "يقتُلُ"؛ فيقدِّر الشاعرُ أنّ الواوَ مضمومةٌ في حال الرّفع فيسكّنها في حالِ الجزم ويثبتها.

وكان أبو عليٍّ الفارسيُّ يرى في مثل هذه الواو التي في قوله "لم تهجُو" أنها غيرُ الواو التي في قولك "هو يهجو"، وأنّها زيدتْ للضرورة كما زيدت الياءُ في قولِ الشاعر:

وســـــواعيدَ يختلـــــينَ اخـــــتلاءً كالمغـــــالي يطِـــــرْنَ كـــــلَّ مَطـــــيرِ

وكذلك الياءُ عنده في قراءة ابن كثير في قوله تعالى: "إنّه مَنْ يتّقي ويصبرْ" ليست الياءَ

التي في قولك: "هو يتّقي ويَصْبِرُ"؛ وإنّما هي ياء مجتلَبةٌ لتمكين الحركة. وكذلك يرى الياءَ في قول الشّاعر:

ألَمْ يأتيــكَ والأنبــاءُ تنمــي بــما لاقــتْ لبُــونُ بنــي زيــادِ

والمذهبُ القديمُ أنّه بَلَغ بها الأصْلَ فقال في الرّفع: يَأْتِيُكَ"، وأسكنَ الياءَ في الجزم. والأسماءُ المتمكّناتُ هي التي لا يلحقها علّة" (الفصول والغايات، ص ١٢٢ ـ ١٢٤)

ب ـ ويقول في فصْلٍ آخَر: "خالقي، لا أختارُ شَبَهَ الظّالمين؛ فإنّ الشيئَيْنِ يتشابهانِ فينقلهما التشابهُ إلى الاتّفاق؛ كإنّ المكسورة المشدّدة، أشبهتِ الأفعالَ فجاء بَعْدَها اسمانِ؛ آخِرُهما كالفاعِلِ، وأوّلهما كالمفعول. وكذلك ما قاربَها من الأدوات.

لا تجعَلْني، ربِّ، معتلاً كواوِ "يقُومُ"، ولا مُبْدَلاً كواو "مُوقِن" تُبدلُ من الياء، ولا أُحبُّ أن أكون زائدًا مع الاستغناء، كواو "جَدْوَل" و"عجوز". فأمّا واوُ "عَمْرو" فأعوذُ بكَ، ربَّ الأشياء، إنّما هي صورةٌ لا جَرْسَ لها ولا غَناءَ، مُشبِهُها لا يُحسب من النّسمات. غاية.

تفسير: "إنّ" يشبِّهونها بالفعل الذي يتقدّم مفعولُه على فاعله؛ مثل: ضرَبَ زيدًا عَمْرٌو. وما قاربَها من الأدوات مِثْلُ ليتَ ولعلّ، وما أشبههما.

و"واو" جدْوَل وعجوز زائدتانِ؛ لأنّها من الجَدْل والعَجْز" (الفصول والغايات، ص ١٤٢).

وأبرزُ الملامح التي يخال المرءُ أن عليه أن يسجِّلها في المقام الذي نحن فيه ما يأتي:

١ ـ أنّ أبا العلاء مُحيطٌ إحاطةً واضحة المعالم بتاريخ النحو والصّرف ومدارسهما ومذاهب النحاة فيهما ومباحثهما الأساسية والفرعية.

٢ ـ أنّه يقتلُ القضايا بحثًا ومناقشةً وتعليلاً، ويعرض لوجهات النظر المتعدِّدة في القضية الواحدة، وهذا من شأن المعلِّم الحريص على إيصال علمه إلى الآخرين، الذي يرى فيه مِرْقاةً إلى الفوز والفلاح في المآل.

٣ ـ أنّه لا يرى أيّ تباعدٍ أو تنافرٍ بين حِسِّ الدّين وحِسّ الدّنيا، بل يرى أنّ تعليمَ العربيّة وعلومِها والارتقاءَ بها ممّا يقرِّب إلى الله زُلفى. وهذا مظهرٌ جليّ لما أسميناه "الأدبَ المؤدِّب".

٤ ـ أنّه يقدِّم قضايا العِلْم المجرَّدةَ الجافّةَ في قالب الحِكْمة الإيمانيّة التي يكون فيها عيارُ العقل وميزانُه في الفؤاد، وفق تعبير العلّامة محمّد إقبال.

٥ ـ أنّ عَقْلَ أبي العلاء المختزِنَ لقدرٍ هائل من العلوم والمعارف والمباحث قادرٌ على استحضار المتباعدات والمختلفات وجَمْعها في موضع واحد، كالذي نجده مثلاً في حديثه عن "الواو" بأنواعها المختلفة.

٣ ـ فضاء العروض والقوافي:

تشهد آثارُ أبي العلاء بمحصول غزير من مباحث علم العَروض والقوافي. ثمّ في "الفصول والغايات" خاصّةً تزحم عينَ القارئ قضايا العروض والقافية ومباحثُها. ونقدِّم ههنا مثالَيْن اثنين من جملة كثيرٍ انطوى عليه الكتاب:

آ ـ يقول في فَصْل: "ألتفتُ إلى ذنوبي فأجدُها متتابعةً كحركات الفاصلة الكبرى وأستقبلُ جرائمَ تترى طِوالاً كقصائد الكميتِ الأسديّ، مختلفةَ النَّظمِ كقصيدتي عَبيدٍ وعَديّ. وأجدني ركيكًا في الدّين ركاكةَ أشعار المولَّدين، سبقتْهم الفصاحةُ وسبقوا أهْلَ الصّنعة. وأعمالي في الخير قِصارٌ كثلاثةِ أوزانٍ رفضَها المتجزّلون في قديم الأزمان. ولابُدّ للوَتِدِ من حَذّ، والسّبب من جَذّ. ورُبَّ فَرِح طُويَ طيَّ المنسرح. فارحَمْني، ربِّ، إذا صِرْتُ في الحافرة كالمتقارَبِ وحيدًا في الدّائرة، وهجرني العالَمُ هَجْرَ النّونِ العُجُمات. غاية

تفسير: الفاصلةُ الكُبرى أن تجتمع في الشعر أربعةُ أحرف متحرّكة وبعدها حرفٌ ساكن، وذلك أكثر ما يجتمع في الشّعر من المتحرّكات. وبعضُهم يسمِّي الفاصلة الكبرى "الفاضلةَ" لزيادتها في الحركات. والفاصلةُ الصُّغرى ثلاثةُ أحرف متحرّكات بعدهنّ ساكن.

الكميتُ معروفٌ بتطويل القصائد. وقصيدةُ عبيد:

– أقفرَ من أهله ملحوبْ –

ووزنُها مختلفٌ، وليست موافقةً لمذهب الخليل في العروض. وقصيدة عَديّ ابن زيدٍ:

قد حانَ أن تَصْحُوَ لو تُقصِرْ وقد أتى لِما عهدْت عُصُرْ

والثلاثةُ الأوزان المضارعُ والمقتضَبُ والمجتثُّ؛ وقلّ أن توجد في أشعار المتقدّمين. ..." (الفصول والغايات، ص ١٣١ ـ ١٣٥).

٢ ـ ويقول في فصل آخر: "ربِّ، وألبسْني من عَفْوِكَ جَلالاً، مُرفَّلاً يومَ القيامةِ مُذالاً، أختالُ بين عبادك فيه كسابغ الكامل وأخيه، مخلَّدًا في العيشِ الرّفيغِ، تامًّا أُلحِقَ بتسبيغٍ، كرابعِ الرَّمل، مُراحًا ليس بالمستعمَلِ. ولا تَنْهَكْ، ربِّ، عملي فيصبحَ كخامسِ الرَّجَز، قلّ حتّى ذلَّ وعَجَزَ. أشكرُك بغير تشعيث، فِعْلَ اليشكريِّ بالوزن الحثيث، وإنّ عنترةَ هَيْنَمَ، فقال:

ـ هل غادر الشعراءُ من مترنّم ـ

وإني سائلُك: هل أبقتِ السّيّئاتُ عِندكَ موضعًا للحسناتِ. غاية.

تفسير: في الكامل ضَرْبٌ يُقال له "المرفَّلُ"، وهو السّادسُ، مِثل قولِ الحطيئة:

ولقد سبقتَهُمُ إليّ فلِمْ نَزَعْتَ وأنت آخِرْ

وترفيلُه أنّه زِيد على الجزء الرّابع منه، وهو ضَرْبُه، حرفان من الجزء الذي يليه فصار "مُتَفَاعِلَاتُنْ" وبعْدَه الضّربُ السّابع، وهو المُذالُ، زِيد عليه حرفٌ ساكن فصار "مُتَفَاعِلَانْ"، مثل قوله:

جَدَثٌ يكونُ مُقامُه أبدًا بمختلِفِ الرّياحْ

..." (الفصول والغايات، ص ١٣٧ ـ ١٣٨).

ويلفتُ الانتباهَ فيما عرضنا من تعاطي المادّة العروضيّة عند أبي العلاء ما يأتي:

١ ـ أنّه يتّخذ الدّعاءَ والسُّؤالَ مدخلاً إلى المادّة العروضية. وربّما يكون صحيحًا هنا زَعْمُ أنّ المصطلحاتِ العروضيةَ احتلّت من نفس أبي العلاء كلَّ الزوايا، فما كان منها إلّا أن تتدفّق عند أوّل التفاتة، وتبرز عند أوّل إثارة.

٢ ـ أنّ استغلالَ المادّة المصطلحية العروضيّة في الدّعاء والاسترحام لا يعطي أيّ انطباعٍ بالتكلّفِ والتعمّل وحَمْل النفس على المكروه، بل يمضي تقديمُ المادّة على نحو يروق النفسَ ويبهجُ الحسَّ ويعين في التحصيل.

٣ ـ أنّ أبا العلاء محيطٌ إحاطةً لافتةً للنظر بتاريخ الشعر العربيّ منذ أقدم عصوره إلى زمانه، مُلِمٌّ بمذاهب الشّعراء، مستظهِرٌ للقوافي العروضيّة والشواهد الشعريّة الممثّلة لها.

٤ ـ أنّ تقديم المادّة العلميّة العروضيّة لا ينال من المستوى الأدبيّ الرّفيع الذي يحرص المؤلّف على تقديم أمثلته ونماذجه. وإنّه في الفصلين كليهما كنّا أمام متنَيْن أدبيَّين غايةٍ في قوّة السَّبْكِ ونصاعة العبارة وتلاحم الأجزاء وسهولة المخارج، وفق تعبير الجاحظ وهو يصف خير الشّعر.

رابعًا ـ دروسُ الإيمان في الفصول والغايات:

أظهرت الجزئياتُ السابقة من هذه الورقة مبلغَ احتفاء أبي العلاء بالمادّة الإيمانيّة المعبِّرة عن شخصية وَرِعة، تعرفُ قبْلَ كلّ شيء عظمةَ الخالق العظيم سبحانه وجلالَ سلطانه وامتدادَ قدرته، وتعرف في الوقت نفسه عجزَ الإنسان وضعفَه وافتقاره إلى خالقه في كلّ شيء، وقد قيل قديمًا: من عرف نفسَه فقد عرف ربّه. وقد بيّنّا قبْلُ أنّ أبا العلاء يعتقد في "الفصول والغايات" إنّ إنتاجَ الأدبِ الجميل والتأليفِ المتقن هبةٌ من الله سبحانه يبلغ بها رضاه، وذلك إذ يقول: "فهبْ لي ما أبلغُ به رضاك من الكَلِم والمعاني الغراب".

وفي مستطاعنا القولُ إنّ إبداع أبي العلاء الأدبيّ في "الفصول والغايات" يقدِّم لتاريخ الشعر العربيّ والثقافة العربيّة، على الجملة، صورةً لشخصية أبي العلاء مختلفةً تمامًا عن

الصّورة التقليدية النّمطيّة التي رُسمت له وأريد لها أن تشيع وتستقرّ في الأذهان. وسأكتفي من جملة فصول الكتاب بثلاثة نماذج إخالُها قادرةً على تقديم تصوّر لما شئتُ تقديمَه في هذه الورقة من انحياز أبي العلاء إلى ما أسميناه "الأدبَ المؤدّبَ"، الذي قلنا إنه يجمع بين أدب الدّرس وأدب النّفس:

١ ـ يقول في فَصْلٍ: "خوفُ اللهِ مَعاقِلُ الأَمْنِ، والحُكْمُ لَهُ في العاقبةِ والمبتدأ. لا يَرِدُ عليه عَجَبٌ، وكيف يعجبُ من شيءٍ خالِقُ العجائب ومبتدعُ الآزالِ؟ أيقنَ فما استفهمَ، وهل يستفهِمُ عالِمُ أسرار الفَهِمين؟ . ولا تَعْرِضُ له الأمانيُّ؛ إنّما تخطرُ لمن تضعفُ قدرتُه دون المراد. فليتَ جسدي من خيفته مِثْلُ الشَّنِّ وأدمعي لذلكَ شبيهةُ القَطْر. وطوبى للمُترنِّمينَ بالتسبيح ترنُّم هَزِج النّهار ، حتّى إذا النّجمُ طَلَعَ ترنّمَ بالذّكْرِ مع البعوض إعظامًا لوارثِ الوُرّاث. غاية.

تفسير: الآزالُ جمعُ أَزَلٍ، وهو الدهرُ. وهَزِجُ النّهارِ الذّبابُ. والبعوضُ البقُّ. (الفصول والغايات، ص ١٦٩).

٢ ـ ويقول في فصل آخر: " ما حَرَسَ ربُّك فلا مُحْتَرِسَ له، وما حَفِظ أمِنَ الضياعَ فهو حفيظٌ. السّماءُ متى أمَرَ مطيعةٌ له، والأرضُ تقبلُ أوامره، والنّجومُ تابعةٌ إرادتَه. يكلأ عبادَه بعين كبُرت عن القذى، وغنيتْ عن الإثمِدِ، وشَرُفت أن تهجع أبدا.

حمدًا لكَ إلهي؛ لا أعلَمُ وقتَ إسكانِكَ لي في دارِ البلاء وقد عشتُ فيها ما شئتَ، وأعيش ما تشاء، وأنا شاكٍ إليكَ أثقالَ الزَّمَن، فإذا قضيتَ عنها الرّحلةَ فأعنّي على تلك الغُصَصِ والغمرات فإنّي منها فَرِقٌ، وبي من الحياة مَلَلٌ. على أنّي أرفُلُ في ثياب نِعَمِك جُدُدًا. أشكرُك وأنا مُقِرٌّ بالعجز عمّا يجب لك. خلقْتَني ضعيفًا فعبدتُّك عبادةَ الضعفاء، ولم أُلْفَ من المآثِمِ عَبِدًا. أنا برحمتكَ مكلوءٌ، وخيرُك عليَّ مُسْبَلٌ يَرِدُ بالغداة والعشيّ...

تفسير: المُحتَرِسُ السّارق؛ ومنه"لا قَطْعَ في حَرِيسة الجبَلَ" أي الشّاةِ التي تُسرق منه. والعَبِدُ الأنِفُ..." (الفصول والغايات، ص ١٩٦ ـ ١٩٧).

٣ ـ ويقول في فصل ثالث: "أدعوكَ وعمَلي سيّئٌ ليحسُنَ، وقلبي مُظلمٌ لكي ينير. وقد عدَلْتُ عن المحجّة إلى بُنيّاتِ الطريق، وأنتَ العَدْلُ ومن عَدْلِك أخافُ. يا مَنْ سَبّحَ له زُرْقةُ الأُفُق وزُرْقةُ الماءِ وحُمْرَةُ الفجرِ وحُمْرَةُ شَفَقِ الغروب. وإن كان الدّمعُ يُطفئ غضبَكَ فهَبْ لي عينَيْن كأنّهما غمامتا شَتِيٍّ تَبلانِ الصّباحَ والمساء، وارزقْني في خوفِك برَّ والدي وقد فادَ، برُّه إهداءُ الدّعوةِ له بالغدوّ والآصال. فأَهْدِ، اللهمّ، له تحيّةً أبقى من عُرْوة الجَدْب وأذكى من وَرْد الرّبيع، وأحسنَ من بوارق الغَمام، تُسفرُ لها ظُلمةُ الجَدَث ويخضرّ أغبرُ السَّفاةِ ويَأْرَجُ ثرى الأرض، تحيّةَ رجُلٍ للُّقْيا ليس بِراج. غاية

تفسير: بُنَيّاتُ الطّريق الطُّرقُ الخفيّة يُضَلُّ فيها. والشَّتِيُّ مطرُ الشّتاء. وفادَ ماتَ. والسَّفاةُ ترابُ القبرِ، وجمعُه سَفًى، وكلُّ تُرابٍ سَفًى؛ قال أبو ذؤيب:

فلا تلمسِ الأفعى يداكَ تُريدُها ... ودَعْها إذا ما غيّبتْها سَفَاتُها

(الفصول والغايات، ص ٢٥٩).

وما يخالُه المرءُ جديرًا بالملاحظة في هذه النماذج للغرض الذي نحن إزاءه ما يأتي:

١ ـ الرّوحُ الشفّافُ الوَرِعُ الذي تمتّع به أبو العلاء. وهو رُوحٌ يقظٌ جدًّا لعظمة الخالق العظيم سبحانه، ولصيرورة الإنسان إليه في نهاية المطاف.

٢ ـ إحساسُ أبي العلاء القويُّ بالنِّعَم التي يغدقها المولى سبحانه عليه وهو في هذه الدّنيا.

٣ ـ إلحاحُه على تقصيره في الإتيان بما يرضي ربّه، ودعاؤه الملِظُّ أن يهيّئه خالقُه لكي يكون عابدًا بكلّ ما أوتي من قدرة.

٤ ـ يربط أبو العلاء ربطًا قويًّا بين الارتقاء الرّوحيّ والأداء اللغويّ العالي؛ ويقدِّم في فصوله النثرية شاهدًا قويًّا على الصّلة القوية بين الحساسيّة الدّينية والحساسيّة الفنيّة الأدبيّة.

٥ ـ يقدِّم أبو العلاء صورةً مشرقة للأدب المؤدِّب الذي يسمو بالنّفس ويرقّي الحسَّ ويرتقي بالإنسان في مدارج الكمال الإنسانيّ.

٦ ـ يقال عن مؤلّفات الجاحظ إنّها تُعلِّم العقلَ أوّلاً والأدبَ ثانيًا، وفي مقدرونا أن نقول إنّ تصانيف أبي العلاء تعلِّم العقلَ والأدبَ والتديّن الإيجابيّ النظريّ والعمليّ؛ وتعلّم أيضًا العربيّة في مستوياتٍ عليا من فصاحتها وقوّة بيانها.

خامسًا ـ الكلمة الأخيرة:

أظهر لنا البحثُ والتأمّل الذي تقدّمت جزئيّاتُه أنّ أبا العلاء كان في إملائه "الفصولَ والغايات" على طلّابه محكومًا بقَصْدٍ ثُنائيّ تجلّى على امتداد المادّة العلميّة المقدَّمة فيما وصل إلينا من الكتاب. ويتمثّل ذلك في أنّه أراد أن يعلِّم غريبَ العربيّة وراقيَ أساليبها وقضايا تاريخها الأدبيّ والثقافيّ من خلال فصول أدبيّةٍ عالية المستوى في مضمار الفصاحة والبلاغة حمّلها مدلولاتٍ تأمليّةً إيمانيّةً مستمَدّةً من التقليد القرآنيّ والحديثيّ، ومؤسَّسةً في المقام الأوّل على تمجيد الخالق العظيم سبحانه ولَفْتِ الأنظار إلى آياته في الأنفس والآفاق. كان همَّ أبي العلاء في "الفصول والغايات" أن يعلِّم طلبةَ العِلْم مستوى عاليًا من العربيّة وثقافتها بمادّةٍ روحانيّة شفيفة قادرةٍ على توسيع الفضاء المعرفيّ الإيمانيّ عند الإنسان. ومحصِّلةُ القول هنا أنّ حكيمَ المعرّة يبدو ههنا محقِّقًا لمقولةٍ ندعو إليها منذ بعض الوقت، وهي "الأدبُ المؤدِّبُ" الذي يرتقي بالإنسان في معارج الرّقيّ الإنسانيّ.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

بلاد كنعان في العالم القديم

أ.د. محمد محفل
عضو المجمع(*)

- الجغرافية التاريخية.
- كنعان / فينيقية.
- كنعان والكنعانيون في أسفار العهد القديم.
- التحامل الاغريقي على الكنعانيين (الفينيقيين).
- الخلاصة.

(*) محاضرة ألقيت في قاعة المحاضرات في مجمع اللغة العربية بتاريخ ١١ ربيع الأول / ١٤٣١هـ الموافق ٢٤ شباط / ٢٠١٠م.

بلاد كنعان في العالم القديم

الجغرافية التاريخية:

يقول كلود شِيْفّر C SCHAEFFER الذي ارتبط اسمه بأوجاريت وعالمها القديم، في محاضرة ألقاها في معهد فرنسة COLLEGE DE FRANCE ونشرتها.

«حوليات معهد فرنسه» في عام ١٩٥٩

:«Annuaire Du Collège De France»

«اعتمادا على ألواح تل العمارنة»(*) وعلى وثائق «رأس شمرة [أوجاريت م.م] المكتشفة حديثاً، وكذلك على الدراسات الأثرية المقارنة الخاصة بطرسوس [كيليلية م.م] وأريحا [الفلسطينية م. م]، ثبت أنَّ بلاد كنعان امتدّت من تُخوم فلسطين مع مصر إلى سهول دانونا (أضنه/ أدنه) الخِصْبَة، واستثمرها الكنعانيون منذ النِّصفِ الأول للألف الثاني (ق. م).

وكانوا يؤسّسون على السواحل مراكز لتجارتهم الإقليمية والدولية... وقد بلغ من كثافة واستمرار الكنعانيين في هذه المنطقة، أنَّ ملك صور، في رسالةٍ منه إلى (آمون حوتب الرابع/ اخناتون) المقيم حينئذ في (آخيت آتون / تل العمارنة) ذكر (دانونا/ أضنه) على أنها من بلاد كنعان[1]، أما من ناحية الشرق فقد امتدت بلاد كنعان من شواطئ المتوسط الشرقية حتى نهر الفرات... ومعنى ذلك، أنها غطَّت مختلف ربوع سورية الطبيعية، التي أطْلَقَ عليها العرب لاحقًا: اسم «بلاد الشام».

(*) يقع تل العمارنه على الضفه الشرقية لنهر النيل، وعلى بعد ٣٤٢ كم، جنوبي القاهرة، وترتفع أطلال التل الأثري على موقع مدينة (أمون حوتب الرابع / اخناتون ١٣٦٤-١٣٤٧ ق. م). وعثر في نهاية القرن التاسع عشر على مجموعة ألواح فخارية تتضمن رسائل متبادلة بين الملوك وأمراء كنعان والرافدين ألقت الضوء على تاريخ تلك الحقبة التاريخية.

وبالإضافة إلى اسم كنعان (بلاد الغرب بالنسبة لبلاد الرافدين)، لدينا في السومرية اسم (مارتو) وفي الأكدية اسم (أمورو)، بمعنى بلاد الغرب[٢].

ومن الأسماء التي نجدها في مراسلات تل العمارنة إشارة إلى بلاد كنعان، أوبالأحرى إلى جُزْءٍ منها، ما يلي:

خارو: إشارةً إلى الشمال، من حِمْصَ حتى تخوم تركية وبلاد الرافدين، حيث انتشر الحوريون الميتانيون، في منتصف الألف الثاني (ق.م) وعاصمتهم (واشوكاني/ رأس العين؟!).

زاهي: على المنطقة الممتدة من عكّا حتى طرابلس. بمعنى الربوع المضيئة.

نهارينا: وهي المنطقة الممتدة من ربوع طرابلس وحمص حتى الفرات، إشارةً إلى بلاد الأنهر: العاصي شمالاً، فالبليخ والخابور والفرات. وكما رأينا آنفاً، أطلق السومريون على تلك الربوع اسم (مارتو)، والأكديون اسم (أمورو) بمعنى بلاد الغرب[٣].

رمنن/ لبنن، حيث نجد(الراء/ ر) محل (اللام/ ل) في الوثائق المصرية، وكذلك ريتينو/ ليطوني، إشارةً إلى نهر الليطاني.

ونتوقف هنا عند اسم (فينيقية)، الذي أثار جدلاً ومازال،... حيث ظنَّ بعضهم أنه وُجد شعبٌ فينيقيٌّ، غير الشعب الكنعاني التاريخي...

وها هنا نقول: إنَّ التسمية (الفينيقية) دخيلةٌ ولا علاقة لها البتة بوثائقنا القديمة الرافدية / الكنعانية / المصرية الخ...

كنعان/ فينيقية؟

شكَّل الكنعانيون اعتباراً من عصر البرونز القديم، أوائل الألف الثالث (ق.م) عدة مدن – دول برزت كمجموعات، اعتباراً من عصر البرونز الوسيط مطلع الألف الثاني (ق.م)، من أهمها:

- مجموعة المدن الشمالية وفي مقدمتها مدينة رأس شمرة (أوجاريت)، وعمريت.
- جزيرة أرواد مع مدينة سمورا من ناحية البر.

- مجموعة المدن الوسطى ومن أهمها: جبيل/ بيبلوس، صيدون/ صيدا، بئروت/ بيروت.

- مجموعة المدن الجنوبية: صور، عكو/ عكا مجدو (تل المتسلم).

- المدن الكنعانية الجنوبية الداخلية: أورشليم / القدس، يريحو/ أريحا،حبرون / الخليل، شِكِم (شِخِم)/ نابلس الخ....

ونلاحظ، أنَّ أغلبية هذه المدن – الدول تقع غربي الأنهر الثلاثة: العاصي، الليطاني فالأردن.

والإغريق هم الذين أطلقوا على الساحل الأوسط لبلاد الشام اسم (فينيقية) وعلى أهلها اسم الفينيقيين، وكان ذلك في ملحمة (الأودسية ٤/ ١٤،٨٣/ ٢٩١) المنسوبة إلى الشاعر الملحمي (هُوْمِروس، القرن ٨ ق. م)، ثم شاعت في الكتابات الكلاسيكية اليونانية واللاتينية، اعتباراً من المؤرخ (هرودوتس القرن ٥ ق.م) ... وفي العصر الحديث، أشاعها العالِم الفرنسي (إرنست رُنَنْ) وأصبحت متداولةً في الكتابات التاريخية والآثارية.

وبالنسبة لنصوص العهد القديم (التوراة وسائر أسفار الأنبياء التاريخية والمزامير الخ...م.م) لا نجد فيها أيَّ ذكرٍ لفينيقية أو فينيقيين.

أما في أسفار العهد الجديد[٤] (الأناجيل الأربعة، سفر الرؤيا، والأعمال، والرسائل م.م)، ففي (إنجيل متى، الإصحاح الخامس عشر ٢١-٢٢).

نقرأ ما يلي: (٢١، ثم خرج يسوع من هناك وذهبوا إلى نواحي صور وصيدا، وإذا امرأةٌ كنعانية خارجة من البلاد تصيح: رَحْمَاكَ... إن ابنتي يتخبطها الشيطان تخبطا شديدًا...) لوقارنا هذه الفقرات بما يقابلها في (إنجيل مرقس، الإصحاح السابع، الفقرة ٢٤-٢٦)، نجد ما يلي: (٢٤ ومضى من هناك، وذهب إلى نواحي صور، فدخل بيتا٢٥، فقد سمعت به وقتئذ امرأةٌ لها ابنةٌ صغيرة فيها روحٌ نجس... وكانت المرأة وثنيةً، من أصلٍ سوريٍّ فينيقيٍّ) ومن المعروف أنَّ إنجيل متى كُتِب بالآرامية. أمَّا باقي الأناجيل باليونانية، ومن هنا جاءت تسمية (فينيقية) في إنجيل مرقس.

ومن المدهش أن نجد اسم (لاوديكة اليونانية م.م) مقترناً باسم كنعان عوضاً عن فينيقية اليونانية، في كتابٍ صدر عام ٢٠٠٩ بعنوان *(تاريخ بيروت وبعلبك) من القرن الأول (ق.م) حتى القرن الثالث الميلادي اعتماداً على قطعها النقدية*[٥].

ومن هنا عدم قبولنا التسمية الفينيقية، التي استساغها بعضهم ومنهم (فيليب حتي) في كتابه (*لبنان في التاريخ*) (صفحة ٨٥) وهو الذي يعترف: «أنَّ الإغريق قد أطلقوا هذه التسمية على جماعة الكنعانيين، الذين تبادلوا السلع معهم، ثم أصبحت هذه التسمية (فينيقي م. م) في أوائل القرن الثاني عشر مرادفةً للفظة كنعاني».

(وها هنا نقول: إنَّ تسمية فينيقي لم تكن معروفةً من قبل هومروس، كما جاء آنفاً، وهي في القرن الثامن ق.م، م.م. وليس منذ أوائل القرن الثاني عشر الميلادي م.م).

وبالنسبه لأصل اسم (كنعان) ومدلوله، فالتوراتيون زعموا أنها تعني «بلاد الخضوع» للإسرائيلين القدماء، أمَّا فيليب حتي فقال: «إنها تعني «بلاد الواطئة / المنخفضة» بالنسبة للبنان (الأرض المرتفعة نفس المكان، لبنان في التاريخ) وأضاف أنَّ أصل الاسم ليس ساميًا،(هكذا) – وكما ظننا سابقاً – ونرجح أنَّه حوري (كنجي) بمعنى الأرجوان...».

وهنا أيضًا، نرى أنَّ رأي حتي (الحوري م. م) مجانبٌ للصواب، لأسبابٍ عدةٍ، منها أنَّ اسم كنعان كان معروفًا وشائعًا في الوثائق الأكدية / البابلية / المصرية وكذلك فاشتقاق اسمٍ من مصدر لا علاقة له بتراثنا اللغوي القديم، يتناقض مع ما هو معروفٌ من حيوية ودوام اللغات الأكدية/ البابلية/ الكنعانية / الآرمية إلخ...

أمام لغات الدخلاء: الحثيين والحوريين الميتانيين والكاشيين إلخ... ثم عدم تراجع اللغة الآرامية بمختلف فروعها أمام الفرس الأخمينيين والسلوقيين المقدونيين (الإغريقية) والرومان (اللاتينية)، وإفساح المجال لاحقًا للغة شقيقة، العربية الفصحى الصريحة، تلك اللغة التي صمدت أمام اللغة التركية، في العصر العثماني، على الرغم من الصلات الدينية المشتركة بين سكان الوطن العربي والفاتحين العثمانيين...

وهنا نرى أنَّ ما جاء على لسان (ابن منظور) في مادة كنع هو أقرب للصواب مما قاله فيليب حتي... جاء في لسان العرب «... والكنعانيون يتكلمون لغةً تُضَارع العربية... وكَنَعَ النجم مال إلى الغروب...».

إنَّ رفضنا التسمية الفينيقية ليس أكاديميًا بحتًا؛ بل لأنَّ بعضهم زعم أنَّ الفينيقيين هم غير الكنعانيين وغالى بعضهم فتوهّم وأَوْهَم الآخرين أنَّ الفينيقيين هم من نوعٍ خاص *Sui Generis*.

[بحسب اللاتينية: فريدون أفذاذ]، كما جاء على صفحات مجلة (فينيقيا) التي أصدرها (شارل القُرم) اعتبارًا من عام ١٩٢٠... بل هم غرباء عن أهل المشرق القديم الخ...

٣- كنعان والكنعانيون في أسفار العهد القديم.

ينتابنا الذهول لدى مطالعة أسفار العهد القديم،فمن ناحية، يعترف كتبتها أنَّ الكنعانيين هم أهل الأرض الأصليون، وأنَّ الدخلاء استعانوا بهم لقضاء حاجاتهم ولبناء هيكلهم ومساكنهم، ثم نراهم يصبُّون جام غضبهم عليهم، وقد أضناهم الغمُّ والحسد. جاء في سفر التثنية ٦ / ١٠-١٣) : (وإذا أدخلك الرب إلهك إلى الأرض التي أقسم لآبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيك إياها مدنا عظيمة حسنة لم تبنها وبيوتا مملوءَة كلَّ خيرٍ لم تملأها، وآبارًا محفورَة لم تحفرها، وكرومًا وزيتونًا لم تغرسْها وإذا أكلت وشبعت فاحذر أن تنسى الرب الذي أخرجك من أرض مصر إلخ....) وفي سفر الملوك الأول يخاطب الملك سليمان حيرام ملك صور طالبًا منه المساعدة في بناء الهيكل (٥/ ١٩- ٢٠).

«ها أنذا قد نويت أن أبني بيتًا لاسم الرب إلهي... فمُر بأن يُقطع لي من أرز لبنان، وخُدَّامي يكونون مع خدامك، وأجرة خدامك أؤديها إليك بحسب كل ما ترسم، لأنك تعلم أن ليس فينا من يَعرِف بقطع الشجر مثل الصيدونيين».

في إشارتنا إلى ما جاء في أسفار العهد القديم من أحداثٍ وأقوال وحكايات إلخ... فإننا

نذكرها كما جاءت في سياق النص، بغثِّها وسمينها وبدون أن نلجأ إلى معايير النقد التاريخي الداخلي والخارجي، إذ لا مجال لذلك في عجالتنا هذه. وما قصدنا إلا كشف النقاب عما كان يجول في خاطر واضعي النصوص، والاطلاع على خفايا طباعهم ومكنون صدورهم.

ومضت الأيام والسنون على الاعتراف بأسبقية الكنعانيين فأخذنا نسمع أصداء أخرى، تجحد بفضل أهل الأرض الكنعانيين.

وها هو (عاموس من أنبياء القرن ٨ ق.م) بحسب (كرونولوجية العهد القديم) يُعلن نذير الشؤم في سفره، فيبدأ بلعن (دمشق ١/ ٣-٤) : (هكذا قال الرب بسبب معاصي دمشق الثلاث وبسبب الأربع لا أرجع عن حكمي... فأرسل نارًا على بيت حزائيل، فتلتهم قصور بنهدد إلخ...ثم يلتفت إلى جنوب فلسطين (١/ ٧). «فأرسل ناراً في سور غزة فتلتهم قصورها واستأصل الساكن من أشدود، والقابض على الصولجان من أشقلون.. فتهلك بقية فلسطين...». ثم يأتي دور صور (١/ ١٠): «فأرسل ناراً في سور صور، فتلتهم قصورهم». صور هذه، التي بنى ملكها حيرام هيكل سليمان إلخ...

وبعد عاموس هذا يأتينا (أراميا وحزقيال) بـ «شحيم حقد»، ولعنات وكره وبغض، الله أعلم بدوافعهم، إن لم يكن الحسد، حسد أقوام أهماج، شعارهم القتل والذبح والدمار والتدمير (سفر يشوع) وشعارهم وطبعهم الغدر، وإلا فكيف نفسر تجديفًا كالذي جاء على لسان كائن أطلقوا عليه لقب (نبي) ... وقانا الله سوء اللاعنين وها هي بعض زعقات نبيهم حزقيال بعد سقوط (دولة يهوذا عام ٥٨٦ ق.م)، لاعنًا مدينة صور، (الإصحاح ٢٦): «لذلك قال السيد الرب، ها أنذا عليك يا صور، فأصعد عليك أُمماً كثيرة، كما يُصعد البحر أمواجه فيدمرون أسوار صور ويهدِّمون بروجها وأحرق ترابها وأَجعلها صخرًا عاريًا... لأني أنا تكلمت، يقول السيد الرب وتكون نهبًا للأمم، وبناتها اللواتي في الحقول يُقتلن بالسيف إلخ...»، وبعد صور يأتي دور مصر... هذا بعض ما جاء في سفر حزقيال وغيره من «أنبيائهم».

٤ - التحامل الإغريقي على الكنعانيين «الفينيقيين»

ليس من العدل أن نضع على قدم المساواة شناءة بعض ما جاء في الأسفار -كما ذكرنا آنفاً- مع ما نجده في كتاباتٍ إغريقية قديمة... فشتان بين هذا وذاك... وبخلاف أغلبية أهل العهد القديم الغابرين، لم ينغلق الإغريق القدماء على أنفسهم بل أقاموا شتى العلاقات مع جيرانهم: الكنعانيين والمصريين والإسيانيين (أقوام آسية الصغرى) إلخ... وكان بين الطرفين أخذٌ وعطاءٌ وحسبنا أن نطالع تواريخ (هرودوتس) لندرك مغزى خطابنا... وما نعثر عليه من بعض التحامل على الكنعانيين «الفينيقيين» في وثائق إغريقية قديمة، فهو من باب المنافسة التجارية والحسد وضعف النفس البشرية وهي أمور شائعة منذ الأزل وإلى يومنا هذا، لدى سائر المجتمعات الإنسانية. وها هي بعض الإشارات الإيجابية منها والسلبية:

جاء في الإلياذة (النشيد السادس ٢٨٧-٢٩٠): «ونزلت إلى القاعة المعطَّرة حيث نُشرت الستائر المزركشة، صنعَتْها النساء الصيدونيات.. ». وفي الإشارة إلى إناءٍ من الفضة رائع الجمال يفوق كلَّ ما نجده في سائر البلدان، نقرأ في (النشيد الثالث والعشرين ٧٤٠-٧٤٥) صنعه بدقة صيدونيون بالغو المهارة، وجاء به رجالٌ من فينيقية على مراكبهم).

أما في الأوديسية (النشيد الرابع ٦١٤-٦١٩).

«من بين سائر الروائع الفنية الموجودة في قصري الريفي أود إهداءك أجملها وأندرها... سأعطيك آنية مُطرَّقة بطنها من الفضة ومرشفها من العقيق صنعها هفايستوس، وأرسلوها إلي من صيدون».

وفي الأوديسية أيضًا (النشيد الرابع عشر ٣٨٥-٤٠٠)

فبعد أن يذكر أوديسيوس (عوليس/ أوليس)، وهو بطل الملحمة، وملك جزيرة ايثاكا (في البحر الإيوني) إقامته في مصر يقول: «في مطلع السنة الثامنة. وفد علي أحد هؤلاء الفينيقيين، الذين يتقنون الروايات الغريبة وهو الذي جلب خداعه المصائب لعددٍ

غفيرٍ من الناس قائلاً:كيف أنه أقلع به على المركب متوجهًا إلى فينيقية حيث مسكنه وتجارته، ثم بعد فترة قاده إلى لوبية (ليبية) حيث كان يودُّ أن يبيعه في سوق الرقيق».

وفي الأوديسية أيضًا (النشيد الخامس عشر ٤١٢-٤١٨): «حيث جاء أُناسٌ من فينيقية، من زمرة أولئك البحارة الجشعين الذين يكدسون في مركبهم الأسوَد مختلف أنواع سلعهم الرديئة. وكان يوجد في منزلنا امرأةٌ فينيقيةٌ ماهرةٌ في صناعة الروائع الفنية، وراحت هذه المرأة الجميلة والرشيقة ضحية إغواء وفجور هؤلاء الأفاقين الفينيقيين». وتضيف الرواية أنَّ المرأة من أصل صيدوني وأن الفينيقيين قادوها ثانية إلى بلادها... (فأين الفجور م. م).

أما المؤرخ اليوناني هرودوتس، فتارة نراه يهاجم الكنعانيين [الفينيقيين بحسب الإغريق م.م]. (الكتاب الأول/ ١) ثم نراه يُحسن الثناء عليهم (الكتاب الثاني ٤٤-١١٢-١٦١) قائلا: (وكانوا [الإغريق م. م] يعترفون عن طيب خاطر وكما يقتضي العدل بذلك، وسموها الحروف الفينيقية؛ لأن الفينيقيين أدخلوها إلى إغريقية.

٥- الخلاصة:

أ- لنُقدّرَ حضارة شعبٍ ما حقَّ قَدرِها، لابدَّ من الإحاطة بمختلف مظاهره وجوانبه الحياتية: في الاقتصاد والفن والدين وسائر النشاطات الاجتماعية، وعدم الاقتصار على ميدانٍ واحدٍ.

ب- لا يقتصر العالم الكنعاني على مفهوم (كنعان / فلسطين) كما جاء في أسفار العهد القديم، بل يشمَل مختلف ربوع ومناطق بلاد الشام (سورية الطبيعية م. م) وذلك منذ نهاية الألف الثالث ق. م، لاسيما تلك الواقعة غربي الأنهر الثلاثة: العاصي، الليطاني، فالأردن.

ج- لا يوجد كيانٌ واقعيٌّ لشعبٍ فينيقيٍّ قائمٍ بذاته والإغريق هم الذين أطلقوا هذه التسمية على الساحل الكنعاني الأوسط، اعتبارًا من العصر الهومري، ثم تلقفها المؤرخ

الجغرافي (هيكاتيوس) وردَّدها المؤرخ هرودوتس، وشاع استعمالها لاحقًا في الآداب الإغريقية / اللاتينية، وبعثها في القرن التاسع عشر (اِرنست رُنُن *E. R*enan) وغيره من الغربيين وكما قلنا فهي تسمية دخيلة، ولا نجدها في وثائقنا القديمة

د- يعكس حِقْدَ بعض أسفار العهد القديم على العالم الكنعاني مستوى جماعاته البدائي وهمجيتهم. وما رواياتُهم في سِفر يشوع وغيره من الأسفار عن اكتساح وتدمير وحرق المدن الكنعانية وإبادة سكانها والقضاء على الزرع والضرع، وهي أمورٌ لم تؤكدها الدراسات الآثارية وليس كلُّ هذا إلا التعبير الصارخ عن غليل صدورهم وضغينتهم... وليس لهؤلاء الخبيرو (عبران العهد القديم) لغةً أو كتابةً أو معارف حرفية / تقنية.

هـ- لا يمكن مقارنة بعض النصوص الإغريقية التي تعكس تنافسًا بين فريقين، بما نجده من بهتان ونميمةٍ وفِريةٍ في أسفار العهد القديم.

وما زال بعض المعاصرين العرب والأوربيين وغيرهم يسيرون على نهج الماضي الإغريقي / التوراتي، مخالفين بذلك نتائج شتى الدراسات التاريخية / الآثارية المقارنة، التي تدحض تلك الأباطيل والأقاويل والمزاعم.

و- انتقلت عدوى التحامل من الإغريق إلى الرومان الذين اصطدموا بقرطاجة، ابنة صور الكنعانية وشعار *Delenda est Carthago* (يجب تدمير قرطاجة)، المنسوب إلى رجل الدولة الروماني (كاتو القديم ٢٣٤-١٤٩ ق. م). الذي كان يردّده في نهاية خطبه السياسية، أصبح رمزَ وهدفَ الأوساط الرومانية ذات النفوذ، إلى أن تمكنوا من تدمير قرطاجة وحرقها ولعنوا كلَّ من يسعى إلى بنائها من جديد... وكان هذا أحد أسباب اغتيال يوليوس قيصر، وقد اتهموه بذلك... وإضافةً إلى ذلك، شاع في الكتابات اللاتينية تعبيرٌ ذو مغزى ودلالة، ألا وهو *Punica Fides*...وكلمة *Fides* اللاتينية تعني (الثقة، الوعد، القول الحق الخ).

وترجمتها الحرفية هي (الوعد، القول الفوني) [بمعنى القرطاجي م.م] والمقصود

عندهم (سوء النية القرطاجية)... والعجيب أنَّ الرومان يعترفون بفضل القرطاجيين، ورثة حضارة صور الكنعانية، لاسيما بفن العلوم الزراعية وتقنية بناء مراكبهم وسفنهم، ثم نراهم يجحدون الجميل القرطاجي، وهنا يكرر التاريخ الأمر نفسه بالنسبة لأهل العهد القديم وكنعانيي فلسطين...

ز- لعب أسلافنا الكنعانيون الدور الأكبر في التطور الحضاري / الثقافي لعالم البحر المتوسط، في مجالاتٍ شتى: الكتابة (الأبجدية)، تقنية الملاحة البحرية، فن عمارة المدن، أساليب التجارة الدولية، فن صناعات البرونز إلخ....

ح – بعد سقوط بابل، عاصمة الدولة البابلية الحديثة [الكلدية م. م] عام ٥٣٩ ق. م، اندثر وهج الحضارات في وطننا العربي القديم حتى فجر الإسلام، وأحاط الغموض عظمة تراث ماري وإيبلا، وبابل ونينوى، وأوغاريت وصور، وغيرها من مدن وحواضر بلاد الشام والرافدين، ما عدا صروح وادي النيل، التي تشير إلى بديع حضارة مصر في القرون الخالية، وخلا الجو- كما يقولون- لكتبة أسفار العهد القديم، فكان التشويه وتشويش الأمور والأفكار والغبن والغش... مع بعض التحامل الإغريقي / الروماني... والضحية كانت حضارة أسلافنا الكنعانيين وتراثهم وما زال الشر يلحق بنا، نحن الأحفاد...

مصادر البحث

(*) يقع تل العمارنه على الضفه الشرقية لنهر النيل على بعد ٣٤٢ كم جنوبي القاهرة، وترتفع أطلال التل الأثري على موقع مدينة (أمون حوتب الرابع/ اخناتون ١٣٦٤ - ١٣٤٧ ق .م). وعثر في نهاية القرن التاسع عشر على مجموعة ألواح فخارية تتضمن رسائل متبادلة بين الملوك وأمراء كنعان والرافدين ألقت الضوء على تاريخ تلك الحقبة التاريخية.

(1) Uf. C. Schaeffer, *Ugaritica III*. Mission de Ras- Shamra *VIII*, Paris 1956. Résumé de la *XXII*^{e} campagne de fouillles à Ras-Shamra- Ugarit- 195^{a}. *AAAS*, 10, 1960, pp. 138-158..

(٢) انظر، محمد محفل، دمشق: *الأسطورة والتاريخ، من ذاكرة الحجر إلى ذكرى البشر*، منشورات الأمانة العامة لدمشق، عاصمة الثقافة العربية، ٢٠٠٨، ص٨٥-٨٦.

(٣) *نسخة الكتاب المقدّس* المعتمدة هي، دار المشرق، المطبعة الشرقية، طبعة ثالثة، بيروت، لبنان ١٩٨٨.

(4) Ziad Sawaya, *Histoire de Bérytos et d' Héliopolis d' après leurs monnaies, I*^{e} *siècle av.* ***J.C.*** *–****III***^{e} *siècle ap. J.C., IFPO, BAH*, T.185, Beyrouth, 2009, pp. 23, 161-162, 301 R15-19.

(5) R.de Vaux O.P.t, *Histoire Ancienne d'Israël, des Origines à L'installation en Canaan*, Lib. Lecoffre, Paris 1977, pp. 106-112, 116, 134, 310 etc…

صمود اللغة العربية عبر العصور
ومرونتها في التطور

أ.د. عمر شابسيغ

عضو المجمع(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

والسلام عليكم ورحمة الله

سيدي الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس مجمع اللغة العربية، الأستاذ الدكتور محمود السيد نائب رئيس المجمع، الزملاء المجمعيون، سيداتي آنساتي سادتي

رغبت في المشاركة في احتفال يوم اللغة العربية بهذه الكلمة حول بعض نواحي جمال اللغة العربية ولكن لم تتحقق رغبتي تلك في وقتها. وما أريد إظهاره في النهاية في هذه الكلمة هو عدم صحة ما يدعيه البعض بأن اللغة العربية ذات مستويات مختلفة وأقصد هنا باللغة العربية: الفصحى أو الفصيحة وأريد إظهار قدرة اللغة العربية على مواكبة كل التطورات العلمية المتتابعة ولكن التقصير هو فينا فنحن نتكاسل.

من المدهش أن تجد لغة تستطيع قراءة شعرها ونثرها الذي كتب منذ قرون. فاللغات الأوربية المعاصرة دون استثناء لايستطيع القارىء المعاصر أن يفهم أي شيء كُتب بها قبل بضع مئات من السنين فقط. فكتابات شكسبير مثلاً بحاجةٍ إلى إنسانٍ ضليعٍ باللغة الإنكليزية التي كانت سائدةً في عصر شكسبير كي يستطيع فهمها. وقس على ذلك لغات أوربا الأخرى.

(*) محاضرة ألقيت في قاعة المحاضرات في مجمع اللغة العربية بتاريخ ١٢ رمضان / ١٤٣١هـ - الموافق ٢١ آب / ٢٠١٠م.

قد يقول قائل ولكن اللغة اليونانية صامدة والجواب على ذلك أن اللغة اليونانية القديمة أيام عصر الازدهار الهلنستي في الألف الأول قبل الميلاد هي غير اللغة اليونانية المعاصرة التي يتكلم بها اليونانيون الآن وتوجد بينهما اختلافاتٌ كبيرة.

نأتي الآن إلى اللغة العربية وأول ما يبهرنا فيها أن القرآن الكريم الذي أُنزل منذ أكثر من (١٤٠٠) عام لاتزال لغته مفهومةً ولاتزال لغته هي لغة العرب بعد كل هذا الزمان. وقد يقول قائل إنَّ السبب في ذلك قدسية النص القرآني، الذي لم يتغير والجواب هذا صحيح فالقرآن هو الذي حافظ على اللغة العربية عبر القرون.

في هذه العجالة سننظر في نماذج من النصوص العربية منذ بدأ تدوينها قبل الإسلام وحتى الآن مع مقارنةٍ بينها.

لا أريد هنا أن أدخل في الشرح الأدبي والتحليل اللغوي لأيٍّ من النصوص التي سأوردها فهذا ليس من اختصاصي، وليته كان، وأترك ذلك للغويين الأجلاء. إنما أنا رجل من هذه الأمة يستمتع بلساننا العربي وبجماله ويا له من لسان مبين.

إنَّ أقدم المدونات العربية كانت شعرًا وهذا هو الأمر الرائج عند أغلب الشعوب. فالشعر سهل الحفظ في الذاكرة بسبب سلاسته وجماله وسبكه حتى يأتي اليوم الذي يُدوَّن فيه.

ولهذا السبب سأبدأ بإيراد أمثلة من الشعر الجاهلي ومن ثم الشعر في العصر العباسي إلى أن نصل إلى شعر القرن التاسع عشر والقرن العشرين الميلادي. وغرضي من عرْض هذه النماذج هو إظهار الصمود اللغوي للغة العربية إذ يستطيع ابن اليوم أن يفهم شعر ما قبل (١٥٠٠) عام دون العودة إلى معجم . كما أنه سيظهر لنا من الأمثلة الآتية تطور اللغة لتتماشى مع الحداثة والتعابير العصرية لكل عصر.

نبدأ من شعر زهير بن أبي سلمى، وإن لم يكن من عصر الجاهلية القديم ولنسمع ما يقوله في جزء من معلقته:

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومنْ يَعِشْ ثمانينَ حولاً لا أبالكَ يسأمِ
رأيتُ المنايا خبطَ عشواءَ منْ تصُب تُمتْه ومن تُخطِىء يُعمَّرْ فيهرمِ
وأعلمُ ما في اليومِ والأمسِ قبلَه ولكنني عن علمِ مافي غدٍ عمِي
ومنْ لا يُصانِع في أمورٍ كثيرةٍ يضرَّسْ بأنيابٍ ويوطَأ بمنسمِ
ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضله على قومِه يُستغنَ عنهُ ويُذممِ

من يقرأ هذا الشعر اليوم وبعد مايقرب من القرون الخمسة عشرة يجده شعرًا جزلاً جميلاً مفهومًا لا يختلف عن أشعار أيامنا هذه فهل في أية لغة من لغات العالم شعرٌ صامدٌ يُقرأ اليوم كما كان يقرأ حينئذ.

وأنا لا أنكر استخدامه في أبياتٍ أخرى من هذه القصيدة لبعض الألفاظ التي تدلُّ على أشخاصٍ من ذلك الزمان لانعرفهم أو أماكن غير معروفة لدينا الآن، ولكن ذلك لايبدل من أمر استمرارية اللغة عبر القرون مفرداتٍ وصياغةً ونحوًا.

ثم نمر في العصر الأموي ونقرأ من شعر جميل بن عبد الله العذري القضاعي (جميل بثينة) المتوفى عام ٨٢ للهجرة:

ارحمينـي فقـد بليـت فحسـبي بعـض ذا الـداءِ يـا بثينـة حسـبي
لامَنِـي فيـكِ يـا بثينـةُ صـحبي زعـم النـاس أن دائـي طبـي
لا تلومـوا قـد أقـرحَ الحـبُّ قلبـي أنـت والله يـا بثينـة طبـي

هل هناك أحد من الحاضرين استثقل شيئا في هذا الشعر الجميل الذي يدق على أوتار القلوب التي كواها داء الحب؟

وننطلق أماما مايقارب القرون الثلاثة لنجد أبا فراس الحارث بن سعيد بن حمدان (٣٢٠-٣٥٧) هـ المعروف بأبي فراس الحمداني يقول في شعرله :

يـا ليـلُ مـا أغفـلَ عـما بي حبـائبي فيـك وأحبـابي

يـا ليـلُ نـام النـاسُ عـن موجَـع نـــاءٍ عـــلى مضـــجعِه نـــابي
هبَّـــتْ لـــه ريـــحٌ شـــاميةٌ متَـــت إلى القلـــب بأســـباب
أدَت رســـالاتِ حبيـــبٍ لنـــا فهمتهـــا مـــن بـــينِ أصـــحابي

فنرى لغة لا تختلف عن لغة أيامنا هذه بعد مضي أكثر من ألف سنة معبِّرة عن رِّقة المشاعر لهذا الشاعر الفارس مرهف الحس.

ونأتي إلى المعري حكيم دهره والعالم الكبير الذي هو أبو العلاء أحمد ابن عبد الله بن سليمان المعري (٣٦٣-٤٤٩) هـ ولنستمع إلى قوله :

لا يعجـــبَنَّ الفتـــى بفضـــلٍ فإنَّـــه مقتضـــى بوعـــدِ
يقـــول جـــاوزتُ في المعـــالي آلَ ســـــعيدٍ وآل ســـــعدِ
فلـــيسَ فـــوقي ولـــيسَ مـــثلِي ولـــيسَ قـــبلي ولـــيس بعـــدِي
والـــدهُ خصَّـــه بعـــدوى مـــن موتِـــه والحـــمام يعـــدي
أودَى بفرســـان كـــلِّ جيـــلٍ مـــن سَـــبْط فـــيهم وجَعْـــدِ

.....

فالحمـــد لله قـــل خـــيري وصـــار قـــربي نظـــير بعـــدي
وقـــد بـــدا لي مِـــنَ المنايـــا بارقـــةٌ آذنـــت برعـــد

ألا نرى هنا استمرار العربية في وضوحها العصري وهي تمرُّ عبر القرون دون أن تفقد قوتها وفصاحتها وصمودها البنيوي وأيضا مفردات وصياغة ونحوا ويفهمها الكل؟

وبعد ما يزيد على القرون الثلاثة نقرأ شعرًا لإبراهيم الطبري العالم المتوفى عام ٧٢٢ للهجرة وهو العصر الذي اعتبره بعضهم عصر الانحطاط اللغوي فنقرأ شعرا ولا أرق:

غرامِـي بسـكانِ العـذيب مقـيم وصـبرِي عـديم والفـؤاد كلـيمُ
وقلبي مـن طـول البعـاد معـذَّب إنَّ عـذابَ العاشـقين ألـيمُ

يجـاذبُني داعِـي الغـرامُ إلـيكمُ ويقعـدُني عـنكم أسًـى وهمـومُ
فلو أنَّني أُعطي لنفسِـي مرادَهـا لكنْـتُ إلى تلـكَ الوجـوهِ أشـيمُ
يشاهدُكم قلبي عـلى البعـدِ دائمًا ويهـوى دُنُـوًا والـدُّنو عظـيمُ

وتمضي الأيام والقرون والعربية صامدةٌ فنراها في شعر محمود سامي باشا البارودي، الفارس الوطني، تتألق وكأنها عروسٌ شابةٌ لم تمرَّ عليها القرون والقرون. ونرى في شعره تطورًا يتلاءم مع حاضره من حيث استخدامُ الألفاظ بمعانٍ معاصرةٍ مما يدلُّ على مرونة اللغة العربية بجانب صمودها فلننظر.

محمود سامي البارودي ١٨٣٩-١٩٠٤ . يقول في إحدى قصائده :

لـك روحـي فاصنعْ بهـا ماتشـاءُ فهـي منـي لناظرَيْـك فـداءُ
لا تكلْني إلى الصدودِ فحسْبِي لوعـةٌ لا تقلْهـا الأحشـاء
أنـا واللهِ منـذ غِبـتَ عليـلٌ لـيسَ لي غـيرُ أن أراكَ دواءُ
كيـف أَرْوِي غليـلَ قلبي ولم يبـ ـقْ لعينَـي مـن بعـدِ هجـركِ
فترفـقْ بمهجـةٍ شـفَّها الوجـ ـدُ وعـينٍ أَخْنَـى عليهـا البكـاءُ
أنـا راضٍ بنظـرةٍ منـكَ تُشْـفي بَـرْح قلـبٍ هاجَـت بـه الأدواءُ

وفي شوقه للوطن في المنفى يقول :

واطـولَ شـوقي إليـك يـا وطـن وإن عرَتنـي بحبِـك المحـن
أنـت المُنـى والحـديثُ إن أقبـلْ ـصبحُ وهمِّـي إن رنـقَ الوسـن
وكيـف أنسـاكَ بالمغيـبِ ولي منـك فـؤادٌ بـالودِّ مـرتهن
لستُ أبالي وقدْ سلمتَ على الدَّ هـر إذا مـا أصـابَني الحـزن
ليـت بريـدَ الحـمامِ يخـبرُني عن أهلِ ودِّي فلي بهِم شجن

قبل نهاية هذه الزيارة السريعة لشعرنا العربي أُورد أبياتًا جميلة لأمير الشعراء أحمد شوقي:

يـا نـاعمًا رقـدَت جفونُـه مضـناك لا تهـدا شـجونه
حمـل الهـوى لـك كلـه إن لم تُعنْـهُ فمَـنْ يعينـه
عـد مـنعما أو لا تعـد أودعـت سرك مـن يصـونه
بينـي وبينـك في الهـوى سـببٌ سـيجمعنا متينـه
رشـأ يعـاب السـاحرو ن وسـحرهم إلا جفونـه
الـروح ملـك يمينـه يفديـه مـا ملكـت يمينـه
مـا البـان إلا قـده لـو تيمـت قلبـا غصـونه
مـا العمـر إلا ليلـة كـان الصـباح لهـا جبينـه

وفي نهاية رحلتنا في أشعار العرب منذ الجاهلية إلى اليوم نتوقف قليلاً عند شاعرٍ معاصرٍ كبيرٍ هو عمر أبو ريشة فنرى الشعر الحديث هو نفس الشعر الذي نعرفه قبل (١٥٠٠) عام فلله درُّك أيتها العربية ما أروعك ولنسمع معًا قصيدته في المهرجان الألفي لأبي العلاء:

ملعـبَ الـدَّهر لـو مَلكْنـا هـدانا لبلغْنَـا مِـنَ الحيـاة مُنانـا
سـبقَتْنا إليـكَ أجنحـةُ الشَّـوقِ وشـقَّت لنـا سـبيلَ خُطانـا
وتلقيْتَنـا ببسـمة إشـفاقٍ وطوقتَنـا رضىً وحنانـا
ودَرَجْنـا مـع الشّـُروق نُغنِّيـكَ ونسـقي سـمعَ الـدُّنى ألحانـا
وحنـينُ المجهـول أَخْيلـةٌ تَنبـتُ مِـنْ كـلِّ صـخرةٍ ريحانـا
أيُّ زادٍ سـوى الظنـون حمَلْنـا وتركْنـا إلى هواهـا العنانـا

وهكذا رأينا صمود لغتنا ألفاظًا وصياغةً ونحوًا عبر القرون الطويلة في الشعر مع حصول بعض التغيير في المحتوى بحسب الزمان، وبعض التغيير في التوقف عن استخدام بعض المفردات القليلة، واستخدام مفرداتٍ أقرب إلى زمانها.

نأتي الآن إلى النثر الذي بدأ انتشاره منذ أوائل العصر العباسي وسنبدأ بأخذ أحاديثِ الرسول ﷺ ورسائله، ثم رسائل الخلفاء والولاة لاحقًا كأمثلة عن النثر العربي المبكر.

نورد مثالاً من خطبة الوداع للرسول ﷺ:

" أيها الناس: اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا .

أيها الناس إنَّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقَوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا. وإنَّكم ستلقَون ربَّكم فيسألكم عن أعمالِكم وقد بلغت. فمن كان عنده أمانةٌ فليؤدِّها إلى من ائتمنهُ عليها. وإنَّ كلَّ ربا موضوعٌ ولكن لكم رؤوسُ أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون... " إلخ

عند قراءتنا ودراستنا لهذا النص نجد نصًا بليغًا مختصرًا وليست فيه كلمةٌ واحدةٌ لا نفهمها أو صياغة واحدة لاندركها بعد ١٤٢٢ عامًا. هذا كلام إنسان. هذا هو الكلام العادي الذي يتكلم به مع الناس يوميا أي أنَّ هذا هو كلامٌ عربيٌّ مبينٌ يتكلم به الناس فيما بينهم ونفهمه نحن بعد كلِّ هذه المدة فهمًا كاملاً فماذا جرى لمن أراه يحاول الخوض في العامية وماذا جرى لنا كلنا حتى لانتكلم لغةً مثل هذه اللغة؟

ثم نقرأ في خطبة أبي بكر الصديق وهو يودع جيش أسامة بن زيد:

" أيها الناس: قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لاتخونوا، ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثِّلوا ولا تقتلُوا طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأةً ولا تعقُروا نخلاً ولا تحرِّقوه ولا تقطعوا شجرةً مثمرةً ولا تذبحوا شاةً أو بقرةً ولا بعيرًا إلا لمأكله. وسوف تمرون بأقوامٍ قد فرَغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم ومافرغوا أنفسهم له ....الخ ".

أترون فصاحة النص العادي الذي نكتب مثله في هذه الأيام في صحافتنا ونسمعه في إعلامنا المسموع والمرئي (عندما لاينزلون بلغة الإعلام إلى الدرك الهابط من العامية).

ننتقل إلى كتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه إلى العربية في صدر الدولة العباسية عبد الله بن المقفع ونقرأ منه باب بعثة برزويه إلى بلاد الهند :

(أما بعدُ فإنَّ الله تعالى خلقَ الخلق برحمتِهِ ومَنَّ على عباده بفضله وكرمه ورزقهم ما يقدِرُون به على إصلاح معايشهم في الدنيا، ويُدركون به استنقاذ أرواحهم من العذاب في الآخرة، وأفضلُ مارزقهم الله تعالى ومنَّ به عليهم العقلُ الذي هو الدَّعامة لجميع الأشياء والذي لايقدر أحد في الدنيا على إصلاح معيشته ولا إحراز نفعٍ ولا دفعِ ضررٍ إلا به).

وفي مكان آخر يقول :

(زعمُوا أنه كان بأرضِ الكَرْخ ناسكٌ عابدٌ مجتهدٌ فنزل به ضيفٌ ذاتَ يومٍ فدعا الناسك لضيفه بتمر ليطرفه به فأكلا منه جميعا ثم قال الضيف : ما أحلى هذا التمر وأطيبه. فليس هو في بلادي التي أسكنها وليته كان فيها، ثم قال: أرى أن تساعدني على أن آخذ منه ما أغرسه في أرضنا فإني لست عارفًا بثمارِ أرضكم هذه ولا بمواضعها. فقال له الناسك : ليس لك في ذلك راحةٌ فإن ذلك يثقُل عليك، ولعلَّ ذلك لايوافق أرضكم مع أنَّ بلادكم كثيرة الأثمار فما حاجتها مع كثرة ثمارها إلى التمر مع وخامته وقلة موافقته للجسد؟ إنه لا يُعدُّ حكيمًا من طلب ما لا يجدُ، وإنك سعيدُ الجَدِّ إذا اقتنعت بالذي تجد وزَهِدتَ فيما لا تجد).

ونرى في ذلك نصا مفهوما سهلاً ممتعًا جميلاً لا تشوبُه شائبة معاصرة فلا أحد يقرأ الصحف ويستمع للإعلام المسموع الفصيح يستطيع أن يقول لم أفهم.

ونأتي إلى مثال آخر من كتاب البخلاء للجاحظ الذي ظهر في أواخر القرن الثاني الهجري . والجاحظ هو أبو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني. يقول في الكتاب في رسالة سهل بن هارون إلى بني عمه:

((ثم قد تعلمون أنَّ ما أوصيناكم إلا بما قد اخترنا لأنفسِنا قبلكم وشهرْنا به في

الآفاق دونكم. فما كان أحقكم في تقديم حرمتنا بكم، أن ترعَوا حقَّ قصدنا بذلك إليكم وتنبيهنا على ما أغفلنا من واجبِ حقكم فلا العذر المبسوط بلغتم ولا بواجب الحرمة قمتم. ولو كان ذكر العيوب برًا وفضلاً لرأينا أنَّ في أنفسنا عن ذلك شغلاً)) .

مع ما نعرفه من حب الجاحظ للصنعة في كتابته كما يظهر من هذا النص فلا يزال النص واضحا ومفهوما لنا بعد اثني عشر قرنا.

ويحضرني نص من حقبة الانحطاط وننظر إلى مقطع من كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) للمؤرخ والأديب يوسف بن تغري بردي المتوفى في عام ١٤٧٠ للميلاد. لهذا العالم العديد من الكتب منها: (المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي) – (الدليل الشافي على المنهل الصافي) أكمل بهما الوافي للصفدي – (مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة) – (نزهة الرائي) – (حوادث الدهور في الأيام والشهور) في أربعةِ أجزاءٍ جعله ذيلاً لكتاب (السلوك) للمقريزي – (البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر) وهو تاريخٌ مطوَّلٌ – (حلية الصفات في الأسماء والصناعات) وهو في الأدب.

يقول في أحد مقاطع كتابه:

قال المقوقس: (كيف رضيتم أن يكونَ هذا الأسودُ أفضلَكم وإنما ينبغي أن يكونَ هو دونكم؟).

قالوا: (كلا إنه وإن كان أسود كما ترى فإنَّه من أفضلنا موضعًا وأفضلِنا سابقةً وعقلاً ورأيًا وليس ينكر السواد فينا).

فقال المقوقس لعُبادة: (تقدَّم يا أسودُ وكلِّمْني برِفقٍ فإنني أهاب سوادَك وإنِ اشتدَّ كلامُك عليَّ ازددتُ لك هيبةً).

فتقدم إليه فقال: (قد سمعتُ مقالتَكَ وإنَّ فيمن خلفْتُ ورائي من أصحابي ألفَ رجلٍ مثلي وأشدَّ سوادا مني وأفظعَ منظرًا ولو رأيتَهم لكنتَ أهيبَ لهم مني وأنا قد وَليت وأدبرَ شبابي وإنني بحمدِ الله ما أهابُ مئةَ رجلٍ من عدوي لو استقبلوني جميعًا، وكذلك أصحابي).

عبادة هو الصحابي عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

ننتقل الآن إلى كتابٍ علميٍّ تمَّت ترجمته إلى العربية في أواخر القرن العشرين:

(استبدلْتُ تدريجيًّا خلال السنوات الأخيرة بأنظمةِ الاتصالات التمثيلية التي تَسْتَخدِم التعديل المطالي أو التعديل الترددي أو التعديلَ الزاوي أنظمةَ اتصالٍ رقمية حديثة، لها العديدُ من المزايا على أنظمة الاتصال التمثيلية مثل: سهولة معالجة الإشارة – وسهولة التنضيد – والحماية من الضجيج).

وفي نص من كتاب طبي يُدرَّس في جامعة دمشق نقرأ:

(تتظاهر الكيسة المغلقة بشكلِ ظلٍّ وحيدٍ مدوَّرٍ أو بيضوي متجانس ومنتظم الحواف على ساحةٍ رئويةٍ سليمةٍ يلتبس تشخيصُهُ مع أورام الرِئة السليمة أو الدرنية ..... إلخ).

وفي كتابٍ تقني آخر نقرأ:

إنَّ الخصائص التي يمكن أن تدخل في أتمتة الاتصال اللاسلكي في الترددات العالية هي:

- النداء الانتقائي selective calling
- مسح عدد من الترددات scanning
- تقييم القناة آنيا (في الوقت الحقيقي real time)
- سبر المسارات آنيا (في الوقت الحقيقي real time)
- تحليل جودة الاتصال
- إقامة الاتصال آليا

اللغة لا تزال هي العربية مع تطورٍ يواكب التطور العلمي الحديث. فهي تستوعب أحدث العلوم وما علينا إلا أن نسرع في ترجمة المصطلحات الجديدة بالسرعة التي تظهر بها قبل أن يفوتنا القطار ويدَّعي من يكره العربية ظلمًا لها وجهلاً بعلم اللغات أنها لا تصلح للعلوم الحديثة.

هذه العجالة في مقارنة الشعر العربي والنثر العربي عبر العصور تدلُّ على مدى حيوية اللغة العربية. وعلى أولئك الذين يريدون أن يقللوا من شأن العربية (وأقصد بها الفصيحة)

وأنْ ينتقلوا إلى العاميات أو إلى تغيير الأبجدية المستخدمة أو استخدام اللغات الأجنبية بدعوى ملاءمة هذه اللغات لتطور العلوم، أن يعلموا أنَّ اللغة العربية لم تكن يومًا ولن تكون عائقًا أمام التقدم العلمي فهي كانت لغة العلم لمئات السنين ويجب أن تعود كذلك وليس العيب في اللغة العربية، بل العيب فينا نحن أهلها وفيما فعلناه بها نحن قبل الأجانب الذين هم ضدها أساسا. إنني لأعجَب عندما أرى دولة صغيرة كاليونان يتمُّ التدريس فيها لكلِّ مراحل التعليم باليونانية ولا تزال تُكتب بالحروف اليونانية مع أنَّ كل أوروبا الأخرى ما عدا صربيا وبلغاريا تستخدم الأحرف اللاتينية. ألم أقل لكم أن العيب فينا نحن أهل اللغة العربية؟

يأتي بعض علماء العربية فيزعمون أن اللغة العربية لغتان: فصحى وفصيحة وأنَّ الأدب القديم من الفصحى وأن الأدب الحديث من الفصيحة.

فبربكم وبعد هذه المقارنة عبر العصور هل كلام رسول الله ﷺ أو شعر زهير بن أبي سلمى مثلا هما فصحى أم فصيحة؟ كلا إنها لغة عربية واحدة فبالله عليكم لا تقسموها إلى مستويين تحت ضغط أعداء اللغة العربية الذين يريدون هدمها بكافة الوسائل من إدخال العامية لها والقيام بإضاعة الوقت الثمين بدراسات عن العامية بدل تطوير دخول المصطلحات الحديثة إلى اللغة العربية. أو ليست كلمة أبي بكر الصديق في الجيش متطابقة تماما مع اللغة التي نستخدمها الآن؟؟

وإنني لأعجب مثلاً ممن يؤيد كتابة العربية بأحرف لاتينية ماذا يفعل بكلمة مثل اسم حمزة. فللتاء المربوطة في العربية خاصيةٌ لا توجد مثلها في أي لغة أعرفها (ست لغات) . التاء المربوطة تُلفظ تاء عندما تكون الكلمة في أولّ الجملة أو في سياق الجملة وتُلفظ هاء عند السكون. فهل في لغات العالم مثل ذلك ؟ كيف نكتب هذا الاسم باللاتينية؟ هل نكتبه Hamzat وعندها تنطق التاء المربوطة تاء بشكل دائم أم نكتب Hamzah وعندها نكون قد سكَّنا التاء المربوطة بشكل دائم.

إن من ينبري للحطِّ من إمكانات اللغة العربية لايعرف هذه اللغة وكفى.

كلمتي اليوم تأتي على خلفية دعوة يحاول البعض نشرها للعمل على اللهجات العامية، وهو ما سيؤدي إلى ظهور لغات عربية مختلفة لكل قطر يتم بها التخاطب الإعلامي والرسمي وبذلك تندثر اللغة العربية وأقصد هنا الفصيحة، وتتم الخطوة ما قبل الأخيرة في مخطط سايكس - بيكو - سازونوف الذي في حقيقته لم يكن فقط لتقسيم أراضي الدولة العثمانية، بل لإظهار كياناتٍ صغيرةٍ يتفاخر بها أبناؤها وينسون ارتباطهم بأمتهم وبلغتهم. فالاتجاه إلى العمل على اللهجات العامية هو استمرارٌ لمخططِ سايكس - بيكو- سازونوف لتفتيت العرب والمسلمين في هذه المنطقة ذات الأهمية السياسية والاقتصادية والسكانية لهم مستقبلاً أي لأعداء الأمة. فأينما تذهب الآن تقابلك في مطارات العواصم العربية لوحاتٌ كبيرةٌ يُكتب عليها اسم الدولة صاحبة المطار ثم كلمة (أولا) وعندما يكتمل ظهور العاميات المحلية كلغات لا سمح الله فإنَّ هذا الشعار يكون قد اكتمل تنفيذه.

ويدعي الداعون إلى النظر في العاميات أن هناك أمورًا لا تستقيم إلا باستخدام العامية وبعض التعابير التي أيضًا لا تستقيم إلا بذلك. إنَّ هذا التفكير نابعٌ عن عدم اكتمال المعرفة اللغوية عند هؤلاء أم هل أقول مقاربة الأسهل الذي تعودنا عليه في بيوتنا وحياتنا؟ أي التكاسل.

لا يجرؤ على التصريح بقصور أية لغة إلا من لا يعرف علم اللغات. إذ لا توجد لغةٌ في العالم لا يستطيع متقنها التعبير بها عما يريد من أمور الحياة سواء كان ذلك في الفنون والآداب أم في العلم.

هذا مبدأٌ يسري على اللغات كافة.

يقولون ويا للأسف، أنَّ الأغاني العامية هي التي تطرب وينسون كل الأغاني الرائعة بالفصيحة التي ترنَّم بها العوام قبل المثقفين مع محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وناظم الغزالي وفيروز وكاظم الساهر وغيرهم كثيرون. ينسون القدود الحلبية والموشحات الأندلسية وكيف يتراقص معها الشباب. وينسون وينسون وينسون. أم يتناسون؟

يخافون ألاَّ يفهم الأطفال الفصيحة فبدؤوا يذيعون برامج الأطفال ومقدموها يرطنون بالعامية وينسون كم استمتع أطفالنا بالبرامج الفصيحة كبرنامج (افتح يا سمسم) ومسلسل (هذه هي الحياة) وأفلام الصور المتحركة (غراندیزر) وغيرها. وكان الأطفال يقلدون ما يسمعون ويتكلمون معنا بالفصيحة الجميلة. فهل ما يحصل الآن من هجمةٍ ثقافيةٍ على أطفالنا بالذات من قبل هيئاتٍ أجنبيةٍ تُظهر اهتمامها بتربية ورعاية أطفالنا هو جزءٌ من إضاعة لغتنا العربية لدى أطفالنا ونحن مع الأسف نظن أنهم أصدقاء، كما ظن بعضهم في يوم من الأيام أنَّ الرائد لورنس الجاسوس البريطاني ضابط المخابرات كان صديقا للعرب وللمسلمين؟ أم هل هي حملة سايكس- بيكوية - سازونوفية تكميلية حيث التوحد العربي ممنوع دوليًا حتى لو كان توحدًا لغويًا، ونحن يجب أن نستسلم لذلك؟ هل هذا ما تريدون أيها السيدات والسادة؟

ثم يأتون لنا بالمسلسلات وهي تنطق بالعاميات وينسون أنَّ بعض أشهر المسلسلات كانت ناطقةً بالفصيحة ولم يتأفف من ذلك أيٌّ من العوام. أم هم يتناسون؟؟؟؟ وأذكر كم خجلت عندما عرض تلفازنا مسلسلا جزائريا باللهجة العامية عندهم ولم أفهم منه شيئا وكأنَّ التلفاز السوري أدرك ذلك عندئذ فوضع كتابةً عربيةً فصيحة على المسلسل ترجمةً للحوار.

ويسمحون لدرس اللغة العربية أن يدرس ويشرح لأطفالنا وطلابنا باستعمال العامية حتى في تدريس اللغة العربية. إنني لا أستطيع هنا إلا أن أستخدم تعبير المرحوم الممثل يوسف وهبي عندما يقول في إحدى مسرحياته: (يا للهول) !

ويسمحون لأساتذة الجامعات عندنا بشرح محاضراتهم بالعامية، وكأن الفصيحة عدوتهم.

ويسمحون للجامعات الخاصة بالتدريس باللغة الإنكليزية، وكأنهم يقولون لنا إن العربية لا تصلح للتدريس العلمي.

إنَّ كلَّ ما يجري الآن على ساحة اللغة العربية من تقويضٍ لها وبهمَّةٍ كبيرةٍ ومن محاولات قطرنة (من قطر) اللغة لتصبح لغةً قطرية من أقطار مستتبعات سايكس – بيكو –

سازونوف لن ينجح بإذن الله، إذا وضعنا أيدينا مع بعضنا البعض لنقل المصطلحات الجديدة إلى اللغة العربية قبل أن تصبح المصطلحات الأجنبية دارجة. وهذا هو واجبنا الأول.

والواجب الأهم هو محاربة انتشار العامية في مؤسسات الدولة والإعلام والتعليم بكل مراحله، والعناية باللغة الفصيحة بحيث تكون هي الأساس في التعيين في وظائف الدولة وليست اللغة الأجنبية. فبربكم قولوا لي ماذا تفيد الإنكليزية إن أجادها كاتب في شعبة تجنيد ناحية النشابية التابعة لدوما في ريف دمشق؟؟ أو لدى موظف تسجيل الوارد في ديوان الشؤون العقارية؟

وما يدعوني للعجب أن هناك بعض المسؤولين عن دعم اللغة العربية الفصيحة وعن محاربة العامية ويعملون عكس ذلك.

وإنني لأدعو من فوق هذا المنبر إلى إغلاق جميع المدارس الخاصة التي تقوم بالتدريس لمواد الدراسة بغير اللغة العربية، كما أدعو إلى مراقبة الجامعات الخاصة في استخدامها للغة العربية فليس هناك عذرٌ لذلك ونحن نعرف أنَّ كل خريجي جامعاتنا الحكومية التي تدرس باللغة العربية ينجحون نجاحًا بالغًا سواء في دراساتهم العليا في الخارج أو عند استقرارهم في بلد أجنبي.

أنا لا أخاف من اندثار اللغة العربية فإنها لغة الذكر الحكيم والله عز وجل يقول في محكم كتابه بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿إنا نحن نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون﴾ صدق الله العظيم. ولكنني أخاف عليها أن تصبح لغةً للدين فقط وليست لغة الأمة.

أيها السيدات والسادة إنني من خلال عملي التدريسي في الجامعة منذ عام ١٩٦٥ وحتى الآن، بدأت أرى حاليًا بوادر يقظةٍ لدى بعض ولا أقول كل الشباب في محاولتهم الارتفاع بفكرهم وذهنيتهم إلى مستويات أعلى مما نراه في المتوسط العام.

سأستعير هنا جملة قالها مارتين لوثر كينغ في خطاب له: (إنني أحلم .....) ويعني بذلك أنه يرغب وسيعمل لتحقيق رغبته، فأقول لكم وأنا أنظر في عيون الشباب: إنني

أحلم بأنَّ هذه الفئات من الشباب العرب ستكون قائدةً لنا جميعًا في استخدام العربية في البيت والشارع والعمل وفي الدفاع عنها وأحلم بازدهار اللغة العربية خلال فترة قصيرةٍ على أيدي من يريد الانتساب إلى هذه الفئة من الشباب الذين أراهم بعين الأمل. أحلم وكلِّي أمل أن أرى العربية الفصيحة هي الأساس في كل أركان الدولة ومؤسساتها، وهي الأساس لدى كلِّ من تعلم القراءة والكتابة وأحلم أن وسائل الإعلام المسموعة والمرئية على امتداد الأمة العربية لم يعد يُسمع منها إلا العربية الفصيحة وأحلم ألا يستلم في هذه الأماكن المسؤولية إلا من لا يعرف عنه تفضيله للعامية. هذه ليست أحلام بل هي ما أريد أن يكون، وما سأسعى لكي يكون، ما دام يخفق في صدري قلب.

أيها السيدات والسادة لنبدأ من أنفسنا وليكن كلامنا كله عربيا مع أطفالنا في بيوتنا، وحتى مع جداتنا فإنهن وإن لم يكنَّ يستطعن التعبير بالفصيحة إلا أنهن يفهمنها. وليكن كلامنا عربيا في أعمالنا وفي الأسواق ولا تخجلوا إن استهزأ أحد وقال : (عم يحكي نحوي) فهو الذي يجب أن يخجل. هذا الأمر يتطلب إرادةً قويةً للتغلب على العادة وأنتم وكل العرب قادرون على ذلك.

أنا لم أقصد في كلمتي هذه النيل من أحد، ولكنها تذكرةٌ لعل وعسى تصل إلى القلوب قبل العقول.

قبل الختام أعود إلى عنوان المحاضرة (صمود اللغة العربية عبر العصور ومرونتها) وأقول بأنني أظهرت لكم في الجزء الأول من المحاضرة صمود اللغة العربية ليس جمودًا وتجمدًا فيها فلو كان ذلك لما صمدت، ولكن الصمود ناتجٌ طبيعي للمرونة في التطور عبر العصور وتوافقٌ للغة مع متطلبات الحضارة في كلِّ عصرٍ لا كما حصل في لغات أوروبية شهيرة.

فلنفخر بلساننا العربي المبين

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

فهرس

		الصفحة
- تقديم		٥
محاضرات عام ٢٠٠٩م		
- الإدارة بالشفافية	د. مهند نوح	٧
- العلاقة بين اللغتين العربية والأكادية	د. نائل حنون	٢١
- الأبجديات القديمات:	د. محمد بهجت قبيسي	٤٥
- العلوم الحيوية واللغوية: آفاق ومنهجيات	د. أنور محمد الخطيب	٨٧
محاضرات عام ٢٠١٠م		
- نحو مصالحات لغوية ومصارحات	د. ممدوح خسارة	١٠٥
- مجالي الأدب المؤدّب في الفصول والغايات	د. عيسى العاكوب	١٣٥
- بلاد كنعان في العالم القديم	د. محمد مُخفِّل	١٥١
- صمود اللغة العربية عبر العصور ومرونتها في التطور	د. عمر شابسيغ	١٦٣